منهج اليهود

فى تزييف التاريخ

محمد عبد الواحد حجازى

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
☎ ٢٢٣٧٨٨٢

الطبعة الأولى

مكتبة الإيمان - المنصورة
☎ ٢٢٥٧٨٨٢

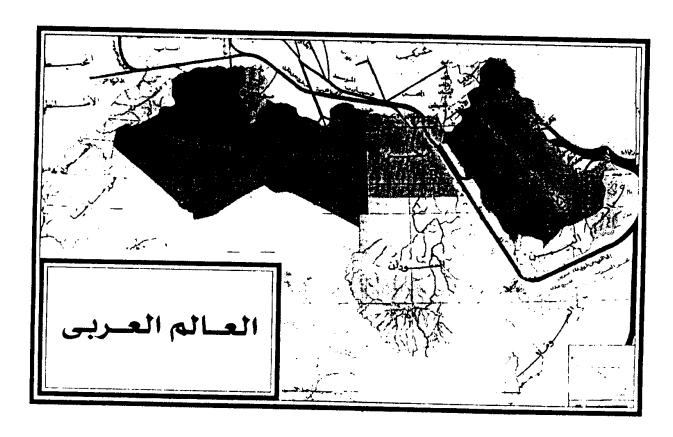
بسم الله الرحمن الرحيم

★﴿ يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَىٰ وجَعَلْناكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ﴿ (١٣) سورة الحجرات ﴾

★﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ (٨٢) سورة المائدة ﴾

★﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ ﴿ (٤٦) سورة النساء ﴾

★﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ﴿ (١٣) سورة المائدة ﴾



العالم العربى

المقدمة

كتابنا : "منهج اليهود فى تزيف التاريخ " يتصدى لأخطر القضايا الفكرية والتاريخية التى توجب دراستها فى موضوعية تنتظم المنهاج السوى فى عرض المشكلات عرضا أمينا صادقا مبرأ من أهواء التحامل والغلو.. وذلك بهدف أن نصل إلى النتائج التى تنير لنا سبيل الرشاد .والتى نستطيع بها أن نميز بين الحق والباطل ، وأن نميز بين الذين يهدفون إلى إيضاح الحق فى صفاته ، وبين الذين يغالطون ويموهون..

ومن هنا كان الكشف عن أساليب التزييف مما يظهر طبيعة المزيفين النفسية والفكرية ، والأهداف التى يسعون إلى إشاعتها وترسيخها .. ومن هنا كان التزييف فيما يثيرشه وفيما يصطنعه من افكار له عواقب وخيمة على العلاقات الإنسانية بين الشعوب والقيم الحضارية والتى يجدر ان تتاصل بينها ..

والكشف عن التزييف فى قضاياه وأساليبه يخدم أربعة أهداف :

الأول : تأصيل الحق .

الثانى : إماطة اللثام عن الأراجيف والأباطيل.

الثالث :أن يكتسب الإنسان الخبرة العقلية الواعية بأساليب الادعاء والكذب .

الرابع : أن يكتسب الإنسان المناعة ضد المخادعة والتضليل .

الخامس : الإحساس بالمسئولية تجاه عمليات التزييف وتقدير مدى خطورتها .

أمام هذا كله كان لزاما علينا أن نقوم بدراسة موضوع "منهج اليهود فى تزييف التاريخ " إحقاقا للحق وتوعية للبصيرة .. وذلك لأن التزييف قد بلغ دروته مما يوشك أن يكون لدينا تاريخ غير التاريخ وإنها لكارثة تنذر بالكثير .

نرجو أن يتجنبها العالم العربى والإسلامى فنظل على جادة الصواب سائرون .. وعلى هدى من الإيمان بالله عاملون

الفصل الأول

مقـومات الفكر التـاريخى

(أ) الوعى التاريخى

(ب) فلسفة الوعى التاريخى

(جـ) موازين التاريخ

الوعى التاريخى

ما هو الوعى ؟

من الضرورى أن نطرح هذا السؤال لأن الإجابة عليه تحدد فى لبابها مفهوم الوجود الإنسانى ، أو مفهوم الكيان الإنسانى . وهو المفهوم الذى يعد الدافع الرئيسى للإرادة الإنسانية لتحقيق إمكاناتها الوجودية فى واقع حضارى مشهود .

والحق أنه من العسير أن نجعل للوعى صيغة أو صفة واحدة ، معينة ومحددة وكأننا نراها رأى العين . لأنه يدخل فى تكوينه عناصر مختلفة تتآلف كلها لتجعله قوة ذاتية فطرية يتميز بها الإنسان على غيره من سائرالمخلوقات . ورغم هذه الصعوبة فإننا نقول :إن الوعى طاقة ذهنية لها حضور إدراكى وجودى قادر على الاختيار أو الانتقاء النقدى ، ومعرفة الصواب من رموز الواقع وأحداثه . ومن ثم فإن للوعى القدرة على أن يستشف المستقبل وأن يحس به إحساساً غامضا أو أن يوقن به إيقانا غامضا .

الوعى بهذة الخصائص هو الذى واجه به الإنسانوجوده من لدن بواكيره الأولى قبل التاريخية ، يوم أن كان يعدو هنا وهناك وراء ثمار يجمعها ليقيم أوده ويسد مغبته . . أو يعدو هنا وهناك وراء قنيص يطفىء به لظى جوعته . لقد كان فى كل خطوة يخطوها يؤصل وعيه ويؤصل وجوده فى آن واحد ، وتأصيل الوعى فى هذه المرحلة التى يمكن نعتها بأنها شبه تاريخية كان يعنى امتزاج الخبرة العلمية بالخبرة السلوكية وفق تقاليد وعقائد تتكون فى تؤدة وحذر ، وصلابة فى نفس الوقت ، فلما أن صنع الإنسان أول آلة صيد أو أول آلة اصطنعها سلاحاً فى تنقله وترحله كانت هذه الآلة وقد سبقها تفكر وخطة وسبقها أمل لهيف ، وسبقها إحساس بالمسئولية نحو من يشاركونه الحياة فى الدائرة الأولى والأولية هى الإبداع الأول فى تاريخ الوجود الإنسانى وكانت الأفكار التى سبقتها الإحساس بالمسئولية نحو صناعتها والهدف منها هى اللحظات الأولى لتفجر

الوعى التاريخى بعامة ، إن الوعى هنا وعى عملى مُعاش فى مزاج من الخيال والساذج الجموحالذى شاعت له سذاجته أن يفترض الحياة فى كل ماحوله : فى النبتة الضئيلة التى يدوسها بقدميه ، أو فى الزهرة المونقة التى تسره بمنظرها وتبهجه بعبيرها ، أو فى اشجرة السامقة امتكبرة بتلافيها الكثيفة المهتاجة ، أو فى النهير الذى يجرى أمامه بمائه هادئا رقيقا ، أو فى النهر الفاهق الدفاق بمائه المنطلق . .أو فى الصخور التى تعترضه فيتخذ منها سلاحا يقذف به صيده الذى يعدو أمامه . . أو فى الحيوانات التى تتآلف معه فتعينه وتؤنسه . . أو فى الغاب الكثيف وهو يموج فى مخارفه فى توثب متصل أو وهو ساهم فى لفح القيظ . . أو فى النجوم السواطع رغم ما يلفها من ظلام حالك رعيب . . أو فى النسمات الرقاق . . أو فى العواصف الهوج . . أو فى المطر الغزير .

فى كل هذه الظواهر كان الإنسان يجد حياة ، بل يجد حياته ، بل يجد ذاته .

ومن ثم كان يعيها وعى تواصل وتكامل ضرورى فادخلها فى دائرة حياته أو أحاطها حياطة المهابة والتقديس والأمل والرجاء .

كانت تلك هى الطبيعة الذاتية للوعى الإنسانى فى غرارته الساذجة الأولية . ولعل هذه الطبيعة هى اللب الأصيل لطبيعة الوعى الإنسانى الذى تشتمل عليه الفطرة الإنسانية . وما لم نضع هذه الصورة فى مخيلتنا أو أمام عقولنا لتصورها فلن نتمكن من أن ندرك حقيقة الوعى وعمله وضرورته . ذلك أنه بهذا الوعى الحياتى أو المعاشى عالج الإنسان شئون حياته أو شئون معاشه . فهو لا يستطيع أن يصنع شيئا بغير أن يشمله بوعيه أو يعالجه بوعيه . ولا يتصل بأى ظاهرة من ظواهر مجتمعه التى يكون فيها نفع لحياته أو لمعاشه بغير أن يعيها فى طبيعتها وصفتها ومقدار ما يجنيه من ورائها من نفع أو مبلغ ماقد يصيبه من أذى . . وربما كان الوعى مقياسا لكل ما حوله من ظواهر الحياة كذلك الذى نشأت عليه الحضارات فى مواطنها

فالوعى هنا وعى مقدس يقترب فى خشوع وجلال وتقدير من هذه الظواهر وكأنها معه على درب واحد ومصير واحد . .

بهذا الوعى نشأت الحضارات وآتت خير ذخرها فى العلم والآدب والعقيدة والثقافة والصناعة . ،كذلك آدب السلوك التى تعنى الفرد فى صلاته الشخصية وصلاته الاجتماعية .

وعلى هذا يمكننا أن نقول أن الوعى فى ذلته فطرة واحدة ولكنه يتخذ مدخلات متخالفة فى صبغتها حسب الناحية الحضارية أو الذاتية الإنسانية التى يعالجها ويجعلها محور نشاطه ودائرة حياته وعمله : فهناك من ثم وعى صناعى ، ووعى تجارى ، ووعى علمى ، ووعى ثقافى ،ووعى سياسى . ولكل وعى من تلك ما يتفرع منه أو يتفرع عليه من صنوف المعرفة العلمية أو التكنولوجية ، أو الثقافية ، أو الفنية . فلكل فرع درجة متميزة من الوعى ، ولا أقول نوعا متميزا من الوعى لأن لباب الوعى واحد وطبيعته واحده وهى الفطرة الأولية التى سبق أن وصفت صبغتها . . فهناك من ثم وصال حتمى يربط درجات الوعى ربطا عضويا ضروريا ، بحيث نستطيع أن تقول إن لباب الوعى عند الشاعر ، هو عند الموسيقى ، هو عند الفيلسوف ، هو عند العالم الرياضى والعالم التكنولوجى .

وفى كل هذه الدرجات المتمايزة نجد أن الوعى يتصف بالإيجابية الإنفعالية القادرة على الإدراك والتقويم ثم إعطاء الإشارة للإرادة كى تقوم بالتحقيق والتنفيذ ، . فهذه الإيجابية لا تخرج كمجرد اندفاع إنفعالى عارم ولكنها توتر تقديرى نقدى بين ما هو قائم وبين الموقف الجديد الذى ارتآه التصور العمى أو التصور الفكرى للإنسان ، وبين الأسس التى هى دعائم للفكر بل تقاليد للمكر على العالم أو المفكر أن يخضع لها خضوع التسليم التقليدى ، إن أجيز هذا التعبير

إن الوعى فى تكونه وتأصله له من القوة الإيجابية حيث يبدو وكأنه استجابة تلقائية للموقف الجديد ومن هنا يتميز الوعى تميزتين أساسيتين

(الأولى) القدرة على التقويم والتقدير

(الثانية) القدرة على الفعل الإيجابى فى تلقائية حرة

وإن من شأن الوعى وهو بهاتين الخاصتين أن يكون تحقيقاً لإمكانات وجودية إنسانية .

وإذ يكون الوعى وعيا وجوديا بالحياة فإنه يكون فى نفس الآن - وإن لم يكن ظاهرا متعينا ومقصودا - وعيا بالزمان . والوعى بالزمان يتفق والآنات

(الثلاثة) فهناك وعى بالحاضر ، ووعى بالمستقبل ، ووعى بالماضى . لكنما الوعى الرئيسى الحضارى الذى يكتسبه الإنسان فى وجوده هو الوعى التاريخى ..

فما هو الوعى التاريخى ؟

يظن البعض أن الوعى التاريخى وعى بالتاريخ ، وهذا ظن خطأ صريح ..

ذلك لأن الوعى بالتاريخ لا يزيد عن كونه معرفة بذاكرة التاريخ ، أو بذكريات التاريخ فى تواتر أحداثه ووقائعه وشخصياته . ، مثل هذا الوعى يصح وصفه بأنه وعى معرفى ، أو وعى مدرسى تحصيلى ، لا أكثر ولا أقل . وعلى هذا فلن يكون له تأثير يذكر فى بناء الشخصية الإنسانية وإعطائها طابعا خاصاً فى الفكر والسلوك ، والمثل والآداب الأخلاقية التى على أصولها ينشأ تعامل الإنسان مع الغير ، كما ينشأ تصوره وتقديره للأحداث والوقائع .

وكذلك فإن الوعى التاريخى ليس مجرد إحساس بالتاريخ أو إحساس بالأحداث التاريخية . بمعنى أن ينشأ لون من الوان الشعور التعاطفى بأحداث تاريخية معينة أو بوقائع تاريخية معينة أو بشخصيات تاريخية معينة ، ذلك أنه من الممكن - بل أن لواقع فعلا - أن يكون أحساس التعاطف مجرد انفعال موقوت ، أو إحساس موقوت له مصادفاته التى ينبعث فيها ثم لا يلبث أن يختفى فى ظلال اللاشعور .. هذا فضلا عن أن الوعى التاريخى حين يكون

مجرد إحساس بالتاريخ فى أحداثه فإنه لا يلزم إلزاما حتميا أن يكون له تأثير فى تكوين الشخصية الإنسانية . وفى تكوين وتأصيل وعيها بكونه مقوما رئيسيا من مقوماتها . ،كثيراً ما نشاهد الحالات الانفعالية التى تعترى البعض من الناس عند ذكر واقعة من الوقائع التاريخية التى كان لها شأنها فى المسيرة التاريخية لأمته أو لأمة غيرها .، أو عند ذكر الدور التاريخى الذى أداه بطل تاريخى لنصرة أمته ورفع الغبن عنها ووضعها على الطريق الحضارى الجدير بها . .يتحمس هذا البعض عن إحساس تاريخى ، ويتجادلون ويتخاصمون عن إحساس تاريخى . وما أن تنتهى المجادلات والمناقشات حتى يعود كل إلى طبيعته التى عرف بها أو طبعه الذى عهد عليه .

إذن فالوعى بالتاريخ كالإحساس بالتاريخ فى كونهما بعيدين كل البعد عن الوعى التاريخى . وإن كان كل منهما مختلفا عن الآخر . . فالأول معرفى والثانى انفعالى تعاطفى . .

أما الوعى التاريخى فعلى غير هذه الشاكلة فى الهيئة واللباب ، والرسالة المنوطة به . . إنه إدراك وجودى مقدر لذاته وموقفه ، ومقدر لحاضره ومستقبله ، ومقدر لمصيره وهدفه ، وكأنه - أى الوعى التاريخى - يجسد تدافع المسيرة التاريخية فى حركتها الباطنة التى تتسم بالقلق والتوتر ، وضرورة المخاطرة المحسوبة لتحقيق الإمكانية تحقيقا يجعل منها ضرورة تاريخية أو حتمية تاريخية .

والوعى التاريخى حين يكون على هذه الصفة أو هذه الخاصة الوجودية فإنه يعنى أن يكون الإنسان فى حضور دائم فى النظر إلى الوجود والحياة .

وأن يكون حضوره عملية تقويمية لما يدور فى دائرة وجوده . تقويم هو الواجب الأخلاقى الذى لامناص من تحقيقه وتأكيده وتأصيله . ومعنى الواجب الأخلاقى هنا الالتزام بالمسئولية الأخلاقية التزاما لا يعرف الممالأة أو المظاهرة فى الباطل أو بالباطل والإجحاف بحقوق الغير . . ولكنه العمل القصد والنهج القويم

وحين نقول إن الوعى التاريخى يلزم صاحبه بأن يكون فى حضور دائم لما يدور فى دائرة حياته فإننا نعنى أنه فى معالجة شئونه الذاتية أو الخاصة يكون علاجه بنفس الدرجة لشئون المجتمع الذى يعيش فيه ولو بالرأى والفكر على ألا تكون المشاركة بالرأى سلبية أو تظهر بمظهر اللامبالاة وعدم الاكتراث .. كما لا ينبغى أن تظهر بمظهر التردد والتوجس .

وإذا كان للوعى التاريخى هذه الماهية الوجودية فإن علينا أن نحدد العوامل التى تكوِّن الوعى وتربية وتزكيه ، والعوامل الأخرى المضادة، أى الآفات التى تفسده أو تعطله عن عمله أو تضله عن أداء رسالته كما يجب أن يكون الأداء. وهو كما ذكرنا التزام بالواجب الأخلاقى . ونستطيع أن نرد العوامل اتى تؤثر فى تكوين الوعى اتاريخى وإزكائه إلى خمسة هى :

(١) التنشئة الأولى ، أى دائرة الأسرة

(٢) نظام التعليم والصبغة الثقافية السائدة

(٣) طبيعة العلاقات الاجتماعية بين طبقات الشعب

(٤) طبيعة نظام الحكم

(٥) العراقة الحضارية للأمة

أما عن العامل الأول ، وهو التنشئة الأولى فى دائرة الأسرة ، فربما قيل أن ليس لهذا العامل أهمية لها وزنها فى تكوين وتربية الوعى التاريخى عند الإنسان فى طفولته الباكرة .. ولكن الواقع أن الأسرة هى الدائرة الأولى والأولية لتنشئة الوعى التاريخى فى ضمير الطفل وفكره وسلوكه وفى تعامله مع من حوله وتواصله بهم .. فالعلاقة بين الوالدين من حيث التواد والتراحم ، ومن حيث الحرص عى أداء كل منهما لواجبه المفروض عليه عن رضى وأمانة .. هذه العلاقة تنعكس على الأبناء وتضع البذور الأولى للتعامل الإنسانى فى شخصية الطفل .

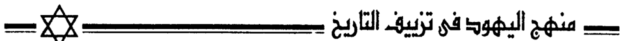
فإذا عامله الوالدان بعطف ورحمة يشوبها الحزم الذى لا يعرف التردد أو الإرجاء أو المغالطة والتمويه ، ولكنه أداء الواجب لوقته وفى وقته . آنئذ ينشأ الطفل على إدراك قيمة الواجب وقيمة التعاطف الذى يؤلف بينه وبين من حوله ، وقيمة الحرص على الوقت فلا يبدده ولا يستهين به بالعصيان أو التمرد .

ومن ثم تكون هذه التنشئة الأولى عاملا تربويا نفسيا ووجدانيا على إعلاء شأن الحاضر واحترام الأمس أو الماضى المتجسد فيما يؤخذ به من تقاليد وعوائد اجتماعية، وفيما يؤخذ به من ربط الماضى بالحاضر والاتكاء عليه . ،كذلك إعلاء شأن المستقبل والاستعداد له لتحقيق أحلام الطفل أو أحلام الوالدين وأملهما فيه .

ثم ينتقل الطفل إلى مرحلة جديدة أو دائرة جديدة ،هى دائرة التعليم وفيها يبدأ وعيه بواقعه وحياته يشتد فى صلابته الإدراكية ويتسع فى دائرته المعرفيه ويتفتح عقله وإحساساته تفتح النضرة الثقافية . وهنا تقوم المواد الدراسية على اختلافها ، والنظام المدرسى المقرر ، والمنهاج التربوى الذى يطبقة المعلمون فى تربية وتزكيه الوعى التاريخى عند المتعلم الصغير .

فمن المواد والنظام والمنهاج التربوى يتعلم الطفل كيف يحيا واقعه مع من حوله من معلميه ولداته وأقربائه . وكيف يعمل للمستقبل الذى ينتظره فى آخر العام الدراسى . . وكيف يقدر الماضى كلما تقدم من الحاضر صوب المستقبل . إذن فعليه أن يستوعب المعرفة بعقل حاضر يقظ ، وبإرادة مصممة عزومة وبصيرة مقدرة واعية ومن هنا يدرك أنه متكئ على الماضى وأن الماضى أساسه ومعياره ، وملهمه للعمل فى الحاضر والتطلع إلي المستقبل . .

وتأتى المواد المعرفية أو المدرسية لتؤصل هذه المعانى فى ذات التلميذ الصغير . وبذلك يصبح لديه وعى تقويمى لماضيه وحاضره ومستقبله ، أو وعى تقويمى للحياة، أو وعى للزمان .



ثم ينتقل التلميذ الصغير من مرحلة تعليمية إلى أخرى تعلوها حتى يتخرج فى معهده الذى شاءت له الأقدار أن يتخرج فيه وقد أصبح على درجة من الوعى التاريخى أو الوعى الوجودى بالحياة يشارك به فى حياة مجتمعه بما يضمن له العيش ويضمن له استمرار البقاء .

وإذا أصبح الطفل شاباً مشاركا بالعمل فى المجتمع الذى ينتمى إليه فإنه يواجه مشكلات ما كان له أن يواجهها أو يصادف فى حياة الطلب . وإن كانت لحياة الطلب مشكلاتها ولكنها تختلف فى جملتها عن مشكلات المجتمع إذ يصبح عضوا عاملاً فيه .. هنا يجد علاقات اجتماعية تحقق التواصل والتعاون بين الناس .. علاقات اجتماعية بين طبقات الشعب وطوائفه وجماعاته.. علاقات اجتماعية لها خصائصها وصفاتها ولها نوعياتها ومواقيتها لأن فيها بقاءها وعليها معاشها .

هذه العلاقات الاجتماعية تتشابك وتتواصل مع بعضها ، وتتعارض وتتوازى ، أو تتلاحم وتتآلف على غرار يظهر فيه التخالف والتمايز الذى يكون أشبه بالصراع إن لم يكن هو الصراع فعلا .. فى هذا المناخ الذى على الإنسان أن يعمل فيه ليعيش ، تأخذ العلاقات الاجتماعية بتقاليدها وعاداتها وأعرافها وأحكامها ، تمحص الوعى التاريخى عند الإنسان من حيث الحصافة والقدرة على التحليل والوزن والتقويم . ومعنى تمحيصه أو وزنه هو أن الإنسان يجد نفسه وهو فى توتر دائم وقلق لا ينقطع لصلاته وعلاقاته مع المصالح والهيئات الاجتماعية وأن هذا يقتضيه أن يكون له تصرف أو أن يكون له سلوك ، أو على الأقل يكون له مجال للتصرف أو السلوك .

فكأن الوعى التاريخى عند الإنسان ليس مجرد إدراك لما يجرى أو شعور بما يجرى ، لكنه المشاركة الإيجابية وكأن الأمر يعنى هذا الإنسان أو ذاك ، يعنيه هو خاصة . هنا يصبح المجتمع وقد تجسد فى ذاته ، أو أن ذاته قد تجسدت فى المجتمع .

والميزة أو الفائدة التى يجنيها الوعى التاريخى أنه يصير وعيا نشطا متوفزاً متعدد الاتجاهات والاهتمامات . وهذا التعدد يزيده ثراداً ، ويزيده قوة ، ويزيده قدرة على الفحص واستهداء السبيل القويم لتحقيق إمكان أو تصحيح خطأ كان .

وفى إطار العلاقات الإجتماعية وما لها من تأثير على الوعى التاريخى فإننا نضع على قمتها علاقة الحكم أو نظام الحكم . فعلى قدر إشاعة العدل بين الناس والحرص على إعطاء كل ذى حق حقه ، وبقدر ما يتاح للإنسان من حرية :حرية الفكر، وحرية العمل ، وحرية العقيدة ، بقدر ما يكون الأثر الإنمائى للوعى التاريخى ، فيكون متفتحا للحياة فى حاضرها ومستقبها . معياره الذى يقيس به جهوده هو أن يكون العمل الإنسانى رمزا لتاريخ وجودى . ومعنى :"رمزاً لتاريخ وجودى "، أن يكون له أثر فى الحاضر محسوب وله وزنه فى المصائر وأثر على المستقبل .أى يكون ماضيا ثريا يعين على الإقدام الجسور فى الغد .

وهكذا فإن نظام الحكم حين يكون إنسانيا على تصور ديموقراطى فإنه يهئ لكل مواطن فى الأمة المناخ الذى يجعه إنسانا محققا الخير لنفسه ومجتمعه . . كذلك يكون الحكم فى أصول قوانينه ومناهج تطبيقيه محييا للوعى التاريخى ، مجددا للتاريخ بالتاريخ ، وبانيا للتاريخ من أجل الإنسان . ومن ثم يجد الحاكم نفسه وهو مسئول مسئوليه تاريخية أمام التاريخ . وهنا تصير العلاقة بين الحاكم والمحكوم علاقة تكامل ضرورى هى المسئولية الكبرى أمام العمل الأكبر ،الا وهو بناء حضارة إنسانية . وشرط إنسانية الحضارة ضرورى لتحقيق هدفين :

الأول : تكوين الوعى التاريخى عند الفرد بحيث يكون وعيا إنسانيا .

الثانى : استمرارية التدافع الحضارى فى مسيرة تاريخية تتميز بالقدرة على إفراز ظواهر متقدمة فى الصناعة والعلم والثقافة والفن . وحتى فنون الحرب والقتال .

هذه الاستمرارية التطورية معناها أن العراقة الحضارية من مقومات الوعى التاريخى . وما نقصده بالعراقة الحضارية هو اتساع دائرة التواصل الحضارى

بالحضارات الأخرى .. هنا يزكو الوعى التاريخى عند الحضارة المتصلة وتتنوع تجاربها الوجودية فى الخبرة بالخصائص الانسانية السلوكية والأخلاقية.. وفى الخبرة بماهية التطورات الحضارية فى الأزمنة المتواترة .. وفى الخبرة بالفاعلية الإنسانيةللماضى وصلته بالحاضر والمستقبل . وهذا معناه أن يصير الوعى التاريخى خبرة وجودية بالطبيعة الأخلاقية للزمان ، إن أجيز هذا اتعبير ، وبذلك يصبح الوعى التاريخى وعيا كونيا بالتاريخ . وإن من شأن الوعى التاريخى حين يصير كونيا أن يمدأصحابه بمدد من اليقظة الدائمة والحكمة البالغة والتعاطف الإنسانى مع الكون بمن فيه وما فيه .

إن الوعى الحضارى هو الشعور الواعى البصير بآنات الزمان الثلاثة : الماضى ، والحاضر، والمستقبل . فإذا لم يكن الوعى الحضارى شعوراً بالزمان فى درجاته لأصيبت الحضارة ذاتها بآفة من آفات التدهور أو الانحلال المعروفة .

فشرط الوعى كى يكون حضاريا أن يكون وجوديا ، ولا يكون وجوديا ما لم يكن وعياً أصيلا بالزمان فى آناته الثلاثة كما قلنا والعيب كل العيب ، والخطورة كل الخطورة أن يكون الوعى التاريخى وعيا بآن واحد من آنات الزمان . كأن يكون وعيا بالماضى فحسب ، أو وعيا بالحاضر فحسب أو أن يكون وعيا بالمستقبل . ذلك لأن الإيمان بواحد منها يؤدى إلى حالة من ثلاث هى :

(١) تحجر فى الفكر والشعور .

(٢) نشأة صراع اجتماعى أو صراعات اجتماعية.

(٣) ضعف وتخلف فى الظواهر المادية للحضارة .

وربما تتكامل الحلات الثلاثة فى آن واحد بحيث يمكن أن تعد كل منها سبباً ونتيجة معا . فمن الناس بله المفكرين لمن يعتقد فى الماضى كل الاعتقاد حتى أنهم يكادون يقدسونه تقديسا . فالماضى هو الأمن والرخاء والسلام .. والماضى هو الوفاء والإخلاص وهو الأخلاق الكريمة والأريحية النبيلة .

وعلى هذا التصور تكثر مظاهر تكريم الماضى والتنويه به ورفع شأنه . بل تكثر مظاهر تبجيله وتقديسه . ويتطرف المتطرفون فى التقديس حتى ليكادون يرجعون حاضرهم إلى ماضيهم بأيامه وتقاليده الأخلاقية وعاداته الاجتماعية والفكرية . وربما اتخذوا من الشارات والمظاهرات الأخلاقية ما ينبئ عن ذلك ويعلنه . فشعورهم وفكرهم يقدس الماضى حبا وتقديرا . فإذا تكلموا فإنما يتكلمون بلسان الماضى وعظمته وما كان فيه من رضوان جميل ورخاء سابغ .

فإذا أوصوافهم يوصون بتقاليد الماضى وعاداته وسلوكياته . وفى نفس الوقت يوصون - وهم يتباكون على الماضى - بهجر تقاليد الحاضر وآدابه وما استجد فيه من أساليب فى التربية الإجتماعية وأساليب فى السلوك الاجتماعى

ومثل هذه العقلية الماضوية يستحيل عليها أن تعيش فى حالة من الاستقرار النفسى لا بينها وبين ذاتها ولا بينها وبين غيرها . إنها تعيش فى صراع ذاتى وشقاق اجتماعى لا يهدأ أو يجنح مجرد جنوح إلى التفاهم والمسالمة . . وكذلك تؤدى تلك المشاقة إلى احتراب اجتماعى بين القديم والجديد ، بين العتيق والحديث يرتفع وتزداد حدته حتى يصير صراعا اجتماعيا كريها . لكن ما يشهد به التاريخ ويؤكده أن المسيرة الحضارية للفطرة البشرية لا تلبث أن تنقض على رجاله وأنصاره ، على تقاليده وسياسته ، على حكومته وقوته . . تلك هى ثورة البشرية أو ثورة الشعب كما نقول اليوم .

ومن الناس لمن يؤمن بالحاضر ، واللحظة الحاضرة وحدها فنراهم لا يعملون إلا له لا يشغلهم الماضى ولا يؤرقهم المستقبل فحسبهم حاضرهم أو حسبهم يومهم وأولئك هم أهل المنفعة الذين لايبحثون عن شئ سوى العائد المادى وهنا يصبح الوعى التاريخى ناقصا وعقيما . وحتى يكون صادقاً وصحيحا فإنه لابد من تكامل عنصرين ضروريين :

أولا : أن يتأكد عنصر الذاتية فيكون الوعى قائما على شعور الفرد وإحساسه

مستنيرا بعقله عند النظر والتقدير .

ثانيا : أن تتمثل فيه آنات الزمان الثلاثة :الماضى والحاضر والمستقبل تمثلاً عضويا متآصرا ومتكاملا .

ولذلك فإنه لمن الخطر أن يصيب الخلل أية ناحية من نواحى هذين المعيارين .

وهذا يشوقنا إلى ضرورة معرفة دور كل من العقل والعاطفة فى تكوين الوعى التاريخى فى فاعليته الإيجابية . . ونقول : إنه إذا غلبت المشاعر الوجدانية والانفعالات العاطفية العقل كان ذلك كافيا لتدمير الوعى بفضل الجموح الذى يصيب الإنسان ، آنذاك ، حين يفضل آنا على الآنين الآخرين . . نعم ، إذا غلبتْ العاطفةُ العقلَ فى الوعى التاريخى فسد النظر والتقدير، وحدث تمزق لا لذات الفرد وحده ، ولكن أيضا بينه وبين الغير بما يخرجه على الزمان إخراجا متعاليا . فيفقد من ثم الآصرة الحية التى تربطة بالحياة . . أما إذا طغى عنصر العقل وكان التعقل بعناصره ومقاييسه هو العامل الوحيد الذى يشتمل عليه الوعى التاريخى ، فإن ذلك يؤدى إلى قتل الزمان ، لأنه لكى يكتشف العقل العلل والأسباب فإنه يتحتم عليه أن يقوم بعملية تشريح ، والتشريح يعمل فى الميت لافى الحى .

كذلك ينقلب الحرص على التعقل فى النظر إلى التاريخ إلى حالة من اثنتين :

(١) إما إلى الخروج على الزمان بدعوى أن كل ما فى الوجود خاضعاً فى نشأته وحياته وتفسيره لحكم الطبيعة الذى لا يتاثر بصروف الزمان .

(٢) وإما أن يتسامى على الوجود فيكون هو سر الوجود ومدبر أمره ، وليس للزمان اعتبار فى حكمه وتدبيره . . وهذا هو العقل المطلق الذى يطغى على كل عقل فردى .

ولقد يظن البعض أن العلاج يكون فى التعادل بين العقل والعاطفة .

لكن التعادل أمر يكاد يكون عصيا ولا سيما فى قضايا الحياة ومشكلات المعاش .

ومن هنا فإننا نقول بضرورة رجحان العاطفة إذا وجبت رجحان جانب العقل إذا وجب بغير إنكار للعاطفة أو التغاضى عنها ؛ ذلك لأنه بدونها يفقد الوجود الإنسانى - والوعى التاريخى بالضرورة - معناه ومبناه فى آن واحد . لأنه وجود معاناة فيه تتحقق إمكاناته . وهذا من شأنه أن يجعل لخصائص الوجدان الإنسانى من ألم وأمل وشجن وقلق أهمية قصوى فى تكوين الوعى التاريخى . لأنه إذا خلى الوعى من الخصائص الوجدانية فقد وجوده الحى وأصبح على هامش الوجود أو خارجا عليه .

وكذلك يحدث الخلل والإضطراب فى الحكم والتقدير ، بل فى المسيرة الإنسانية الحضارية إذا اعتصم الإنسان بآن واحد من آنات الزمان . فالاعتصام بالحاضر والاعتزاز به والحرص عليه يميت فى الإنسان مشاعر التعاطف مع الحياة أو مع الغير ، وتنفصم العلاقة العضوية بينه وبين التاريخ . . وإذ يكون الوجود الإنسانى وجود تاريخى ، فالانفصام هنا كارثة نفسية واجتماعية .

وكذلك نقول عمن يعيش لمستقبله ولا يؤمن بسواه ، فهو يعيش فى جموح الوهم الذى يورده موارده التهلكة والبوار . . لكنما الوعى التاريخى الصحيح هو الذى تجتمع فيه الآنات الثلاثة وتأتلف إئتلافا حيا قادرا على التصور الصحيح والتقويم المنصف شريطة توافر التناسب المطلوب بين العقل والعاطفة .

نعود فنقول :

إن الوعى التاريخى هو الحضور الحيوى الدائم للإرادة الإنسانية . .

والتقلبل الحيوى الإيجابى لما يدور فى المحيط الإنسانى . .

وهو المقدرة العقلية الحية التى تستطيع أن تدرك العلل والأسباب ، وتستبين النتائج فى سرعة لا يخفف منها تلبث التردد أو النكوص على الأعقاب .

ثم هو الإلهام اللدنى القادر على استطلاع آفاق المستقبل والتنبؤ بما تشى به ، أى

هو الأحساس بالزمان إحساسا وجوديا خالصا ومخلصا للإنسان كيفما كان وحيثما كان .. ثم هو الأحساس الفطرى بالواجب .

تلك هى معانى الوعى التاريخى فى جوهرها وحقيقتها :

والانفعالات العاطفية العقل كان ذلك كافيا لتدمير الوعى بفضل الجموح الذى يصيب الإنسان ، آنذاك حين يفضل آنا على الآنين الآخرين .. نعم ، إذا غلبت العاطفةُ العقل فى الوعى التاريخى فسد النظر والتقدير ، وحدث تمزق لا لذات الفرد وحده ، ولكن أيضا بينه وبين الغير بما يخرجه على الزمان إخراجا متعاليا . فيفقد من ثم الآصرة الحية التى تربطه بالحياة .. أما إذا طغى عنصر العقل وكان التعقل بعناصره ومقاييسه هو العامل الوحيد الذى يشتمل عليه الوعى التاريخى ، فإن ذلك يؤدى إلى قتل الزمان ، لأنه لكى يكتشف العقل العلل والأسباب فإنه يتحتم عليه أن يقوم بعمية تشريح ، والتشريح يعمل فى الميت لا فى الحى .

وكذلك ينقلب الحرص على التعقل فى النظر إلى التاريخ إلى حالة من اثنين :

١- إما إلى الخروج على الزمان بدعوى أن كل ما فى الوجود خاضع فى نشأته وحياته وتفسيره لحكم الطبيعة الذى لا يتأثر بصروف الزمان

٢- وإما أن يتسامى على الوجود فيكون هو سر الوجود ومدبر أمره ، وليس للزمان اعتبار فى حكمه وتدبيره .. وهذا هو العقل المطلق الذى يطغى عى كل عقل فردى .

ولقد يظن البعض أن العلاج يكون فى التعادل بين العقل والعاطفة لكن التعادل أمر يكاد يكون عصيا ولاسيما فى قضايا الحياة ومشكلات المعاش .

ومن هنا فإننا نقول بضرورة رجحان العاطفة إذا وجبت ورجحان جانب العقل إذا وجب بغير إنكار أو التغاضى عنها ؛ ذلك لأنه بدونها يفقد الوجود الإنسانى - والوعى التاريخى بالضرورة - معناه ومبناه فى آن واحد . لأنه وحود معاناه فى أن تتحقق إمكاناته . وهذا من شأنه أن يجعل لخصائص الوجدان

الإنسانى من ألم وأمل وشجن وقلق أهمية قصوى فى تكوين الوعى التاريخى . لأنه إذا خلى الوعى من الخصائص الوجدانية فقد وجوده الحى وأصبح على هامش الوجود أو خارجا عليه .

وكذلك يحدث الخلل والاضطراب فى الحكم والتقدير ، بل فى المسيرة الإنسانية الحضارية إذا أعتصم الإنسان بآن واحد من آنات الزمان . فالاعتصام بالحاضر والاعتزاز به والحرص عليه يميت فى الإنسان مشاعر التعاطف مع الحياةأو مع الغير ، وتنفصم العلاقة العضوية بينه وبين التاريخ .. وإذ يكون الوجود الإنسانى وجود تاريخى ، فالانفصام هنا كارثة نفسية واجتماعية .

وكذلك نقول عمن يعيش لمستقبله ولا يؤمن بسواه ، فهو يعيش فى جموح الوهم الذى يورده موارد التهلكة والبوار .. لكنما الوعى التاريخى الصحيح هو الذى تجتمع فيه الأنات الثلاثة وتأتلف إئتلافا حيا قادرا على التصور الصحح والتقويم المنصف شريطة توافر التناسب المطلوب بين العقل والعاطفة.

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

نعود فنقول :

إن الوعى التـاريخى هو الحـضـور الحـيـوى الدائم للإرادة الإنسـانيـة . .

والتـقـبل الحـيـوى الإيجـابى مـا يدور فى المحـيط الإنسـانى . .

وهو القدوة العقلية الحية التى تستطيع أن تدرك العلل والأسباب ، وتستبين النتـائج في سرعـة لا يخفف منهـا تلبث التردد أو النكوص على الأعقـاب . .

ثم هو االإلهام اللدنى القادر على استطلاع آفاق المستقبل واتنبؤ بما تشى به ، أى هو الأحساس بالزمان إحساساً وجودياً خالصا ومخلصاً للإنسان كيفما كان وحيثما كان . . ثم هو الإحساس الفطرى بالواجب .

تلك هى معانى الوعى التاريخى فى جوهرها وحقيقتها فليس من الوعى فى شئ بل ليس من الحياة فى شئ أن يقف المرء من مشكلاته الذاتية ، أو مشكلات مجتمعه وأمته موقف اللا مبلاه أو موقف الجمود . فكلا الموقفين ضرر وخطر قد لا يقتصر عليه وحده . فربما امتد إلى من حوله أو ربما امتد إلى من لا يتوقع أنهم يضارون أو يصيبهم منه عنت . فموقف اللامبلاة هو العدم فى صميمه وإن كان صاحبه من الأحياء الذين يملأون الدنيا بأصداء أصواتهم أو يملأون الدنيا بخطوط أسمائهم . . وما هو أكثر من ذلك أن اللامبلاة - وإن أختلفت عن الأستهتار - جحود بغيض وإن عدها البعض نوعا من الحكمة أو الحصافة وبعد النظر . فليس من الحكة أن يقف المرء من أحداث الحياة ووقائع الإجتماع موقف العابث الذى فقد الأحساس بما يسمع ويرى ، فتبلدت مشاعره وخمدت فى أعصابه نفرة التوتر الحى لكن لابد من المشاركة الشعورية والإرادة الفكرية. فرب مشاركة كتلك تؤدى إلى تفاعل إيجابى له نتائج إيجابية محسوسة أو ملموسة . . وليس من الحصافة أن يلجم المر ء لسانه فضلا عن المشكلات بقدر ما يستطيع وألا يحاول أن يبدى فيها رأيا أو يقول كلمة . . فمن يدرى ؟ لعل الرأى أو الكلمة تكون وبالا على قائلها أو سا معها فترتد شؤما أو ترتد شقاء . . وليس من الحنكة

والسداد أن يترك المرء نفسه لسيطرة الأنانية ؛لأن الأنانية فوق كونها منكفئة على نفسها بحكم انشغالها بأوطارها الخاصة ، فإنها نضوب فى الحس الحى والشعور المتفتح نحو الغير تفتحا إيثارياً نبيلا . ونضوب الحس المتفتح الإيثارى معناه أنه ليس بين صاحبة والغير أية واشجة إنسانية يمكن أن تؤلف بينهما سوى علاقة المنفعة المادية التى يتحكم فيها الدافع الأنانى الكنود الجحود ، والتى سرعان ما تتحول إلى احتراب يقتل الناس فيه أنفسهم وهم لا يشعرون ، أو وهم يتوهمون أنهم يتنافسون تنافساً شريفا .

ولقد يظن الواهمون أن التنافس الذى نقول عنه إنه أنانى إنما هو تنافس الحياة فى صميمها وأن العامل به إنما هو الواعى للسر الحقيقى للحياة . لكن فات هؤلاء ومن يشايعونهم أن الذى يعيش للمنفعة المادية سواء حازها أو من أجل أن يحوزها إنما تكون لحظات حياته وهم زمانى . فلا هو يعيش للماضى ، ولا هو يعيش للحاضر ولا هو يعيش للمستقبل . وإن من شأن الوهم الزمانى أنه يخدع عنْ حقيقة الحياة أو حقيقة الزمان .

ومن نقائض الوعى التاريخى التى يجدر بالإنسان أن يتوقاها ، ألا تضغط التقاليد سواء أكانت فكرية أو أخلاقية أو سلوكية ضغطا يميت فيه حرية الإرادة وحيوية الشعور فيصير عبداً منقادا لما يفرضه المجتمع بحيث لا يمكنه أن يقول :"لا"بملء فيه .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

بهذه التصورات التى وضعناها للوعى التاريخى ، ونقول إن خصائص الوعى التاريخى تتمثل فى الأمة العربية فى اتزان واتساق ، على أعمق ما يكون ، وأشمل ما يكون ، وآصل ما يكون . . لا نقول هذا جزافا ولكنما نقوله من واقع التاريخ الحضارى لأمة العربية من لدن فجر إسلامها إلى اليوم .

وليست المسألة هنا مجرد قِدَم فى التاريخ ، فربما وجدت جماعات بشرية أوغل فى القدم من الأمة العربية فى عصورها الأولى . ومع ذلك فما تكوَّن لديها من وعى تاريخى فحسبها االوعى المحلى الذى تقتضيه شئون المعاش وتبادل المنافع . . وربما كان وعيا تاريخيا قوميا يعمل لقوميته وفق المصالح المتشابكة التى تفرض ضرورة التواصل الحضارى القومى . . وعلى هذا تختلف درجة الوعى التاريخى بين الشعوب باختلاف التجربة الحضارية التى خاضتها فى عصورها المتلاحقة .

إن التجربة الحضارية فى لبابها : علم وفكر ، وثقافة وفن ، وصناعة واقتصاد .

ثم هى كذلك عقيدة وتقاليد وأخلاق وسلوك ، وسياسة اجتماعية . وما من شك فى أن تطاول العصور وتلاحقها ، وحياة الشعوب فى العمل والبناء والتغير إلى ما هو أرقى يؤدى إلى إثراء تجربة الأمة فى نظرتها إلى ذاتها ونظرتها إلى غيرها . . وهذا الإثراء خليق بأن يؤدى إلى تأصيل الوعي التاريخى بالحياة ، وتأصيل الوعى التاريخى بتدافع الأحداث فى الأمم وتقلب حظوظها من عصر لآخر .

وما من شك فى أن الوعى التاريخى يتغير فى ماهيته من عصر لآخر ومن شعب لآخر . فالوعى التاريخى فى أوربا مثلا لاسيما فى عصر الانقلاب الصناعى وانطلاق التطلعات الاستعمارية ، يختلف عن الوعى التاريخى فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، عنها فيما كان يسمى بالحرب الباردة بين الشرق والغرب . . عنها

فيما هو واقع اليوم .

فالوعى التاريخى عند المواطن الاوربى يختلف عن الوعى التاريخى عند المواطن الشرقى . ولا ننسى فى هذا المقام أن وسائل المواصلات والاتصلات قد جعلت الوعى التاريخى ذا صبغة عالمية لتشابك المصير ووحدة المصير بين دول العالم قاطبة . وعلى هذا المنهاج يمكننا أن نقول واثقين :إن الوعى التاريخى العربى إنسانى عالمى .. إنه متفرد فى تجربته التاريخية ؛ونقول متفرد لأن الموقع الاستراتيجى الجغرافى والعسكرى والسياسى والحضارى للأمة العربية جعله فى تجربة تاريخية متصلة الحلقات على مدى التاريخ . والفضل فى هذا يرجع أول ما يرجع إلى أن الإسلام الحنيف هو الذى جعل من الوعى التاريخى رسالة عالمية .. وذلك من البديهية الإسلامية الأولية وهى أن الإسلام رسالة للناس كافة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ومواطنهم وأزمانهم ، إنه يدعوهم إلى التعارف والمعرفة والإبداع الحضارى على سنة المساراة والعدل ؛ فقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [(١٣) سورة الحجرات] ..

وبهذه الآية الكريمة استهدى العرب فى فتوحهم فى مشارق الأرض و مغاربها ..

فتكونت لديهم الخبرة الحضارية الطويلة والعميقة والثرية مع أحداث التدافعات الحضارية العالمية التى مرت بها الأمة العربية . فكانت لها الرؤية النافذة فى تقويم الأحداث وتقديرها وتحديد أهدافها وما يمكن أن تسفر عنه فى مستقبلها .

هده الحصافة - حصافة الوعى التاريخى عند الأمة العربية - جنبتها الكثير من الشطط والغلو فى الحكم على الأحداث العالمية التى تمر بها . ومن ثم جاء حكمها

من واقع تجربتها الحضارية حكما سديدا فتنزهت على مدى تاريخها وفى كثير من المواقف وكثير من القضايا والأزمات الدولية والقومية عن الإجحاف بالغير أو التجنى عليه أو أن تغويها الشائعات وتغريها الأراجيف فتتبع كل ناعق . إنما لديها القدرة على أن تقوّم الأحداث تقويما صحيحا ، بل أن لديها مزية الشك والحذر ، وكذلك مزية الصبر والمصابرة . وذلك هو التحوط الذى يحميها من عواقب التسرع فى السلوك أو التصديق .. وإنها لحنكة فى الوعى اكتسبتها الأمة العربية من تجربتها التاريخية العالمية .. وربما تفوت عليها بعض المواقف فتخفق فى تصورها وتقديرها بسبب الإرجاف بماله من تأثير كبير على الفكر والشعور والسلوك ولكنها سرعان ما ترجع إلى الحق .

والشئ الذى ينبغى أن أنبه إليه وأؤكد عليه أن الوعى التاريخى عند الأمة العربية وهى فى تقويمها للأحداث العالمية ، وعى أخلاقى قبل كل شئ .. وإن ذلك لهو المعيار الذى يحمى فكرها من الزيغ والضلال ويحمى خطاها من الاضطراب والزلل .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

وكمبدأ رئيسى من مبادئ الوعى التاريخى أنه إذا كان لابد من أن يتمثل تمثلا واضحا حيا فى ضمير أبناء الأمة على اختلاف طوائفهم ووظائفهم . فإنه حتم مقضى أن يتجسد المبدأ كونيا فى قائد الأمة ورعيمها .. لا يتحقق إلا فى شخصية متميزة على الأقران والنظراء ندعوها باسم الشخصية التاريخية .

فكيف تكون الشخصية التاريخية ممثلة للوعى التاريخى الكونى ؟ كيف تكون قيادة هذه الشخصية لأمتها ؟

وإنه من البَدْءِ هى أن للشخصية الإنسانية نصيبها من التأثير الاجتماعى ، فهى ثمرة المجتمع وانطباعه وفاعليته . ولكن هذا لا يقلل من تفرد الشخصية بطابعها وخلقها . ومن ثم فإنه بفضل من تفردها تكون نظرتها إلى من حولها وإلى ما يجرى حولها من أحداث .. وتكون نظرتها الإرادية حين تعتزم أن تقوم بعمل يخصها أو يخص مجتمعها .

وتفرد الشخصية يعنى الحرية .. والحرية شعور وعمل والتزام أخلاقى بالواجب .

وعلى هذا فإنه إذا كان الوعى التاريخى يتمايز فى طبيعته ودرجته من حيث الحيوية والعمق وإنسانية الدلالة بين الأفراد والجماعات والشعوب ؛ فإن التمايز يفرض وجود شخصية تاريخية يتجسد فيها الوعى التاريخى على صورة كونية ، كما ذكرنا من قبل ولا نستطيع أن ننعت الشخصية بأنها تاريخية مالم تتوافر فيها الخصائص الآتية

أولا الإحساس بالمسؤلية التاريخية نحو الأمة

ثانيا التعاطف الإنسانى على أبناء الأمة جميعا على اختلاف مشاربهم ومراتبهم

ثالثا : التعاطف الإنسانى الشمولى على الناس أجمعين .

رابعا : التقدير القويم لقضايا الأمة فى إطار المتغيرات القومية والعالمية .

خامسا : التقويم البصير والحذر لمنهاج تحقيق آمال الأمة وإن تشابكت المصالح وتصارعت .

سادسا : الجسارة فى مواقف المخاطرة .

سابعا : الصدق الأمين عملا وقـولا .

هذه هى أهم الخصائص التى تتميز بها الشخصية التاريخية . . ولو أننا استقرأنا الشخصيات التاريخية العربية على امتداد المسيرة الحضارية للأمة العربية لوجدناها فى سياستها وأعمالها وأقوالها لم تخرج عن تلك الخصائص فكانت بحق خير ممثل للوعى التاريخى الكونى ؛ وهو الوعى الذى لايحسب حساب الأمة العربية وحدها ، أو الإسلامية وحدها ، ولكنه الوعى الشمولى الذى يضم الشعوب جمعاء بغير استثناء . ولم يحدث فى التاريخ الحضارى للأمة العربية أن كان الوعى التاريخى لأحد شخصياتها التاريخية منحرفا عن سواء الحق فيقهر شعبة على مالم يشرعه الله لعباده . بل كانوا - بقدر جهود كل منهم - يعلمون أن الحاكم راع ومسئول عن رعيته وأن عليه أن يعمر الأرض بالحق ويحكم بين أهلها بالحق وما كل زعامة بقادرة على أن تكون شخصية قيادية صالحة . . وما كل شخصية قيادية صالحة بقادرة على أن تكون تاريخية . .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

فلسفة الوعى التاريخى

لكل شئ فى هذا الكون الفسيح الذى يتجلى فيه الوضوح كل الوضوح كما يتجلى فيه الغموض غاية الغموض .. لكل شئ فى هذا الكون ماض وتاريخ : فللصخور والجبال الشم تاريخ ، يقرر لنا فيه العلماء كيف جرت أطوار تكوينها ومتى جرت تقرير الواثقين المستيقنين ؛ وكأنهم كانوا يشهدون وقائعها باعينهم .. ولكل منهم حجته فى التأكيد والتقرير .. ومن العلماء لمن ترين عليهم الحيرة وإن امتلات أيديهم وغنيت عقولهم بمادة البحث وعدة التمحيص .. إذ تكثر لهم الفروض ودواعى الترجيح حتى يدخلوا أنفسهم ويدخلوا الناس معهم فى كِسَف من الغموض الشديد ونحن فى الحالتين نقرأ تاريخا أو نشهد تاريخا .

ونقول مثل ذلك عن طبقات الأرض ، كيف كانت ، وكيف أصبحت مُحَدّدين الأطوار والأعمار بآلاف السنين . ولا تخرج ظواهر الحياة النباتية والحيوانية عن ذلك المضمار .. فلكل نبات أو حيوان مهما حَقُرَ أو صغر ، تاريخ يحسبه العلماء ويقدرونه . بل إن للخلية الواحدة تاريخ يشوق غاية التشويق لأنه يجمع بين الوضوح من ناحية وشطح الخيال من ناحية آخرى ..ومع كل ذلك فهو تاريخ حياة ووجود لا يعبث فيه العلماء فيما يؤكدون أو يرجحون .

إنه تاريخ بغير شك، ولكنه تاريخ بالنسبة إلى الإنسان فحسب . ذلك لأن الشئ فى ذاته - إذا سمح لنا كنت بأن نستعير منه هذا المصطح - لا يدرك أن له تاريخا فيتخذ منه موقفا أياً كانت طبيعة ذلك الموقف وضرورته .. وهذا أمر بَدْهى بالنسبة للظواهر الكونية والظواهر الحيوية . فأرقى الحيوانات لا تدرك من وجودها وحياتها إلا الحاضر فحسب .. حتى هذا الحاضر لا تدركه كما يدركه الإنسان ، فهى لا تعرفه وبطبيعة الحال لا تتصوره وغاية ما تدركه هو حضور شئ سواء أكان هذا الشئ غذاء ها أوفردا من جنسها أو كان مخالفا لها فى الجنس والنوع والطبيعة .

فإدراك الحاضر على هذه الشاكلة إدراك يلبى حاجة الغريزة الموقوتة بحاضرها .

ومعنى هذا أن الوعى التاريخى مفقود تماما فى شتى المظاهر الطبيعية .

فإذا طفرنا مرتبة الإنسان فإن قضية الوعى التاريخى تختلف اختلافا جوهريا وأساسيا بحيث يصح لنا أن نصف الإنسان بأنه :"كائن الوعى التاريخى . .

والوعى تخيل وإحساس وتفكر . . وفى هذه الخصائص يتخالف الناس فى درجة الوعى ونوعه واتجاهه أو غايته ، بتخالف دوائرهم الاجتماعية والفكرية والثقافية . فلكل امرئ نظرته الذاتية إلى الحياة بل حكمته فى الحياة حتى ولو كان فقيرا معدما يعيش على هامش قاعدة الهرم الاجتماعى . فهو ينظر إلى ماضيه أو تاريخه نظرة أحترام وتقدير وربما نظرة إجلال وتقديس . . ينظر إلى أسرته وإلى آبنائه وأجداده فلا يترك من سيرتهم كلمة ولا من تاريخهم عملا ، فباطنه عامر دائما بالتاريخ : تاريخ أسرته وتاريخ طبقته وتاريخ مجتمعه ؛ وفوق ذلك ذكرياته الذاتية التى هى حصيلة تجربته فى الحياة .

والذكريات الذاتية الوجودية هى التى تكون - فيما نرى - الجانب الأكبر من شخصية الإنسان إن لم تكن هى ذاتها تمثل روح تلك الشخصية فتحركها وتدفعها إلى حيث تريد . كما أنها تتولى جانبا كبيرا من صياغة فكر المرء وتشكيل خياله وتحديد كلماته . وهذا هو لباب الوعى التاريخى وعمله ورسالته . . فليس قصارى الذكريات أنها رجيع أحداث مر بها المرء وعاناها إبان تقلبه فى أطوار حياته . . رجيع أحداث مركومة فى أعماق اللا شعور ، يطفو على السطح مشرئبا إلى دائرة الشعور فى لحظات الأسترخاء وفراغ البال من أزمات الحياة وهموم المعاش . . ليس قصارى الذكريات ذلك لأنها فى نضارها وحقيقة فعلها روح شخصية الإنسان فبها يفكر وعنها يصدر أفعاله ويؤكد أعماله . . وعلى هذا فإذا نظر الإنسان الذى يحيا على هامش قاعدة الهرم الاجتماعى ، إلى الحياة ماضيها وحاضرها ومستقبلها فإنما ينظر بدافع وعية التاريخى، إن له ماضيه بغير

شك ، وله حاضره بغير شك ، وله مستقبله بغير شك . وهو فى تقديره لماضيه ـ مهما كان ذلك الماضى ضيقا محدودا أو بدائيا رتيبا ـ فإنه يقدر عن تجربه ضرسته وربما أشقته . وتقديره التجريبى هذا يصبح فى نظره فلسفة لها حكمتها ولها مبادئها . وتصبح تلك الفلسفة أو تلك الحكمة المعيار الصادق الذى يحتكم إليه فى أعماله ، فها هنا إذن فيلسوف من فلاسفة التاريخ يسوق لنا الدليل أو الحجة أو الحكمة التى تدعم رأيه فى الماضى الذى عاشه أو عاشه أسلافه . . هب أن ذلك الرجل فلاحا يعيش بعيداً عن المدن ، أو هبه بدويا يعيش بين منقطع الفيافى والقفاز ، فنحن نجد أن كلا منهما فيلسوفا عتيدا من فلاسفة التاريخ يتفلسف فى إطار تربيته ونشأته وميراثه الفكرى والروحى يتفلسف عن جزء من الحياة أو عن دائرة واحدة من دوائر الحياة أو عن وجه واحد منها وإن خيل إليه أنه إنما يقول كلمته فى الكون كله أو الحياة بأسرها . .

ويختلف الوعى التاريخى والتقدير الفلسفى ـ كما قلنا من قبل ـ باختلاف مرتبة كل فرد ومنزلته فى البناء الاجتماعى من حيث السمو أو الضعة ومن حيث الارتقاء الفكرى والتفتح الثقافى بل من حيث الفراغ الذى تتيحه له منزلته الاجتماعية فتهيئ له فرصة التفكر أو الإشتغال فكرياً بمشكلات الحياة ، ويأخذ التفلسف التاريخى سبيله متخالفاً ومتمايزاً فى العمق الفكرى والرحابة الفكرية حتى يبلغ مرتبة النظرة الكلية للكون والحياة والوجود .

ومن العجب أننا كظواهر وجودية فى هذا الكون المتميز بإختلاف ظواهره ووقائعه حتى وكأن الإختلاف هو سر جماله العبقرى أو سر وجوده العبقرى . . لا تصدر نظرتنا الكلية عن طبيعة واحدة ومعنى واحد وإيقاع وجودى ونفسى واحد ، ولكن نظرتنا الكلية نظرات كلية مامن واحدة منها إلى وهى تحمل شخصية صاحبها فى تجربته الفكرية وروحه الوجودية ونزعته الفلسفية التى هى التعبير الإنسانى عن الفكر والروح .

ولقد يتساءل المرء :وأين الحق إذن ؟ أين هذه الحكمة الموضونة والفلسفة المحكمة التى تبصِّر الإنسان بتاريخ وجوده وتعبر عن الحياة فى عمومها وشمولها ؟ أما من مفكر يستطيع أن يبلغ ذلك المقام ؟

ونقول : إن الفلاسفة إذ يمثلون ذروة التفكير الإنسانى فإن كلا منهم ابن عصره وابن بيئته ووطنه وأسرته وابن حضارته .. فنشأ عن تلك المقومات أن صار لكل منهم نظرته إلى الماضى أو فلسفته التاريخية أو وعيه التاريخى .. حقيقة الموقف الإنسانى من الحياة أنه موقف وجودى ، سواء قبل الإنسان هذا الموقف وارتضاه ، أم تمرد عليه وعصاه .

ومن الخصائص الرئيسية للموقف الإنسانى الوجودى من الحياة أنه موقف تاريخى سواء بالنسبة إلى نظرة التقويم أوالتقدير تستحثه الرغبة فى الإفادة من التراث فتطلعه إلى ماضيه أو يرعى حاضره أو يأمل فى مستقبله ، ومن هنا فإن لكل فيلسوف وعيه الخاص بفلسفة التاريخ .. التى قد تلتقى وقد تتوازى وقد تتنافر فيما بينهما .

ثم نعرض بعد هذا لصورة عامة لفلسفة الوعى التاريخى عند نخبة من الفلاسفة الذين يجسدون هذه الناحية بحيث نعتدهم العمد الرئيسية لفلسفة الوعى التاريخى بما يهبنا رحابة فى أفق التصور وحيوية فى التنوع الفكرى ..

فعند فرانسس بيكون أن التاريخ هو الماضى وهو ما يجب العكوف عليه وإيلائه كل اهتمام ، ومن ثم فإنه ينبغى أن تكون دراسة الماضى من أجل الماضى فحسب . وهذا معناه أن ليس فى مستطاع المؤرخين أن يكشفوا عن الغيب وأن يتشوفوا إلى المستقبل . وهذا ما يبين عدم قدرتهم على الاطلاع على سنة المشيئة الإلهية فى تدبير شئون الناس وما ينشب فيه من أحداث تاريخية .. ومن هنا فإن بيكون يرى أن على المؤرخ ألايتجاوز الحقائق التاريخية .

ويرى كولنجوود بباعث من فلسفة الوعى التاريخى أن بيكون لم يحرز

الصواب ذلك لأن : "احتياج الماضى إلى البحث التاريخى مرده إلى نسياننا لهذا الماضى ، وإلى أن هذا الماضى عسير استذكاره . ولو أن استذكاره كان أمرا ممكنا لما كانت هناك حاجة لوجود مؤرخين " .. وفى كتاب بيكون : "الأورجانون الجديد " حدد بيكون خمسة أوهام **idols**، هى التى تفسد التاريخ أو تدخل التاريخ فى دائرة الأوهام وهى :

أولا : الإشادة بالقديم ويقصد بها ذلك الهوى الذى يحدو بالمؤرخ إلى المبالغة فى الثراء والقوة والعظمة التى تميز بها العصر الذى يعرض لدراسته .

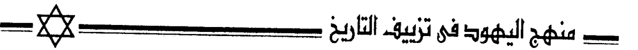
ثانيا : غرور الأمم .. فكل أمة فى عنايتها بتاريخها الماضى فهى تزين لنفسها هذا التاريخ بما تلقى عليه من أضواء مختلفة محببة إلى النفس .

ثالثا : غرور المتعلمين .. وهذا يبدو فى صورة هوى يتملك المؤرخ إلى الحد الذى يجعله يعتقد بأن الناس الذين يفكر فيهم قوم كانوا من طرازه علماء وطلبة علم أو هم بصفة عامة من أولى العقلية المفكرة .

وينحو فيكو غير هذا المنحى ، ففى تقديره أن من لديهم القدرة على توجيه التاريخ هم من ليسوا على درجة كبيرة من العلم ذلك : "لأن العظمة التاريخية والعقلية المفكرة قلما يجتمعان فى إنسان واحد . ذلك أن ميزان القيم التى تتحكم فى حياة المؤرخ يختلف كل الاختلاف عن القيم التى تحكمت فى حياة الأبطال الذين يعرض لدراستهم " .

رابعا : الخطأ المتصل بالمصادر ، ويرجع هذا الخطأ إلى الاعتقاد بأنه إذا أخذت أمتان بنزعة علمية واحدة فى شكلها ونظامها واتبعتا نظام حكم متشابه فإن هذا معناه أنه لابد أن تكون أمة قد أخذت عن الأخرى .. ويرجع هذا الخطأ فيما يقدر فيكو إلى أننا نتصور أن العقلية الإنسانية عاجزة عن الإبداع من ذات نفسها . ومن ثم فهى غير مؤهلة لأن تبتكر الجديد مالم تتلقاه من أمة سبقتها إليه

خامسا وفحوى هذا الوهم أن كل أهل عصر من العصور الخالية أعلم بعصرهم وأخبر بأحواله وما كان يرمى إليه من أحداث



وقد كانت فلسفة الوعى التاريخى عند رسو حيوية وأبعد أثراً فى التفكير التاريخى .

فقد كان يرى أن ليس قصارى التاريخ ما بلغته مرحلته الأخيرة من تمدن وحضارة راقية .. أجل ، ليس ذلك قصارى التاريخ ، إنما التاريخ إذ هو تاريخ الإنسانية بأسرها يجب أن يرتد إلى العهود الأولى حيث فجر الشعوب وغوابر الأزمان .

حيث كانت الأساطير والخرافات هى حياتها ودنياها .. إذن فالتاريخ يبدأ من تلك العصور التى كانت تعيش فيها الشعوب فى غمار البربرية . ولكنه بفضل الإرادة الإنسانية تقدمت الإنسانية بفضل عقلها نحو الارتقاء .. ولذلك فإن الوعى التاريخى عند رسو كان متعاطفا مع تلك الشعوب فما ازدراها وما حقرها ولكنه كان ينظر إليها على أنها خطوة ضرورية على الطريق .. وفضلا عن هذا فقد كان رسو ينظر إلى التاريخ على أنه :"تقدم [1] وتطور للعقلية الإنسانية أو تهذيب البشرية " .

وبناء على هذه النظرة الإنسانية التعاطفية كانت مسيرة التاريخ تفضى دوما إلى المستقبل وكأن خطا المدنية بما حققته وبما ينتظر منها أن تحققه فى تحرك مستقبلى متصل وذلك هو سر بقاء التاريخ وسر حياته ودوامه

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

(١) كتاب فكرة التاريخ " تأليف كولنجوود ، ترجمة :محمد بكير خليل .ص ١٦٧ ،

ومن المفكرين من كان عنصريا فى وعيه التاريخى فعند هيردر أن : "الوسط الطيب الذى تنشأ فيه الحياة التاريخية هى أوروبا لما تتميز به من خصائص جغرافية ومناخية . ولذا نجد فى أوروبا وحدها أن الحياة الإنسانية ظاهرة تاريخية بمعنى الكلمة[1] بينما لا نجد من الصين أو الهند أو بين سكان أمريكا تقدما تاريخيا يذكر وإنما نجد مدنية من النوع الثابت الذى لا يتغير أو سلسلة من المتغيرات تستبدل فيها بالألوان القديمة من الحياة ألوان أخرى جديدة . ولكنها تغيرات خلت من أوضاع تبلورت فيها التغييرات المتعاقبة الأمر الذى يتميز به التقدم التاريخى . وأذن تكون أوروبا منطقة متميزة بالحياة الإنسانية كما أن الإنسان قد تميز من بين الحيوانات و الحيوانات قد تميزت من بين الكائنات الحية وتميزت هذه الكائنات الحية من بين كل ما خق على سطح الأرض " .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

(١) المرجع السابق ص ١٧٢ .

وفلسفة الوعى التاريخى عند "كنت" ذات طابع خاص مُسْتَقى من نظريته فالمعرفة التاريخية مما لا يمكن تجاهلها أو الغض منها ومن ثم فإن على المؤرخ ألا يفرط أو يتهارن فى النزعة التاريخية أو التصور التاريخى السائد والذى يسلم به العصر .

وبباعث من فلسفة الوعى التاريخى عند "كنت "فإن للتاريخ غاية أخلاقية عظمى ألا وهى تهذيب الجنس البشرى ودلالة ذلك أن الإنسانية تستطرد فى مسيرتها إلى مرحلة العقل الكامل أى حرية التصرف المطلق . فإذا قال "كنت "بخطة من وضع الطبيعة تسيطر على الأحداث التاريخية فإن من شأن هذه الخطة أنها تنتظم علي نهج يؤدى إلى تحرير العقلية البشرية فكأن الطبيعة تهدف إلى إزكاء الحرية الأخلاقية .. ومن هنا يمكن القول أن "كنت : قد تصور الطبيعة الإنسانية على أن لها قواعدها ومناهجها التى تندفع فى سبيلها بدعم من الإرادة الحرة ..

ورغم هذه النظرة العقلية الأخلاقية للتاريخ التى آمن بها "كنت" إلا أنه كان يؤمن بأن تاريخ البشرية فى جوهره :"مشهد للطيش[1] الإنسانى والطمع والجشع المسرف والإجرام وأن من يرجع إلى هذا التاريخ ملتمسا منه الأمثال على الحكمة والفضيلة يعود صفر اليدين ".. وهذا أمر طبيعى وإلا فكيف يكون التاريخ محققا للتقدم الأخلاقى ؟

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

(١) المرجع السابق ص ١٧٢ .

وكانت فلسفة الوعى التاريخى عند شيللر ترى أن : "تاريخ العلم هو تاريخ التقدم منذ عهد "الإنسان ـ الحيوان "، حتى عهد المدنية الحديثة وإذاً فالتاريخ فى أطواره إنما يمثل كلا قائما بذاته أو أن كل حقبة منه قائمة بذاتها لا يمكنها أن تنفذ من حجب الزمان فتتطلع إلى المستقبل . ولهذا ليس فى مستطاعنا أن نستخلص من أية أحداث تاريخية معاصرة ما يمكن أن يسفربه المستقبل .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

ثم تتقدم فلسفة الوعى التاريخى إلى الخطوة الأهم والأصوب فى تقدير التاريخ . . وجاءت تلك الخطوة على يد الفيلسوف فختـه . . ففى تصوره أن على المؤرخ ألا يبوى نفسه مقام الألوهية فيعتبر أن العالم أقل درجة وهوفى المقام الأعلى ومن ثم يعود إلى مكانته ودرجته أو يرجع إلى إنسانيته المقيدة بقيود الزمان والمكان لا تعلو عليها ولا تنحدر دونها . ولذلك كانت غاية المؤرخ أن يقوّم الماضى بباعث من تقويمه لحاضره . . حتى إذا ما شاء أن يقيس أحوال العوالم الحضارية فى دولها وشعوبها ومدنياتها فإنما يقيسها من واقع تصوره الذاتى الخالص . ومثل ذلك المقياس خليق بأن يكون عاما يصطنعه غيره من المؤرخين الذين يجدون أنفسهم فى عصور مشابهة لذلك العصر . . ولذلك فإن على المؤرخ وهو ينظر أو وهو يقوم الماضى أن يقومه من جهة نظر الحاضر .

أما إذا حاد عن هذا المنهاج فإنه يكون قد سلب من التاريخ حيويته .

وإذا كان فختـه يؤمن بأن المؤرخ إذ يعيش حاضره فإنه إذ ينظر فى التاريخ أو الماضى فهو يقومه بمعيار تقويمه لحاضره . . ومن هنا فإن كل حادثة من حوادث التاريخ لها مكانها المحدد فى الزمن الماضى وهذا يجعل له طابع المعرفة المحيطة التى يمكن الإحاطة بها من وجهة نظر الحاضر .

ثم نصل إلى هيجل حيث العقل المطلق هو عماد الوجود الإنسانى فى غابره وحاضره ومستقبله .. فليس هناك ثمة تاريخ إلا تاريخ الوجود الإنسانى الذى يستند إلى العقل وتكون حياته فى الفكر .. ولذلك فإن العمل الرئيسى للمؤرخ أو رسالة المؤرخ هو أن يعالج حياة الناس بالفكر ومن وجهة نظر الفكر وليس من وجهة ما صنعوه أو اقترفوه ، فى ذاته . وعلى هذا فالشخصية لكى تكون تاريخية لابد أن تكون مواقفها تاريخية بمعنى أن يكون عملها بباعث من الفكر . والحقيقة التى علينا أن نضعها أمام أعيننا هى أن :" الإنسان متعقل وعاطفى فى نفس الوقت لا واحد فقط من هذين الأثنين بمعزل عن الآخر ، إنسان تخضع عواطفه للعقل كما أنه يخضع تفكيره للعواطف .. إذن فإن فلسفة الوعى التاريخى عند هيجل تعنى ألا انفصام بين العقل والعاطفة فى دراسة التاريخ وإن كان العقل هو الذى يدفعه إلى الأمام ويحقق ما بأطواره من ظواهر .. فكأن فلسفة التاريخ تعنى الاستعانة بمنطق الفكر ومنطق التجربة العملية فى نفس الآن . ولهذا فليس فى مستطاع المؤرخ أن يتصور المستقبل ولو على سبيل الاحتمال . لأنه إذ يدرس الماضى فهو محاصر بالحاضر الذى يراه من خلاله .. فكأننا فى الحق إذ ندرس الماضى بإحساس الحاضر فكأننا ندرس الحاضر وحده .

أما المستقبل فأمره مستحيل وحسبه أن يكون كما قال هيجل :" ليس مسألة معرفة ولكنه مسألة مخاوف وآمال " .. وليس من الصواب أن نقول أن هناك مخاوف تاريخية أو آمال تاريخية ..

ولما كان العقل هو روح التاريخ ولبابه فإنما هو الدى يحكم العالم . ولذا يمكن القول بأن كل ما وقع فى العالم من أحداث تاريخية إنما هو بفضل العقل وعمله . وعلى هذا فالتاريخ تطور ونمو لمنطق باطن .. وليست الشخصيات التاريخية سوى وسائل وآلات تحققت بها ما كانت تلك الشخصيات تشعر به صحيح أنهم :يخضعون لأهوائهم ويرمون إلى تحقيق مصالحهم ولكن الذى

يحدث فى نفس الوقت هو أن ما ينشدونه قد تحقق وإن لم يكن قصداً من مقاصدهم . وهذا هو ما يسميه هيجل : "خبث [1] العقل الكلى للسيطرة على التاريخ " .

ولذلك فإن العقل الكلى يسخرٌ تلك الشخصيات لتحقيق خططه وأهدافه ومقاصده بغير أن يكون لتلك الشخصيات أدنى إدراك بأنهم مسخرون لذلك .

أما ما يضفى على تلك الشخصيات التاريخية القوة التى تنفرد بها فهو أن الغاية الجزئية الخاصة التى يحرصون على تحقيقها إنما تنطوى فى لبابها عى العنصر الأصيل الذى يجسد إرادة الروح الكلية .

وهذا العنصر موجود فى الغريزة الكلية غير المشعور بها لدى الناس وهم مدفوعون لذلك بقوة باطنة . ومن هنا يمكن القول إن هذا الكلى يستولى عليه عظماء التاريخ ويجعلون منه مأربا من مآربهم . ولذلك فتحقيقهم لما يراودهم من مآرب إنما يتم بما تصبو إليه الروح الكلية . .

وبناء على هذا فالتاريخ لا يعرف سوى الصراع . . فبالصراع والحروب والثورات يتقدم لتحقيق العقل المطلق . . أما عهود السلام والرخاء والدعة فهى ليست عصورا تاريخية .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

(١) كتاب " : شلنج " ، د / عبد الرحمن بدوى ، صـ٣٢٠

ولفلسفة الوعى التاريخى عند شلنج صبغة خاصة ومنحى متميز ، فعنده أن من الخطأ البيِّن أن يقول قائل إن التاريخ يستند إلى نظرية ذلك لأنه لابد أن تقوم النظرية على موضوعات تعتمد على قانون . فلا تدرك فى طبيعتها وعملها إلا وفقا لهذا القانون .. وعلى هذا فإنه بفضل هذا القانون يمكننا أن نستشف ما سوف يقع من أحداث فى المستقبل .. ولكننا عندما نتأمل فى التاريخ نجد أن ذلك المنهاج القانونى الإلزامى لا يتوافر فيه والعلة الرئيسية فى هذا [1] :"أن الحرية لا الضرورة هى التى تسود فى التاريخ " . ومن هنا حقت مقولة شلنج :"إن الهوى هو رب التاريخ " .. على هذا كان من المحتم لكى تكون للتاريخ فلسفة أن يكون ألعوبة فى يد الهوى بمعنى أن يكون هناك ثمة تكامل عضوى بين القانون والهوى .

لذلك كان لشلنج تصوره عن التمايز بين التطور التاريخى والتطور الطبيعى :"فالتطور فى التاريخ ليست [2] له مراحل ثابتة ولا يصل إلى هدف نهائى بل هو يمضى إلى غير نهاية ، إنه فى تقدم متواصل الأفراد والأجيال تمضى وتتغير ولكن النوع البشرى باق وهو الذى يتقدم ويتخذ من كل مرحلة تكأة للارتفاع إلى مرحلة أعلى . فالنوع هو الذى يتقدم قدما فى تواصل الأجيال واللاحق يقوم على السابق ويتسلم نتائج أفعالة ويجعل منه سنة وتقاليد .

فالتاريخ يتميز بالتقدم ويكون النوع هو الذى يقوم على استمرار هذا التقدم " . وفى هذا الأتجاه يرى شلنج أن موضوع التاريخ هو الحرية وبغير هذه الحرية لن يكون هناك ثمة تاريخ ولا تقدم ولا تدافع بين الأهواء والنزعات ..

تلك هى فلسفة الوعى التاريخى عند شلنج ...

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

---

(١) المرجع السابق صـ٣١٤ ، (٢) نفس المرجع صـ٣١٨ .

وفى تقدير "أوك شوت " أن حقائق التاريخ هى حقائق الماضى .. "إن الماضى التاريخى هو عالم " الأفكار " الذى تعيد المصادر التاريخية صورته الأولى فى الحاضر والذى يحدث فى الاستدلال التاريخى هو أننا لا نستدل على الماضى بالحاضر أو ننتقل من الحاضر للماضى لأن مثل هذا الانتقال فى المعرفة هو على الدوام انتقال فى إطار عالم حاضر يتألف نسيجه من أفكار " [1] ، وإذا كنا ندرس التاريخ فى ضوء الحاضر فإنما نراه فى ضوء من الفكر والتحليل النقدى .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

وجاءت فلسفة الوعى التاريخى عند توينبى (الإنجليزى) ، طبيعية خاصة ..فعلى المؤرخ أن يقيم فلسفته فى التاريخ عى أسس طبيعية بمعنى أن ينظر إلى حياة المجتمع على أنها حياة طبيعية وليست حياة عقلية . فكان التاريخ هو تاريخ بيولوجيا الوجود الانسانى .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

وكانت فلسفة الوعى التاريخى عند دلثى ، فاتحة علم انفس ، ومن قوله فى ذلك :" أستطيع عن طريق [2] التحليل السيكلوجى فقط أن أعرف حقيقة نفسى أى أ ن أفهم العناصر التى تتكون منها شخصيتى هذه . كذلك يجب على المؤرخ الذى يحيى الماضى فى عقليته إذا أراد أن يكون مؤرخا بحق ـ أن يتفهم حقيقة هذا الماضى الذى يحاول إحياءه .. إن مجرد عملية الإحياء هذه تضفى على شخصية المؤلف عمقا واتساعا بل هى تدمج فى نسيج تجاربه الخاصة تجارب الآخرين الذين عاشوا فى الماضى . ولكن الذى يدمج على هذه الصورة يصبح بعملية الإدماج هذه عنصرا من العناصر التى تتكون منها شخصيته ولن

---

(١) :" فكرة التاريخ" تاليف : كولنجوود ، ترجمة : محمد بكير خليل ، صـ ٢٨١ (٢) نفس المرجع صـ٣٠٧ ،

نجد فى هذا ما ينقض القاعدة القائلة بأن تركيب شخصيته على هذه الصورة يمكن أن يفهم استنادا إلى الأسس السيكلوجية وحدها " ..

وقد جانب دلثى محجة الصواب ذلك لأن الأعتقاد بأن التاريخ يمكن فهمه استنادا إلى أسس سيكلوجية هو استحالة المعرفة التاريخية لأن المعرفة الوحيدة الخلفية بهذا الاسم هى المعرفة العلمية .

ويعقب كولنجوود على نظرة دلثى بقوله :"إن التاريخ وحده مجرد "حياة "هولون من ألوان (١) المعرفة المباشرة " .. ولذا فإن (٢) المؤرخ بوصفه مؤرخا يجرب لونا من ألوان الحياة يستطيع أن يفهمه عالم النفس بوصفه عالما سيكلوجيا كما يستطيع أن يفهمه المؤرخ نفسه " ..

ويتصور كولنجوود أن فلسفة الوعى التاريخى تستند إلى حياة العقل ومن ثم فإن على العقل أن يكون يقظا من حيث نقد المعرفة التاريخية ونقده لنفسه فى نفس الوقت فالواقع :"أن كل لون (٣) من ألوان التفكير تقوم على النقد والتحليل . ولذلك نجد أن الفكرة التى تتمثل أفكارا ماضيه تنتقد هذه الأفكار فى الوقت الذى تتمثلها فيه" ..

ولعل أصوب رؤية لفلسفة الوعى التاريخى هو ألا نغفل جانب العاطفة فى تقويم التاريخ وأن يكون تقويمنا للتاريخ مبنيا على النقد والتحليل ، وأن نبنى تصورنا لأحداثه فى إطار من الحاضر الذى نحياه ،، فكأننا نستحيى الماضى فإذا هو شاخص بأفكاره أمام أعيننا على ألا نغفل فى نفس الوقت البواعث النفسية التى تجمع بين الثورة والاندفاع أو التريث والميل عن السبيل .

---

(١) المرجع السابق ص٣٠٨

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٨

(٣) نفس المرجع ص٣٠٨ ،

موازين التاريـخ

الكون قائم على موازين دقيقة محسوبة لا يمكن أن يعتريها أدنى درجة من درجات الخلل سواء جاء هذا الخلل من التغيير فى الطبيعة اتى جاء عليها بناء الكون أو بالزيادة فى مقادير مكونات هذه الطبيعة أو بالنقصان فى مقاديرها أو بالإضطراب فى حركاتها ، واتجاه هذه الحركات .

الكون قائم على موازين دقيقة على هذه الطبيعة وبهذه الكفاءة فى الحركة .. ومن ثم فلا يمكن أن يحدث للكون أدنى خلل أو أدنى اضطراب أو اختلاط فى الزمان الذى تحدث فيه واضطراد هذا الزمان على نسق معلوم ..

فإذا جئنا إلى الطبيعة الإنسانية فإننا نجدها مختلفة اختلافا كبيرا عن الطبيعة الكونية وكان اختلافها عميقا متاصلاً وكأنه لازمة من لوازمها التى لا تحيا بدونها .. فلا ريب تلك فطرة أصيلة فى الأنسان حتى يمكن أن يقوم تدافع حضارى إبداعى يكشف عن عناصر جديدة يتحقق بها التقدم الحضارى فى كافة المجالات الفكرية والعلمية والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من حيث تطوير ما هو قائم منها وأيضا إبداع الجديد الذى تسفر عنه التجارب العلمية أو التجارب الاجتماعية والفكرية .. وإذا كانت الفطرة الإنسانية على تحول متصل وتغير متصل كان لابد من أن تختلف أساليب التقويم للأعمال ما ظهر منها وخفق وما بطن منها اواستكن.

واختلاف التقويم هنا ياتى من اختلاف الإدراك والتصور ويأتى من اختلاف الأحساس ، كما يأتى من اختلاف الأهداف المقصودة .. ، وكلها بغير شك تلزم بضرورة اقتفاء الدقة الخالصة فى المعالجة والتصور حتى تأتى النتيجة سليمة قويمة من الزيغ والانحراف .. لكى تكون المحصلة عملا نافعا ومفيدا ، ينتفع به الفرد فضلاً عن الجماعة فضلاً عن الإنسانية فى واقعها وحاضرها ومستقبلها ومن هنا كان تصحيح أعمال الإنسانية يكلف الكثير من الجهد ، ويكلف الكثير من

سلامة الرؤية ويكلف الكثير من العنت فى اكتشاف الحقيقة وبلوغ الصواب

فإذا جئنا إلى التاريخ وجدنا أن من الزام اللوازم أن يتحرى المؤرخون وكذلك فلاسفة التاريخ الدقة والحيطة فى تعيين موازين التاريخ سواء فى بحثهم فى أحداث التاريخ والشخصيات التاريخية ذلك لأن الأحداث والتطورات التاريخية تعتورها أنواع من التداخلات والتغيرات والتقابلات مالاحصر له مما قد يؤدى إلى إساءة التقدير وتضليل الرؤية ،، ومن هنا كان من الضرورى أن تكون لتلك الموازين صبغة عامة تقوم عليها وتستند إليها . فما لم تتوافر هذه الصبغة العامة لم يكن هناك ثمة موازين إنما يكون هناك فوضى أو اضطراب أولا ثم إجحاف وتزييف ثانيا .. شرط هذه الصبغة العامة أن يكون الوزن بالقسطاس المستقيم ؛ فقال سبحانه وتعالى﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ [٣٥ سورة الإسراء]

أى أن يكون الوزن على منهاج العدل ، والعدل لا يعرف الالتواء ، ولا يعرف سوى الاستقامة والاستقامة تترفع عن التزييف .

وهنا يأتى الأمر صريحا لسلامة موازين التاريخ ؛ فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [٩ سورة الرحمن]

فمن المحتم فى الدراسات التاريخية أن يكون البحث فيها وإقامتها بالقسط ، والقسط انصاف وتحر عن الحقيقة وكشف عن أوجه الصواب .. ومثل هذا المنهاج خليق بأن يجنبنا الانحراف عن قصد السبيل كما ينقذنا من دوار الحيرة والتردد والشك العقيم . وذلك هو الخسران الذى علينا أن نحذره بعد أن نتبينه ونتعرف على مخاطره .

ثم يأتى المنهاج كاملاً من كافة أقطاره ؛ فيقول سبحانه وتعالى ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [٨٥ سورة الأعراف] ..

ففى دراستنا للتاريخ وتقويم رجاله وأحداثه لابد أن نوفى الكيل " :فأوفوا" الكيل

.. ويمكن أن يفهم الكيل هنا على أنه التصور العام لأحداث التاريخ مجسدا فى أحداثه ووقائعه وشخصياته وعهوده أو أزمانه ..

فالوفاء هنا إحاطه شاملة لا تنسى ولا تجحف ولا تقصر .. والكيل يمكن أن يفهم على أنه الصورة العامة لماضى التاريخ أو مواضى التاريخ .. فإذا قرن الكيل بالميزان ، كانت للميزان دلالة خاصة ؛ والدلالة الخاصة هنا هى أن الدراسات التاريخية ينبغى أن تكون وافية فى تفصيها ، وافيه في تعليلها ، وافية في تشخيص بواعثها وأسبابها .. ثم يأتى قوله تعالى ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ، نصا صريحا على أن الدراسات التاريخية تقيم الحق للناس كافة على سبيل الحق فلا يسلب البعض حقوقهم سواء أكانت علمية أو فكرية ، ولا يسلب البعض حقوقهم الحضارية فتعطى لآخرين لا يستحقونها فهم ينسبونها لأنفسهم ادعاءاً وتعاليا أو بدافع من عنصرية حقودة .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

نأتى بعد هذا إلى موازين التاريخ .. فما هى هذه الموازين ؟

لا ريب فى أنه طالما أننا مطالبون بأن نزن بالقسطاس المستقيم .. وأن نقيم الوزن بالقسط .. وأن نوفى الكيل والميزان .. طالما أننا مطالبون بتحرى الصواب فى تلك المقومات لأن موازين التاريخ من السهل أن يُعْبَثَ بها ومن الصعب أن نكشف بها عن الحقائق .. لذلك فإننا نحدد تلك الموازين بجانبيها الإيجابى والسلبى على هذا المنهاج :

أولاً: أن يكون ميزان المؤرخ مبنيا على : الفكر والخلق ، والعقيدة والذوق ، والخيال ..هذه الأقانيم الخمسة لا تكون ميزانا صالحاً للمؤرخ مالم يصطنع منها ميزانا كليا متكاملا فى دراسته للتاريخ . وشرط التكامل هنا أن يكون عضويا متصلا اتصالا حيويا..فلا يصح الأخذ بعنصر منه وإغفال العناصر الأخرى .

فمثلا من الخطأ أن يعتمد المؤرخ على الفكر وحده فيفسر به وحده أحداث

التاريخ والشخصيات التاريخية .. لأن الفكر قد يتجاوز به ويفرط فى التجاوز فيأتى بتعديلات أو أسباب لم تقع ومن الاستحاله وقوعها .. وقد يتوقف به عند ظواهر معينة فتخدعه وتضله . ولا تكون النتائج التى ينتهى إليها إلا من قبيل الانحراف عن الحقائق الصادقة . فإذا كان الفكر مناهج وأساليب ونوعيات كان اختلاف الفكر مفضيا إلى اختلاف فى المنهاج والأساليب والنوعيات . ومن ثم فلا نكون أمام تاريخ واحد لأحداث تاريخية لحقبة محددة بل نكون أمام تواريخ مختلفة لأحداث متضاربة مما يؤدي إلى الاختلاق والتردد فى التصديق والاعتماد على وحدة المسيرة التاريخية فى عصرها أو عهدها .

العنصر الثانى لهذا الميزان والذى يتكامل مع التفكير هو عنصر الخلق ، فحياة الإنسان لا تصلح مالم يتوافر فيها هذا العنصر توافراً يكفل إنجاز الأعمال المطلوبة التى تكون الأخلاق لها من ألزم اللوازم .. والأخلاق ليست ضرورية فحسب بالنسبة للأعمال التى يقدمها الإنسان للناس ولكنها ضرورية أيضا بالنسبة للسلوكيات العملية بين الأفراد والجماعات سواء أكان الأمر يتعلق بقضاء المصالح وتيسير الأعمال أو كان يتعلق بايجاد العلاقات الاجتماعية القائمة على التعاطف الإنسانى والتراحم والتآخى .

أما فيما يختص بالتاريخ فى تواتر أحداثه فصحيح أن التقدير الخلقى للتاريخ أو الماضى لن يحاسب عليه أحد حسابا مباشرا ولن يضار به أحد أو يصاب بأذى مباشر .. ولكن الخلق ضرورى فى تقديم التاريخ من حيث تعليل الأحداث وتفسيرها وكذلك إعطاء الشخصيات حقها فلا تبخس ولا تقدر بغير ما تستحق ولا تتهم بذنب لم تقترفه ولا يسند إليها عمل جليل من الصعب عليها أن تأتيه .. وبهذا يقدم التاريخ فى صورة صادقة أمينة . وفى هذا دلالة على أن الأمانة من طبعنا والصدق من سلوكنا .. فإذا ما قرئ التاريخ بعد ذلك قرئ فى صورته الصادقة الصافية الخالصة من أخلاط الزيغ سواء أكان مقصودا أم غير مقصود .. هذا فضلاً عن أن الفكر التاريخى يعطى للأجيال مثلاً خليقا سديدا

فى تقويم الناس ، ومثلا خليقا سديدا فى فهم التاريخ ، ومثلاً خليقاً سديدا فى توخى الصدق وتزكيته . . وبذلك يكون التاريخ معلما للخلق وهاديا إليه .

والعنصر الثالث الذى يتكامل مع كل من التفكير والخلق هو العقيدة . .ولا ريب فى أن تختلف العقائد فى تصور المؤرخين ، فمن العقائد ما هو متحجر قاس فى نظرته إلى الماضى . . فالماضى فى شخصياته برجاله ونسائه جُرّدا من الإيمان بالله . فما من عمل من أعمالهم إلا وهو دليل على الكفران والجحود . . ومن العقائد ما يرتفع بأصحابه إلى درجة التسامح والتعاطف مع الغير . ومن هنا فإن على المؤرخ ألا يدفع به اعتقاده الدينى إلى مدح هذا بإسناد كل الصواب إليه وهجاء ذاك بوصمه بكل نقيصة . بل يجب أن تكون العقيدة الدينية عاملا هاما فى إنارة السبيل أمام المؤرخ فينشد أمانة البحث بقصد الكشف عن الحقيقة وإعطاء كل ذى حق حقه

فإذا جئنا إلى الذوق فإننا نتساءل أولا : ما معنى الذوق ؟ لا سيما وأن الأذواق تختلف بين الناس كما تختلف مشاربهم وميولهم . . والذوق فى تقديرنا هو الشعور باستقامة المعنى والارتياح له . ومن ثم فهو يعين على الإدراك الصحيح . . فإذا وجدنا فى حادثة ما أو عمل مانشوزا أو غموضا أو خروجا عن السواء فإن الذوق لا يستريح إليه نفسيا وعقليا مما يجعل صاحبه يتراجع فيبحث عن الصواب . . فكأن الذوق فوق أنه يهيئ لإدراك الصواب فهو فى نفس الوقت يحدث نوعا من الأطمئنان النفسى والاستقرار العقلى مما يجعل للمعانى التاريخية وزنهاالصحيح بعيدا عن المغالاة أو الإنكار أو التشكك .

وللخيال دوره فى ميزان المؤرخ . . فالخيال يحيى المعانى فى الفكر ويوسع من دائرتها ويعين المؤرخ على أن يذهب إلى غاية ما يستطيع من احتمالات وتوقعات.

ومن ثم فإن للخيال دوره فى إحياء الماضى التاريخى وجعله مشهودا أمام العقل وهذا من شأنه أن يخرج للمؤرخ معان تاريخية ومشاهد تاريخية ما كان يحلم بها أو يأمل فيها

ثانيا : من الموازين التاريخية ميزان الشائعات التاريخية

وهو ما ينبغى على المؤرخ لا أن يتجنبه فحسب بل إن عليه أن يحذره لأنه من الآفات التى انزلق فيها كثير من المؤرخين ولا يزالون .. ففلان هذا هو بطل الثورة وهو صاحبها ومؤسسها وهو الذى على يديه قامت المشروعات وارتفعت أعظم الأعمال فى الوقت الذى كان هو متواريا حتى إذا حانت له الفرصة أعدام صاحب الثورة الحقيقى وتخلص من أعوانه .. ومن الشائعات التاريخية أن يزعم الزاعمون أن هذه الشخصية التاريخية إن هو إلا رجل خائر العزيمة لم يعمل فى يوم عملا يدل على النخوة أو الشجاعة .. ومن الشائعات التاريخية أن يقال إن النصر فى معركة تاريخية كان نصرا لم يعرفه التاريخ من قبل وتروج الشائعة بين أفواه الناس وتتناقلها كتب التاريخ . ثم بعد جهود من المؤرخين وجهود تسفر الحقيقة فإذا بالنصر كان تراجعا وخذلانا .. ويذكر اتاريخ أن قد كان أباطرة الرومان يخافون من وباء الإشاعة مما دفعهم إلى أن يعينوا : "حراس إشاعات " .. وكانت وظيفتهم أن يندسوا بين الجماهير ويأتوا إلى القصر الإمبراطورى بما يروج من أقوال .

ومن الشائعات التاريخية شائعة حرق روما التى لصقت بنيرون عام ٦٤م . ،كذلك فإن سقراط سيق إلى الموت بسبب اتهامه بأنه يفسد الشباب ويحضهم على الثورة ..

وهكذا فإن للشائعات خطورتها على الشخصية التاريخية وعلى مسيرة الأحداث التاريخية .. وعلى هذا فعلى المؤرخ أن يحذر الشائعات وأن تكون لديه البصيرة التى يميز بها بين الشائعة والحقيقة حتى يضمن أن يبرأ ماضيه من لوثات الشائعات .

ثالثا : ميزان المحاباة التاريخية ، لا لسبب إلا لهوى نفسى ...

مثل هذا الميزان حين يصطنعه المؤرخون لدراسة الماضى والإماطة عن أسراره وتقويم

رجاله وأطواره - مثل هذا الميزان كفيل أن يلتوى بالتاريخ إلى حيث يشتهى المؤرخ أن يلتوى .. ومن ثم فتتكون عنده الرغبة الشديدة فى أن يزكى هذا الشخص أو ذاك . ولو لم يكن قد صنع عملاً يستحق من أجله التزكية أو يستحق من أجله أن يُمْتدح .. ومن هنا تنسب إليه أعمال كبيرة أو أعمال حسنة لم يكن قد عملها أو فكر فيها ، والمحاباة التاريخية إذا كان هذا هو صنيعها فلا غرابة إذن بدافع من الهوى النفسى أن يسلب الغير من كل عمل قد صنعه أو من عمل له تأثيره الكبير فى مسيرة التاريخ وصناعة أحداثه . وهكذا فإن المحاباة إذ تمنح الغير بتحريض من هوى نفسى ، والهوى النفسى ميل حاد عنيف ، فإنها فى نفس الآن - أى المحاباة - تسلب من الآخر ما يستحقه أو ما هو جدير به .. وفضلا عن هذا فإن من شأن المحاباة التى يثيرها الهوى النفسى لا يقتصر عملها على الشخصيات ولكن الأحداث كذلك . فإن من خليقة المحابى أن يحاول تشويه المعالم وإخفاء الأسرار التى يرى أنها تضير بمن يحابيه - بل إن المحاباة تصر على تحويل خط سير التاريخ فتميل به إلى الناحية التى ترى فيها رفعا من شأن من تحابيه وربما قطعت جزءا من مسيرة التاريخ وأسدلت عليها غموضا فيضطرب التواتر اتاريخى فتضيع الحقيقة فى ظلمة ذلك الغموض .

ومن الغريب فى شأن المحابين من المؤرخين أن منهم من تستبد به سورة الحماسة لشخصية تاريخية بغير موجب وبغير دليل من دلائل التاريخ حتى لتخرجه الحماسة عن جادة الاتزان وكأن الشخصية التاريخية من أهله وذويه ..

هكذا تصنع المحاباة التاريخية حين يستنفرها الهوى النفسى فتضل وتخدع .

رابعا : ميزان الحذر من اختلال الموازين فيوضع المدح فى موضع الذم والحذر هنا واجب بغير شك لأن معنى أن يضع المؤرخ المدح فى موضع الذم .. هو أنه أساء التقدير فأعطى الحق لمن لا يستحقه وسلبه ممن يستحقه سواء أكان شخصا أم حادثة لعبت دورا له تأثيره وفاعليته فى مسيرة التاريخ . وليست المسألة مجرد

مدح وثناء ، وليس الذم مجرد انتقاص أو قدح لكنما العملية بطرفيها شرح وتفسير وتحليل وكشف واستخلاص لنتائج ، أو تحديد الأعمال التى تستحق المدح فعلا وكذلك استخلاص الأخطاء وتعيينها والإفصاح عن أخطارها وأبعاد هذه الأخطار من حيث تأثيرها على التاريخ والشخصية التاريخية .

خامسا : الا يكون الميزان لذكر الحوادث فحسب بل تقديرا للناس فيما عملوه واستطاعوه . .

فالكثيرون من الناس وحتى المثقفين منهم يفهمون التاريخ على أنه قصص مثيرة حافلة بالأحداث المتراكبة التى تثير الخيال وتنطق به فى عوالم مثيرة تغرى بالإطلاع والمعرفة . . أما تقويم الرجال والأعمال ، أما دراسة الحركات التاريخية فى مذاهبها وأهدافها ، وفى قيمها الفكرية والأخلاقية والحضارية فهذا مما يغفلون عنه . فحسبهم وكفاهم أن يقرأو فى التاريخ قصص الحروب والغزوات والانتصارات والهزائم . . وحسبهم من التاريخ أن يقرأوا فيه قصص الحب وأناشيد الغرام ، وغير ذلك .

بل أن الوظيفة الرئيسية للتاريخ أن يكون تقديراً للناس فيما عملوه واستطاعوه .

ومعنى دلك أن على امؤرخ أن يقدر الناس فى طبقاتهم وطوائفهم يقدرهم من خلال أعمالهم المعلنة أو نواياهم المضمرة . . فعمل المؤرخ وهو شخصية ، وهو نفسية ، وهو عقيدة ، وهو نزعة سياسية ، وهو خيال . . بهذه المقومات الذاتية يقدر المؤرخ الناس ويحسن التقدير . . ومن ثم يكون التاريخ إنسانا له خطره وله حقه وعليه واجبه ولا يكون مجرد أصداء فارغة ودعاية ضالة .

سادسا : من الميزان الخامسى نستقى الميزان السادس ، وإنه لميزان البواعث النفسية . .

فميزان البواعث النفسية أشمل الموازين وأخطرها وأدلها على الأعمال التى تصدر من الناس . فما من حركة من حركات التاريخ كبرت أم صغرت كان لها أثرها فى حياة الفرد والمجتمع فى الفكر والسلوك والنظرة إلى الواقع والمستقبل . .

ما من حركة من حركات التاريخ كانت سببا فيما حاق بالناس من ضر أو كانت سببا فى إحاقة الهزيمة بالغير أو كانت سببا فى إحداث شقاق وعدواة بين الناس ..

ما من حركة من حركات التاريخ .. وما من عمل من أعمال الإنسان إلا وكان وراءها باعث نفسى دفعه ، وحفزه .

والباعث النفسى فى حد ذاته يكشف عن الطبيعة الأخلاقية وتكشف هذه عما قد يساورالمرء من طموحات وأشجان أو يساوره من حسرات تجعله يقترف ما قد يقترف ..ولهذا فإذا أردنا أن نفسر حقيقة من حقائق التاريخ أو أن نكشف عن الطبيعة انفسية والسياسية والسلوكية لعظيم من عظماء التاريخ فإن علينا أن نتعرف على بواعثه النفسية وأن ندرس هذه البواعث فى خصائصها وما يمكن أن تدفع إليه من أعمال وأقوال .

سابعا : ميزان الكشف عن اختلاس التاريخ ..

ومختلسو التاريخ يحرصون على أن يضللوا بالمخادعة والسطحية والإغفال ، أو يضللو باعتساف اسباب واهيه يصرون على صحتها ويؤكدون وقوعها وبذلك فهم يبرزون شخصيات فيعطونها مكانة لا تستحقها أو يغمطون بعض الشخصيات حقها وربما أنكروا حقيقة وجودها .. وربما أضرب مختلسو التاريخ صفحا عن بعض فترات الزمان فيحدثون من الفجوات فى مسيرة التاريخ ما ينتهى بهم إلى ما يشتهون .

واختلاس التاريخ يلزمه ميزان خاص يكشف عن أوجه الاختلاس وطبيعته ورموزه وفاعلياتها .. وأخص ما يحتاجه ميزان الكشف عن اختلاس التاريح أن يكون المؤرخ يقظ الضمير ، يقظ البصيرة ، ويقظا فى حيويته الإنسانية

ثامنا : أن تحْـذَرَ الموازين التاريخية من النهازيس أو الوصوليين المطبوعين والنهازين المصنوعين أو المصطنعين .

يحذرنا هذا الميزان من مرض اجتماعى كثير التفشى بين الناس . فهم يعانون منه اجتماعيا ونفسيا فوق أنه يثير الشحناء والبغضاء مما قد يؤدى إلى أن يصطرع الناس فيما بينهم فتخلق عداوات معلنه أو عداوات مستترة مكظومة .

ولكم ابتلى التاريخ من النهازين أو الوصوليين المطبوعين وكذلك من النهازين أو الوصوليين المصنوعين والمصطنعين . . ابتلى التاريخ بهؤلاء وهؤلاء فالنهازون أو الوصليون المطبوعون هم من كانت طبيعتهم الأخلاقية والنفسية ومرتبتهم الاجتماعية تبيح لهم - ولا سيما فى المواقف التاريخية - أن يمالئوا هذا الحاكم أو ذاك أو هذه الطائفة أو تلك برغم أنهم يعلمون كم أن هذا الحاكم باغ ظالم أو أن هذه الطائفة فاسدة نهازة حسبها شهواتها . . وبرغم أنهم يعلمون أن قصد الحاكم من سياسته وهدفه منها إنما هو نزوة التحكم والتسلط ونزوة الثراء الفاحش البشع حتى وإن ضاعت ثروات الأمة واغتصبت أموال الناس بالباطل . فى الوقت الذى يروِّج فيه بمساعدة ومعاونه لا تهدأ من أولئك النهازين أنه حريص على مصالح الجماهير ، غايته أن يفتح لهم أبواب الخير . . ومن ثم فإن النهاز يجدها فرصته الفريدة ليمالئ ويداهن ويناصر ويرفع عقيرته مسبحا بعدل الحاكم ورحمته وعطفه .

وبذلك يكون الباب مفتوحا ليحقق النهاز ما يشتهيه وما تشخص إليه عيناه من مال أو مناصب أو مكانة يتعالى بها على الناس حتى ولو فقد كرامته وفقد استقلال فكره وحرية إرادته . فهو لا يعنيه من هذا شيئاً ولا يفكر فيه حتى ولو نصحه الناصحون وأشفق عليه المشفقون . . فهو لا يرى فى الناصحين إلا بأنهم جهلة أغرار لا يعرفون السياسة الصائبة فى التعامل مع الناس بل إنهم لا يعرفون "الدنيا" .

مثل هؤلاء النهازين الوصوليين بطبيعتهم شرما يعترض مسيرة الشخصيات التاريخية . . ولذلك فإن تعرينهم ودراسة أساليبهم فى الانتهاز والوصولية المطبوعة يفيد فى دراسة الأحداث التاريخة أولا ويضيف جديداً إلى علم النفس

ثانيا .. أما النهازون المصنوعون أو المصطنعون فهم المأجورون الذين يغرون بالمنافع العاجلة سواء أكانت أمولا أو مناصب أو حظوة .. ومثل أولئك المأجورين ربما كانوا أشد شراسة وعنفا ومن ثم فمن اليسير اكتشاف أمرهم وإسكات أصواتهم .

إن النهازين أو الوصوليين المطبوعين والمصنوعين والمصطنعين يفيد منهم التاريخ كثيراً وذلك فى تصحيح الرؤية التاريخية وضبط المعايير التى تميز الحق من الباطل .

تاسعا : إن على المؤرخ أن يحذر ميزان التعصب والغيرة العمياء .. وكم جنى التعصب على التاريخ فى أطواره وشخصياته وأهدافه .. فالتعصب فى ذاته عقيم فى التفكير متحجر فى الإحساس مصرعلى البقاء على ما هو عليه .

ثم هو - أى التعصب - القتال الحقود ضد من لا يخضع له .. وللتعصب سياسته ، للتعصب نزعاته انفسية الخاصة ، التى تغلق منافذ الحياة بينه وبين الناس .

فالمتعصب يحسب أن دائرة حياته الضيقة هى الحياة الصحيحة وهى الحياة التى هو جدير بها وحده .. ولذلك لا ينفك المتعصب عن العداء لمن هم على غير شرعته أو لمن يخشى مناوأتهم ومنافستهم ..

ولعل الحركات التاريخية فى معظم أحوالها كانت قائمة على محور التعصب .

فكانت الحروب والنزاعات والمصادمات التى لا زالت تعبث بالتطلعات الإنسانية نحو التعاطف على سنة التآخى والمساواة وعلى سنة التناصر من أجل الخير والسلام .. أما عن الغيرة العمياء ، فالغيرة العمياء صورة من صور التعصب أو أنها بمعنى من المعانى هى التى تبعث فى المتعصب حمية الشر فلا يبصر سوى ما يتعصب له ، فتضيع الحقوق وتنشب الصراعات .

وإذا كنا نعتبر التعصب شرا وكذلك الغيرة العمياء فإن علينا أن ندرس بواعثه وصوره وتحركاته وضرورته إن كانت له ثمة ضرورة ، فى تدافع حركات التاريخ .

عاشرا : من موازين التاريخ أن يحذر الناس المعاذير الواهية ، أو الوزن بميزانين .

والتماس المعاذير أو الوزن بيمزانين ، يثير الأطماع ويثير نزاعات الانتهاز . فتضيع معالم الحق وبراهين الصواب وكذلك تضيع حقوق الغير بين ضباب المعاذير وخسران الميزان .. وفى التاريخ كم من حروب استعرت بسبب الكيل بميزانين ، وكم من حقوق تاهت بسبب المعاذير التى لا تعرف الصدق ولا تتحرى الإنصاف . وذلك هو لباب النفاق : والنفاق حديث مكذوب . وأمانة مضيعة ، وعهد مخالف .

ولذلك فلكى يوفى هذا الميزان حقه فإنه من الضرورى أن يفحص المؤرخ أطوار الحركة التاريخية فى شخصياتها وأحداثها ، فحصا دقيقا منصفا ، لكى تكون لدينا صورة صادقة وأمينة للتاريخ بحسناته وسيئاته .

أحد عشر : من موازين التاريخ ، أن على المؤرخ أن يراجع موازينه جيدا .. فعليه ألا يضرب الموازين بعضها ببعض بل عليه أن يستبدل ميزانا قويما بآخر أقوم منه إذا وجب التصحيح وتحتم الإنصاف والإيضاح . وهذا مما يعطى للمؤرخ حرية التفكر وحرية التخيل وحرية الترجيح بغير إنكار لحق أو تعطيل لمزية .

تلك هى موازين التاريخ التى يجدر بالمؤرخ أن يصطنعها دستوراً يحتكم إليه وهو يعيد تجسيد الماضى بأحداثه ورجاله ويكشف الحجب عن رموز مسيرته حتى تكون وقائعه مبسوطة فى وضوحها منطقية فى دلالاتها خالصة من التضليل والمخادعة .

وبذلك يحيى المؤرخ التاريخ فكأننا نشهده معه بل نحياه معه .

الفصل الثانى

تزييف التاريخ

أ ـ التزييف الغير مقصود

ب ـ التزييف المقصـــود

التزييف الغير مقصود

تفسير التاريخ كنوع من التزييف

تمهيد ...

كيف نفسر التاريخ ؟

علينا أن نفرّق بادئ ذى بدء بين الفهم والتفسير .. فإذا قلت إننى أفهم تاريخ الدولة العباسية أو تاريخ الحرب الفارسية اليونانية القديمة كان معنى هذا أننى قد أصبحت على معرفة بأحداث الدولة العباسية، وما فعله رجالها ، وتطور قوتها ومظاهرها الحضارية ثم ما أصابها من تقوض وانهيار ..

وقد يمتزج الفهم هنا بمزاج من الأعجاب بهذه الشخصية أو تلك ، أو الدهشة من وقوع هذه الحادثة أو تلك .. أو الأسى على ما أصاب هذه الشخصية أو هذه الجماعة من بلاء على يد أعدائها من كبراء الدولة والمعتزين فيها بالجاه والسلطان .. وربما شاب هذا اللإعجاب تشوف إلى معرفة الأسباب الخفية وراء هذا الحادث أو ذاك .

وربما أيضا شابته نزعة من الشك فى صحة ما يرويه المؤرخ لما قد يدركه فى أقوله من مبالغات وتهويلات أو ما قد يدركه فيها من تمويه أو تلبيس ..

أما التفسير فإنه يزيد على الفهم وما يصاحبه من اتجاهات شبه فكرية وإحساسات نفسية .. التفسير فحص وتمحيص وتحليل ثم تقويم وموازنة وتقدير . ثم استخلاص للأسباب الرئيسية وراء الظواهر والرسوم..

وواء تطور المسيرة فى أحداثها ووقائعها ، بل وراء التكوين النفسى والعقلى والشعورى للإنسان.

وكاما يختلف فهم هذا الفرد أو ذاك للماضى بعامة أو التاريخ .. فكذلك يقع الاختلاف بين المؤرخين وفلاسفة التاريخ فى تفسير التاريخ من حيث المبدأ الرئيسى أو العامل المحرك لمسيرة التاريخ والباعث المحقق لظواهرها وأشكالها وأنواعها .. ومن هنا كان التفسير مدعاة لاحتمالات التزييف غير المقصود وإن كان القصد متوقعا فى بعض الأحيان .

ويمكننا أن نحدد للتاريخ خمسة تفسيرات رئيسية هى :

أولا : التفسير الجغرافى للتاريخ

ثانيا : التفسير الجنسى للتاريخ

ثالثا : التفسير المادى للتاريخ

رابعا : التفسير الإنسانى للتاريخ

خامسا : التفسير الدينى للتاريخ

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

التفسير الجغرافى للتاريخ

التفسير الجغرافى للتاريخ قديم قدم التاريخ ذاته .. ففى القرن الرابع قبل الميلاد ألف الحكيم أبو قراط كتابا عنوانه : " الأهوية والمياه والأمكنة " ، تكلم فيه بإيجاز عن : " أثر البيئة الجغرافية فى تكوين السكان الطبيعى وتكوين الدول القانونى " .. ،كذلك أرسطو " علل تفوق الإغريق وتساميهم العقلى والفكرى والفنى إلى مناخهم المتوسط " .

ولعل ابن خلدون كان أول فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع الذين فسروا التاريخ تفسيرا جغرافيا فقد قال فى مقدمته :" فى المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير فى أحوالهم " : قد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر فى الجنوب منه والبرد فى الشمال .. ولما كان الجانبين من الشمال والجنوب متضامنين فى الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلي الوسط فيكون معتدلا . فالإقليم الرابع أعدل العمران والذى حفافيه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال والذى يليها والثانى والسادس بعيدان عن الاعتدال . والأول والسابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون من هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوات فإنما توجد فى الأكثر فيها .. ولم نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية ، وذلك أن الأنبياء والرسل يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم وأخلاقهم ؛قال تعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله .. وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الأعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط فى مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم ، يتخذون من البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغون فى استجادة الآلات والمواعين ويذهبون فى ذلك إلى الغاية .

وتوجد لديهم المعدن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون فى معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف فى عامة أحوالهم

وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين .

وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين .. ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منه فى هذه الأقاليم المعتدلة . ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات وأما الأقاليم البعيدة من الأعتدال مثل الأول والثانى والسادس والسابع فأهلها أبعد من الأعتدال فى جميع أحوالهم .

فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس » .

ثم يقو عن السودان أهل الإقليم الأول : « إنهم [1] يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون م العشب وإنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذلك الصقالبة والسبب فى ذلك أنهم لبعدهم من الاعتدال يقرب عرض أمزحتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك وكذلك أحواهم فى الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون لشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو فى الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد » ..

ثم يفند ابن خلدون خرافة الألوان تفنيدا علمياً فيقول " : وقد توهم [1] بعض النسابين ممن لا علم لهم بطبائع الكائنات ان السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد والدعوة كانت عليه من خرافات القصاص ودعاء نوح على

---

(١) "مقدمة ابن خلدون" ، ص٧٠ ،

ابنه حام قد وقع فى التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بان يكون ولدة عبدا لولد إخوته لا غير وفى القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات ".

ثم يقول :" وفى ذلك دلي على أن اللون تابع لمزاج الهواء ، قال ابن سينافى أرجوزته فى الطب :

بالزنج حر غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا

والصقلب اكتبست ابياضا حتى غدت جلودها بضاضا "

ثم يقول عن أثر الهواء فى أخلاق البشر :" قد [٢] رأينا من خلق السودان الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق فى كل قطر والسبب الصحيح فى ذلك أنه تقرر فى موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاشفه وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار ، مخلخلة زائدة فى كميته ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور مالا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغرزية التى تبعثها سورة الخمر فى الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجئ طبيعة الفرح ".

ثم يقول :" ولما كانت فاس [١] من بلاد المغرب بالعكس منها فى التوغل فى التلول الباردة كيف ترى أهالها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوافى نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره . وتتبع ذلك فى الأقاليم تجد فى الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء "..

(١) نفس المرجع ص٧١ ، (٣) نفس المرجع ص ٧٣.

ويذهب هيردر الفيلسوف الألمانى مذهب التفسير الجغرافى للتاريخ بتفضيل أوروبا على غيرها ، فهو يقول : " الوسط الطيب الذى تنشأ فيه الحياة التاريخية هى أوزوبا ، لما تتميز به من خصائص جغرافية ومناخية ولذا نجد فى أوروبا وحدها أن الحياة الإنسانية ظاهرة تاريخية بمعنى الكلمة بينما لا نجد من الصين أو الهند أو بين سكان أمريكا تقدما تاريخيا يذكر .. وإنما نجد مدينة من النوع الثابت الذى لا يتغير ، أو سلسة من التغيرات تستبدل فيها بالألوان القديمة من الحياة ألوان أخرى جديدة .. ولكنها تغييرات خلت من أوضاع تبلورت فيها االتغييرات المتعاقبة الأمر الذى يتميز به التقدم التاريخى . وإذن تكون أوروبا منطقة متميزة بالحياة الإنسانية كما أن الإنسان قد تميز من بين الحيوانات ، والحيوانات قد تميزت من بين الكائنات الحية ، وتميزت هذه الكائنات الحية من بين كل ما خلق على سطح الأرض " ..

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

✡ وفى القرن السادس عشر سجل "بوادن " تصوره عن أثر العوامل الجغرافية من حيث الموقع والمناخ فى الاخلاق والسلوك وأثرها فى بعث الشجاعة وتنمية العقل " .. حتى العذارى يختلفن فى جمالهن وذكائهن باختلاف خطوط العرض" ..

✡ ثم جاء منتسكيو وتوسع فى تفسير التاريخ بظواهره الحضارية من فن ودين وأخلاق وسلوك تفسيرا خغرافيا ؛ فقال : " أعتقد [٢] أن الفوارق فى الخلق والمزاج التى تؤثر أثراً عظيما فى مصير الشعوب يرجع شطر كبير منها إلى أثر المناخ ، ففى المناطق الباردة مثلاً يميل الناس إلى النشاط على حين أنهم يميلون فى المناطق الاستوائية إلى الكسل .. وهذ شئ بديهى ومع ذلك فانظر كم أثمر من نتائج ..

---

(١) المرجع السابق صـ٣٧

(٢) : " مباهج الفلسفة " ، تأليف :ول ديورنت ، ترجمة : أحمد فؤاد الأهوانى ، ص ١٨

ويعتقد الهندوس أن السكون والعدم هما أساس جميع الأشياء والغاية المثلى التى تنتهى إليها . ولذلك يعدون عدم الحركة أكمل جميع الأحوال وغاية آمالهم . وعندهم أن الكسل هو الخير الأسمى ويكون فى نظرهم جوهر الجنة بالذات . أما الحرارة عى العكس فهى العنصر الأساسى فى تصورهم للنار . وأصبح الكسل فى كل مكان نتيجة لهذا النظر القديم دليلاً على منزلة عاليه حتى أن أولئك الذين لا يعملون يعتبرون أنفسهم سادة الذين يعملون .. ويترك كثير من الناس فى بقاع كثيرة أظافرهم تطول وتنمو حتى يظهر كل امرئ أنهم لا يعملون »..

بيد أن منتسكيو يعود فيتراجع إلى مسافة بعيدة عن المبدأ الجغرافى فى تفسير التاريخ بغير أن نفقد ظلال هذا التفسير فقدانا كاملا ؛فهو يقول : " لا ريب [1] أنه من الخطأ افتراض أننى أود إرجاع التاريخ للجغرافيا فقد ثبت أن ثمة أسبابا متعددة تحدد الحوادث بتعداد الدول . ففى بعضها تؤثر القوانين وفى بعضها الآخر الدين وفى بعضها الثالث التقاليد والأخلاق وفى غيرها أيضا الطبيعة والمناخ . وهذا ن يتحكمان فقط فى الهمج على حين حكمت التقاليد الصينيين ، والقوانين اليابان والأخلاق أهل اسبرطة . أما مبادئ الحكم وبساطة العوائد القديمة فقد صاغت لعدة أجيال أخلاق الرومان »:.

ولو أن واحداً من القائلين بالتفسير الجغرافى للتاريخ قولا مطلقا فلا يسلم إلا به ولا يفسر الأخلاق والسلوك والتقاليد والقوانين بغيره سمع هذا القول لرفضه رفضا مطلقا ؛ وربما قال " : ولكن لماذا خضع الصينيون لحكم التقاليد ؟ ولماذا خضع اليابانيون لشريعة القانون ؟ ولماذا أسلم الإسبارطيون مقادهم للأخلاق والرومان مقادهم لعاداتهم القديمة ونظم حكمهم ؟ أليس ذلك فى صميمة راجع إلى الطبيعة الجغرافية لتلك الآقاليم من حيث موقعها ومناخها وطبيعة أرضها وما يحوطها من بحار ويتخللها من أنهار فأرغمهم على أن يبتكروا من النظم

(٢) نفس المرجع ص١٨ ،

والتقاليد والقوانين ومبادئ الأخلاق ما أعانهم على البقاء فى أمن ورخاء ، وأعانهم على صد عاديات الغزلة المتربصين بهم ..

أليس ذلك كله راجعا إلى الطبيعة الجغرافية لتلك الأوطان ؟

بلى ، هو كذلك بغير جدال .. ولعل ما جاء فى كتاب : " الجغرافيا والسيادة العالمية [1] " ، الذى ألفه جيمس فيرجريف ، خير تأييد وتفسير لمبدأ التفسير الجغرافى للتاريخ كمبدأ مطلق ، فقد قال " : والاتجاهات التاريخية الكبرى لم تتأثر إلى حد كبير بالصفات المميزة للأفراد لأن الظروف الجغرافية على مر العصور أقوى أثرا من عبقرية الأفراد وأبعد مدى من المميزات الجنسية مالم تكن هذه المميزات وليدة عوامل جغرافية وهكذا بدأ التاريخ حين بدأ بفضل الظروف الجغرافية " ..

ثم علل ضرورة التفكير والعمل بقوله " : ولما كان [2] الحافز إلى التفكير فى اقتصاد الطاقة يكاد يكون معدما فى العروض الإستوائية فإننا نجد فيها أجناسا بشرية أكثر انحطاطا من غيرها من السلالات التى تسكن المناطق الأخرى بعد أن تقادمت العهود على ارتقاء السلالات الأخيرة وارتفاعها عن مستوى معيشة الحيوان .. ومن ثم يجب ألا ننتظر منها تاريخا أما فى العروض المعتدلة فبفضل وجود هذا الحافز واستمراره نرى الأجناس توالى تقدمها وتضيف لنفسها قوة على قوة .. وهذا يبين لنا السبب الذى يفسر الحقيقة التالية ، وهى أن تاريخ العلم هو فى معظمه تاريخ المناطق المعتدلة التى تقع على وجه التقريب بين خطى عرض ٣٠ ، ٦٠° " .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

(١) " الجغرافيا والسيادة العالمية " ، تأليف : جيمس فيرجريف ، ترجمة د علي رفاعة الأنصارى ، ص٢٧ (٢) نفس المرجع ص٢٧ ،

✡ وقال " باكل " بالتفسير الجغرافى للتاريخ وضرب لذلك العديد من الأمثلة لحضارات مختلفة كانت العوامل الجغرافية واضحة فيها غاية الوضوح ، إلا أنه جعل للعوامل الجغرافية أمداً تنتهى عنده ويضعف تأثيرها ، فقد " : أثر المناخ والطعام [1] والأرض والمظهر العام للطبيعة فى حياة كل جنس من الأجناس وغلبت عظمة المناظر الطبيعية فى الهند على عقل الهندوس وشجاعتهم وجنحت بهم نحو الخرافة والعبادة " .. " أما مناظر أوروبا الأكثر بساطة فلم تبعث فى الناس الخوف ويسرت نمو ميلهم إلى السيطرة على الطبيعة بدلا من عبادتها " ثم يضرب المثل [2] بالحضارة الأمريكية قبل كولبموس بوجه خاص فى المكسيك ووسط أمريكا إذ فى هذا الشريط الضيق من الأرض فقط وجدت فى النصف الغربى من الكرة الأرضية تلك الوحدة بين الرطوبة والحرارة الضرورية للنبات والحيوان والإنسان . وفيما بعد أخذت هجرة الأوربيين وإدخال المخترعات والإكثار منها تقلل من اعتماد الإنسان على الظروف الطبيعية " .

وعند تفسيره الجغرافى للتاريخ يجعل للعلم الطبيعى وهوالقائم أصلاً على المظاهر الجغرافية العامل الحاسم فى تطور الحياة الإنسانية مهما كانت عبقرية الأفراد ، فليس للذكاء الإنسانى فضل يذكر فى تاريخ الحضارة فضل نقل المعرفة عبر الأجيال ؛ فهو يقول : " إن السلوك [3] البشرى ولو أنه يبدو حرا حين ننظر إليه بالتفصيل إلا أنه يتضح حين ننظر إليه فى الجملة محدودا بقوى تخرج عن إرادة الفرد .. ففى الخضم العظيم للأمور الإنسانية ليس بالخصائص الفردية .. ففى الخضم العظيم للأمور الإنسانية ليس للخصائص الفردية حساب وليس للمؤرخ أن يشتغل بها .. وليس التقدم ثمرة عظماء الأفراد بل نتيجة تجمع المعرفة وانتقالها . وقد وجدت أنه لا يوجد تقدم فى الأخلاق ولا تحسن من عصر إلى أخر فى دوافع الإنسان ومشاعره .. بل العلم الطبيعى وحده هو الذى ينمو وهو الذى يغير رويدا رويدا من وجه الأرض " .

---

(١) المرجع السابق ص٢٧ . (٢) نفس المرجع ص٣٠
(٣) نفس المرجع صـ٣٠

ويتحدث "راتزل" ، عما للمناخ من أثر فى تنوع نشاط الإنسان ، وبالتالى فى مسيرته الحضارية ؛ فيقول : لا ترجع [1] صعوبة الحياة فى المناطق الاستوائية إلى الحرارة بقدر ما ترجع إلى المخاطر كالزلازل والأوبئة والزوابع والوحوش والحشرات . أما فى البلاد نصف الاستوائية فالحرارة نافعة إذ تؤدى إلى المعيشة خارج الدور وإلى الحياة الاجتماعية وإلى رغبة جنسية قوية وما يتبع ذلك من ميل إلى الفن والثقافة .. أما فى الشمال الأكثر برودة فإن الدأب على الصناعة والإنغماس فى العمل للطبقة الغالبة - إذا حق لى هذا التعبير - ولذة النشاط والعمل والكسب كل ذلك يفضى إلى نمو العلم أكثر من الفن - وإلى الثراء والفراغ .

هذا إلى أن الحياة داخل الدور تقود إلى ضرب من التحفظ البعيد عن الروح الاجتماعية كما يتميز التنافس النشيط نوعا من الفردية الشديدة " .

وفضلاً عن هذا فإن راتزل يجعل لبحار والأنهار دوراً كبيراً فى نشأة الحضارات وتطورها وتأثير بعضها فى بعض وبالتالى إلى التقدم والإزدهار .

ذلك هو مجمل الآراء التى ذهب أصحابها إلى تأثير الجغرافيافى نشأة الحضارات وتأثرها فى تنوع مظاهرها وتشابك عناصرها وتدافع مسيرتها ..

فما هى أذن نظرة العقاد إلى الجغرافيا كمبدأ أساسى من مبادئ تفسير التاريخ ؟

يقول العقاد عند تعليل أسبقية الحضارة الشرقية على الحضارة اليونانية : " إن الموقع [2] الجغرافى أنفع لنا فى المساعدة على تمحيص الروايات التاريخية التى لا تسلم - مع طول الزمن - من الخرافة ومن الإضافة أو من الخلط وسوء النقل والحكاية فإن للموقع الجغرافى مقتضياته التى نفهم منها ما يجوز وما يمتنع وما يحتاج إلى السند وما يستغنى عنه أو يكتفى مه باليسير " .

---

(١) المرجع السابق صـــ ٢٢

(٢) كتاب الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين صـــ ٤٧

وفى هذه العبارة الموجزة والمركزة يتضح لنا تصور العقاد إلى ما هية التفسير الجغرافى للتاريخ وضرورته .. فهو يوجب على المؤرخ أن يدرس الموقع الجغرافى الذى يريد أن يفسر به التاريخ دراسة شمولية تتناول كل خصائصه من حيث تضارسه ومن حيث قربه أو بعده عن البحار والأنهار ، ومن حيث درجته من خطوط الطول والعرض ، ومن حيث إمكانية الدفاع عنه .. كما تتناول الدراسة أيضا مبلغ اتصال الموقع الجغرافى بالحضارات أو الجماعات الإنسانية التى حوله ومدى إسهام هذه الجماعات أو الحضارات فى التأثير فى فكر أهله وأخلاقهم وصناعاتهم وثقافتهم ونظرتهم للحياة .

ومما نستبينه أيضا من هذه العبارة أن العقاد يدعو إلى الإستعانة بالتفسير الجغرافى استعانة نقدية . فهو لا يلغى التاريخ بمظاهره وأحداثه وشخصياته وما أسهمت به الشعوب فى تحقيق حصتها من الإمكانات البشرية أو الإنسانية بعامة .. العقاد لا يلغى التاريخ بكل تلك الخصائص الإنسانية لينشئ تاريخا جديدا عماده وأساسه العلة الجغرافية وحدها ..ولكنه يؤكد حقيقة تاريخية ونفسية معا فحواها أن :" الروايات التاريخية لا تسلم مع طول الزمن من الخرافة والإضافة أو من الخلط وسوء النقل والحكاية ".

وتلك هى الآفات التى ابتلى بها التاريخ فى كافة عصوره وأطوار هذه العصور

إذن فالعامل الجغرافى ضرورى فى هذه الأحوال كعامل نقدى به تصحح السير مما يكون قد شابها من خلط أو اضطراب وتشويه ، ومن ثم يمكننا أن نفهم ما يجوز وما يمتنع وما يحتاج إلى السند وما يستغنى عنه أو يكتفى منه باليسير

فالعقاد يستخدم مبدأ التفسير الجغرافى للتاريخ بمنهاج علمى موضون الحدود ظاهر الغاية والضرورة معاً ، فهو من ثم لم يصطنعه مبدأ عاماً مطلقاً يقسر به لظواهر الحضارية أو يرجع إليه أحوال الحضارة الإنسانية فى كافة مواطنها

ونستبين الاستخدام المحدد والضرورى لمبدأ التفسير الجغرافى للتاريخ عند العقاد

مما فسر به أثر الموقع الجغرافى لبلاد اليونان فى علاقاتها بالشرق وهى بين الاتباع والابداع ؛ فقد قال : " وموقع بلاد اليونان يبنئنا بالعلاقة التى توجد بينه وبين حركات الأمم فى أدوار هجرتها واستقرارها منذ فجر التاريخ .

فلم تنقطع علاقتها بالشرق فى هذه العصور إلا علاقة التلمذة المتتابعة على الثقافات المتتابعة فيه لا سيما الثقافية الروحية وثقافة النظرة الكونية العامة وتأتى بعدها ثقافة المعيشة المستمدة من الصناعة وعروض التجارة " . .

وبهذاالمبدأ يصحح العقاد أخطر وأجل مفاهيم الحضارة الإنسانية ونعنى به مفهوم العقيدة الدينية وما ينشأ عنها من فكر وثقافة ونظم اجتماعية . وربما قيل إن معنى هذا أن العقاد قد جعل من التفسير الجغرافى مبدأً مطلقا من حيث أنه الباعث للحضارة وما الإنسان سوى متقبل مسلوب الإرادة لا حيلة له فيما ترغمه عليه الأحوال الجغرافية .

ونقول رداً على هذا :

أولا : أن العقاد لم يستخدم التفسير الجغرافى للتاريخ إلا فى حدود الضرورة التى توجبه كعامل من عوامل النقد والتصحيح .

ثانيا : أن العقاد كان يؤمن بأن الإنسان هو العامل الحاسم فى المسيرة الحضارية فيجب من ثم الرجوع إليه عند تعليل أية حادثة أو ظاهرة على أن يحسب للعوامل الجغرافية حسابها ويعرف لها دورها بغير أن تستأثر هى بالحساب كله أو الدور كله وإلا تحجر الوجود الإنسانى فى عبودية فقدت الشعور وحيوية التصور . .

ولهذا يندد العقاد بالمؤرخين الذين يتجاهلون الإنسان حين يفسرون أحداث التاريخ وظواهره الحضارية ؛ فهو يقول :" أكثر غوامض (١) التاريخ يخلفها المؤرخون لأنهم ينظرون إلى التاريخ كأنه حسبة أرقام لإحصاء السنسن والأيام

---

(١) كتاب أبو الأنبياء العقاد - صـ ١٦٩ .

وكأنه سجل حوادث وأنباء ولوأنهم واجهوه على قاعدة واحدة وهى أنه وصف نفوس إنسانية وأن حوادثه وأنباءه ،معالمه ، ومواقعة وكل ما يحسب فيه من السنين والأيام إنما هو تبع لوصف النفوس الإنسانية لما بقى فيها غموض أو بقى فيه الغموض الذى يغمض علينا لسبب مجهول " .

وهنا تظهر أبعاد استخدام العقاد للمبدأ الجغرافى كأداة لتفسير ظهور العقائد السماوية فى مواطنها التى وجدت فيها دون غيرها من المواطن والأقطار .

وقد جعل الكيان الإنسانى كفطرة وشعور وتصور وإرادة ، العامل الفَعَّال والحاسم الذى ترد إليه أحداث التاريخ ومظاهره ؛ فهو يقول :" لم اختص الله [1] الأمم السامية بالرسالات النبوية ، لم لم تظهر هذه الرسلات فى الهند أو فى الصين أوفى القارة الأوروبية ؟ لم كانت هذه الرسالات هى الدور الذى تهيأت له أمة واحدة فى وسط العالم ؟ أمة وسط كما نعتها القرآن الكريم ؟

تلك أسئلة غامضة تظل على غموضها حتى ننظر فى الأحوال النفسية التى يكون عليها الإنسان بين الحضارة والبداوة ولا تهيئه لها الحضارة على انفراد ، ولا البداوة على إنفراد بل لابد فيها من التقاء الشعورين وإمتزاج المجتمعين ولم يحدث قط أنهما التقيا وامتزجا على هذا النحو فى غير البلاد التى قامت عليها الحضارات الأولى وظلت زمنا طويلا جامعة بين الصحراء والمدينة والأقطار المتحضرة كأنها خلقت للنهوض بهذه الأمانة ثم نهضت بها ونشرتها فى جميع أنحاء العالم فهى دورها الأكبر بين سائر الأدوار التى توزعتها الأمم والعصور "

ثم يتساءل العقاد تساؤلا تفسيريا فيقول :" لماذا كانت [2] مدن القوافل أو المدن القريبه من الصحراء أصلح البلاد للرسلات النبوية ؟

وهنا يؤكد العقاد العامل النفسى على أنه العامل الحاسم فى نشأة الحضارة

(١) المرجع السابق صـ ١٦٩ (٢) المرجع السابق صـ ١٧٠

وتطور مظاهرها وتأصيل قدرتها على الصمود والمطاولة ؛ فيقول فى تأكيده للعامل النفسى : " إنها (أى مدن [1] القوافل) صلحت لأن الأحوال النفسية اتى تتوافر فيها لا تتوافر فى حضارة العمران المتصل ولا تتوافر فى الصحراء المنعزلة . ولا تتم أسبابها الحسنة ولا أسبابها السيئة فى بيئة أخرى كما تتم فى المدينة حولها صحراء . فأما القطر الذى يتصل عليه العمران فهو مختلف من هذه الناحية . وأما الصحراء التى تنعزل عن العمران فهى من هذه الناحية مختلفه كذلك " ..

ثم يعلل أسباب كل جانب فيقول : " إن القطر (٢) الذى تتصل فيه الحضارة وتتلاحق فيه مظاهر العمران يعطينا المشترعين والكهان ولا يعطينا الأنبياء والمرسلين أو الرسل المجاهدين . ففى هذا القطر يسرى العرف وترتقى العادات الاجتماعية ويستقر نظام القانون والمعاملة . وقد يتقدم أهله فى إدراك العقائد الدينية من طريق تقدم المجتمع وتقدم الثقافة ومعاهد التعليم .. فليست بلاد العمران المتصل مهداً صالحا للرسالة والنبوة .. فما هو حال الصحراء التى انقطع ما بينها وبين العمران كل الانقطاع ؟

إن لم يكن شأنها فى أمر الرسالة النبوية شأن العمران المتصل فما هو بأصلح منه ولا أيسر .. فليس فى الصحراء التى انقطع ما بينها وبين العمران من شريعة غير شريعة العدوان . ولا عمل للقبائل فيها غير الإغارة والاستعداد لدفع الغارات من الآخرين . وربما تفاهموا على آداب الجوار والمهادنة كأنها التدبيرات العملية التى لا ترتقى إلى طبقة الفضيلة والعقيدة . وربما تحلى بعض الناس فيها بمناقب الشجاعة والسخاء وما إليها من مناقب الميادين وشمائل السياسة والرئاسة . أما أن يتعارف المقاتلون والمنقطعون عن العمران على الحقوق والفضائل وخلائق الصلاح والإستقامة التى ينشرونها باسم إلا له ويستمعون وحيها من نذور السماء فذلك من وراء التخيل فضلا عن التفكير " .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٠ ، (٢) نفس المرجع ص١٧٠ ،

إذن فليس هناك مكان أصلح للرسالات الإلهية من : المدينة حولها الصحراء .. وذلك موقع جغرافى بغير شك ينفرد أهله هو الآخر بطبائع نفسية وأخلاقية تختلف اختلافا بينا عن : " أهل القطر الذى تتصل فيه الحضارة " .. وعن : " أهل الصحراء التى انقطع ما بينها وبين العمران : " .. وإنه لمدينة القوافل ..

فما هى الخصائص النفسية والأخلاقية التى جسدها سكان مدن القوافل حتى كانت أهلا للرسالات الإلهية ؟

ما هى الخصائص النفسية البدوية التى تمثلت فيها ؟

وما هى الخصائص النفسية الحضارية التى تمتزج بالبدوية امتزاجا تتكون منه طبيعة نفسية متميزة وإن كنا لا نخطئ فيها خصائص الجانبين ؟

يصف العقاد الخصائص النفسية البدوية فيقول :" لابد [1] من النخوة الحية التى تتوقد بما تعتقد وتحس فى أعماقها أن العقيدة حياة تحياها وليس قصارها أنها تدبير منه أو قانون من الدولة .. ولابد من بساطة التصديق الذى لا يعرف التردد ولا يحسن اللف والدوران وتخريج الكلمات وتزييف الشعائر والأحكام .. لابد من الاستغراق فى الإيمان من وجهة واحدة لا تتمحل ولا تتأول ولا تجعل العقيدة أجزاء متفرقة تتوزعها النصوص والفتاوى وتتعاورها المتون والشروح .. لابد من الجمع بين سهولة التغيير وصعوبة التغيير فى وقت واحد . وهذه الخصلة تتيسر للبداوة ولا تتيسر فى الحضارة . فليس أكثر من التغير فى حياة البدوى لأنه أبداً على عزم السفر والانتقال وليس أكثر من الثبات فى حياة البدوى لأنه محافظ على عهد الآباء والأجداد ينوط الفخر كله بما بقى من التراث القديم " ..

ثم يقول العقاد عن نصيب الحضارة فى مدينة القوافل " : أما حصة [2] الحضارة فهى أصول الاستقرار وقواعد الشريعة وحماية المعاملة وأسباب سخط

(٢) نفس المرجع ص ١٧٥ (٢) المرجع السابق ، ص ١٧٥

والثورة والدعوة إلى التغيير " ..

من كل ما سبق يتضح لنا أن العقاد لم يذهب إلى ما ذهب إليه فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع من تسلط الأحوال الجغرافية تسلطا مطلقا على فكر الإنسان وشعوره وخياله ومزاجه النفسى .. إذ لوصح ذلك على إطلاقه لكان معناه تشابه جميع أبناء الموقع الجغرافى فى الملكات العقلية والمنحنى الشعورى والتركيب النفسى .. وذلك هو التزييف .

ومن يدرى فربما عكفوا على صناعة واحدة أو حرفة واحدة تحفظ عليهم حياتهم وتمكنهم من الاستمرار فى البقاء كأى كائن حى أخر .. ولكننا رأينا أن العقاد قد استخدم المبدأ الجغرافى فى تفسير التاريخ فى حدود معينة كان الإنسان فيها هو العامل الحاسم والمتحكم فى نشأة الحضارة وإبداع ظواهرها وتصحيح مسارها .

ويؤكد الدكتور مصطفى الفقى أن هناك علاقة حضارية بين الشعوب تختلف باختلاف الموقع الجغرافى مما كان سببا فى تنوع الحضارات والعلاقة الإنسانية والسياسية بين شعوبها التى ربما نشب الصراع بينها من جراء هذا التنوع .. "فالواقع الجغرافى له تأثير فاعل فى وضع الإطار العام لحركة التاريخ فدول التخوم العربية تأثرت من الناحية الجيوبوليتيكية بالدول المجاورة مثل تركيا وإيران والقرن الإفريقى ، كما أن ثقافتها العربية امتزجت بقدر لا بأس به من تلك الدول . وحين نتحدث عن النموذج المصرى فإننا نشير إلى أبعاد هويته المركبة التى تحكمت الجغرافيا فى رسم ملامحها . فالواقع الإفريقى البحر متوسطى هو

الذى أعطى لمصر نافذة على هاتين الثقافتين إلى جانب ثقافتها العربية الإسلامية التى تمثل المصدر الأساسى للمكون المصرى الحالى . كما أن عزلة شريط الوادى فى صعيد مصر ودلتا النيل فى الشمال جعل الصحراء المحيطة بهما سياجا أوحى للمصريين بمركزية الحكم وهيبة السلطة " .

ويرى الدكتور مصطفى الفقى أن :" الاقتراب الجغرافى [1] بين الشمال الإفريقى والجنوب الأوروبى ، خصوصا بالنسبة لدول مثل فرنسا وأسبانيا وإيطاليا قد خلقت نوعا من المزاج البحر متوسطى لدى العرب المغاربة وهو الذى انعكس على ثقافتهم المتفتحة ورؤيتهم الهادئة للأمور وقدرتهم عى التفكير وفقا لنهج سريع الفهم لدى الغرب ، بل إننى أزعم أن الخطاب السياسى للشمال الإفريقى يلقى حفاوة واهتماما لدى المعنيين بحوض المتوسط والعلاقات الإفريقية والأوروبية . وأضيف إلى ذلك أن قدرا كبيرا من فهم الغرب للحضارة العربية قد وصل إليه من خلال المشاهد التاريخية والوقائع الاجتماعية فى حياة المغرب العربى بحكم الجوار الجغرافى والاتصال التاريخى " .

ولقد أدى التواصل الجغرافى التاريخى بين معظم دول الشمال الإفريقى وبين دول أوروبا المطلة على شاطئ المتوسط مما جعل تمسك المسلمين بالإسلام وطقوسه شديدا ودرجة استجابتهم للوجود الثقافى الغربى مناسبة .؛ ولعل ذلك الصراع [2]بين طرفى المعادلة هو الذى أدى إلى ميلاد حركة التطرف الإسلامى التى عانت منها الجزائر ودفع شعبها ثمنا فادحا " .

(١) كتاب : العرب الأصل والصورة ، تأليف د / مصطفى الفقى ص ٩٠

ويمكن القول أن قد كان لكل موطن من مواطن الحضارة الإسلامية دائرة جغرافية خضارية . فهناك :" تأثيرات [٣] حضارية إيرانية على العراق والخليج ، وتأثيرات ثقافية إفريقية على اليمن وعُمان ، وتأثيرات اجتماعية تركية على سورية ولبنان .. وتأثيرات لغوية أوروبية فى دول الشمال الإفريقى فضلا عن مصر فى الوسط حيث تمثل حضارة ملتقى تمتزج فيها العروبة بالإسلام بالإفريقية بالمتوسطية فى سبيكة واحدة . وهذه كلها مظاهر إيجابية فى عالمنا المعاصر .. بل إننا ندعى مرة أخرى أن معدلات التقدم فى ظل التعددية البشرية قد تكون أعلى منها من مجتمعات أخرى تتميز بالتوحد الكامل والنقاء الشامل "

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

تلك أبعاد التواصل الجغرافى التاريخى وأثره فى الارتقاء بالحضارة ..

فالجغرافية عامل ضرورى ولكنها ليست بالعامل الوحيد وإلا صرنا إلى تزييف لا مبرر له ولا فائدة ترجى منه .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

---

(١) المرجع السابق صـ ١٧٠ ، (٢) المرجع السابق صـ ١٧٠ ، (٣) نفس المرجع صـ

التفسير الجنسى للتاريخ

التفسير الجنسى بين الشعوب بعيد الأصداء فى تاريخ الحضارة الإنسانية ؛ فما من جنس من الأجناس إلا اعتقد أنه خير الأجناس جميعا فى دمه وعقيدته وعقله وفكره .. وأن غيره من الأجناس أو الشعوب أقل منه فى تلك الخصائص ، بل أقل منه فى مرتبة الإنسانية أو الآدمية

ولقد أصبح ذلك التفاخر عقائد أسطورية يؤمن بها كل شعب ويدافع عنها بكل حجة حتى ولو كانت حجة النسب الإلهى أو إشهار سلاح الحرب والقتال .

وتوارث الناس عقائد التفاخر الأسطورى بالأجناس أجيال بعد أجيال حتى صار من التقاليد الوطنية المقدسة لكل شعب بها يفسر وجوده، ووجود من حوله من الشعوب ومدى أحقيته فى الانتساب إلى الزمرة الآدمية

ويبدو أن نزعة التفاخر الجنسى كانت ثقيلة الوطأة ـ ولا زالت إلى اليوم ـ عند بعض الشعوب حتى أنها غشت عقول كثير من المفكرين والفلاسفة منذ القدم فصارت من االأسس أو المبادئ الرئيسية التى بها يفسرون وجودهم أو تاريخهم وكذلك وجود غيرهم وتاريخة .

والحق أن طبيعة الفكر الإنسانى أو الحضارة الإنسانية بعامة لا تستقيم وهذا التزييف البغيض .. ولذلك فما نهضت دعوة التفسير الجنسى للتاريخ إلا وجدت من يعارضها ويد حض دعاواها ويفضح تهافتها .. وكان ذلك هو القصاص العدل ليستقيم ميزان التواصل والتعارف بين أبناء آدم .

فإذا قال سفر النكوين (من كتاب العهد القديم) :" ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته " .. فإن بولس الرسول يرد عليه بقوله ." لا يهودى ولا يونانى ولا عبد ولا حر فإنهم جميعا واحد فى المسيح يسوع .. وإذا قال أرسطو إن " : جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد لكى تكون عبيدا "

فإن شيشرون يرد عليه بقوله : " الناس يختلفون فى المعرفة ولا يوجد جنس من الأجناس لا يستطيع الوصول إلى الحكمة إذا كان العقل له رائدا " . .

ومن المفكرين من دفع الشعوب السوداء بالانحطاط ، ومن هؤلاء رينان الفرنسى وهيوم الإنجليزى الذى قال : " إننى أميل [1] إلى الاعتقاد بأن الزنوج أحط بالطبيعة من العناصر البيضاء " . . ولكن لورد أوليفر يرد عليه بقوله : " إن الزنوج يتقدمون [2] بسرعة وهذا ينفى كل ما قيل فى العالم عن أن الزنوج غير قادرين على التقدم " .

ولقد توسع " جوبينو " وهو وريث التقاليد الأرستقراطية البورجوزية ، فى كتابه : " تفاوت أجناس البشر " ، فى تفسير التاريخ على أساس المبدأ الجنسى ، فقد أوضح : " أن كل شئ فى طريق [3] الاختراع الإنسانى كالعلم والفن والحضارة . أي كل ما كان عظيما وشريفا ونافعا على الأرض يشير إلى أصل واحد ويتفرع عن جذر واحد : هو الجنس التيوتونى . وأكبر الظن أن هذا النوع العظيم من الأسرة الإنسانية يرجع إلى أصل يختلف تمام الاختلاف عن الجنس الأصفر والأسود ، فقد نشأ عن نسل خاص من الناس حكمت فروعه المختلفة كل منطقة متحضرة فى العالم ، إنه الجنس الذى يفسر التاريخ " . .

وسارعت جماعة من المفكرين إلى اعتناق نظرية جويبتر وتأييدها بما يعتسفونه من ادعاءات وكان من هؤلاء : البروفيسور فريمان ، والبروفيسور ترتشكى . ثم جاء هوستن تشمبرلين الإنجليزى الذى هاجر إلى ألمانيا ، فحاول فى كتابه : " أسس القرن التاسع عشر " ، أن يثبت أن : " التاريخ الصحيح [4] يبدأ من اللحظة التى قبض فيها الألمان بيد قوية على ميراث القدماء " . .

---

(١) كتاب : خرافة الأجناس البشرية ، تأليف : جوان كوماس ، صـ١٦ ، (٢) نفس المرجع صـ١٧
(٢) نفس المراجع صـ١٧ ، (٤) كتاب ، مباهج الفلسفة ، تأليف : ول ديورنت ، ترجمة : أحمد فؤاد الأهوانى ، صـ٢٧ ، (٥) نفس المرجع صـ٢٧ ، ٢٨

وبناء على هذا التصور فقد اعتقد تشميبرلين : " أن العبقرية (*) إذا ظهرت فى إنسان فهذا دليل على الدم التيوتونى " .. وفضلا عن هذا فإنه حاول أن يثبت السمات التيوتونية لا فى صفات الجوارح فحسب بل فى اللهجات أيضا . فقد توهم أن بوجه الشاعر الإيطالى " دانتى : :" ملامح جرمانية .. ومع أنه لم يكن متأكدا من أن المسيح ألمانيا إلا أنه كان علي ثقة من أن كل من يزعم :" أن المسيح كان يهوديا [1] فهو إما جاهل أو مخادع " ..

✡ ولكن التفسير الجنسى للتاريخ على أساس الجنس التيوتونى لا يعجب " ماديسون جرانت " لأن الجنس الأصلى الذى ينبغى أن يفسر التاريخ على أساسه هو الجنس الشمالى (النوردى) .. ومن ثم فإن جرانت قد بسط آراءه وحججه فى كتابه " : زوال الجنس العظيم "، وذلك فى محاولات مضنية لإثبات أن الجنس النوردى هو باعث الحضارة وخالق مظاهرها فيقول :" إننى أرفض الجنس التيوتونى ، باعتبار أنه خليط من أجناس مختلفة لم تمتزج بعد لتكون وحده . ولذلك أقصر حجتي على ما أسميه الجنس الشمالى Nordic، الذى يظهر بوضوح فى أيامنا هذه فى أولئك الألمان المنحدرين من أصل بلطيقى وفى أولئك الانجليز والأمريكان المنحدرين من نسل الأنجلو ساكسون . غير أن هذه السلالات فمتنوعة حديثة أما الجنس فقديم قدم التاريخ . فالشماليون يظهر أولا أنهم السكايا Sacae، الذين أدخلوا اللغة السنسكريتية إلى الهند وكانوا غزاة من البيض انحدروا من الشمال واخترعوا نظام الطبقات لتحريم التزواج من غيرهم حتي لا يهبطوا بمستوى نوعهم . ولفظة طبقة Casre ، تعنى اللون ووظيفتها حيوية لا اقتصادية ، وغايتها حماية الدم لا احتكار الثروة .. ثم نجد بعد من الجنس الشمالى Cimmerians الذين تدفقوا من القوقاز إلى فارس والآخيين والفريجيين والدوريين الذين غزوا آسيا الصغرى واليونان والأومبريين والأوسكان الذين اجتاحوا إيطاليا .. وحيثما ذهبوا فهم رجال الحرب والمغامرين ورواد البحار

(١) نفس المرجع صـ ٢٧ ، ٢٨

وقرصان الشمال Viking، والحكام والمديرين والمنظمين .. وهم مختلفون اختلافا عظيما عن الأجناس الأوروبية الأخرى - الجنس الألبى الهادئ المسالم ، وجنس البحر الأبيض الوجدانى ذي المزاج الحاد القلق والكسول . وهذ التباين أوضح فى إيطاليا ، فالإيطاليون الجنوبيون وهم من جنس البحر الأبيض منحدرون فى الغالب من أنواع العبيد من كل جنس وعلى الأخص من البلاد الجنوبية والشرقية حيث استوردهم الرومان أيام الإمبراطورية للعمل فى مزارعهم الواسعة .

أما الإيطاليون الشماليون فهم من جنس أرقى لأنهم فى الغالب من نسل الغزاة الألمان من زمان قيصر إلي شرلمان .

وهؤلاء القوم هم الذين أحدثوا النهضة فى فلورنسا ثم حملوها معهم إلى روما .. وقد كان دانتى ، ورفائيل ، وتيتيان ، وميخائيل انجلو ، وليوناردو دافنشى ، من الجنس [1]الشمالى ..

أما فى اليونان فقد تزاوج الآخيون الشماليون بالسكان الذين انتصروا عليهم فأنتخبوا الأثينيين البارعين أصحاب عصر بركليز " .

ثم يصف التوسع الاستعمارى للجنس الشمالى فيقول :" وإذا نظرنا إلى [2] الفروسية والفتوة والإقطاع والتمييز بين الطبقات والاعتزاز بالجنس والتمسك بالشرف الشخصي وشرف الأسرة والمبارزة وجدنا أنها عادت خلال شمالية ، هذا الجنس المتفوق نفسه هو الذى انتصر على فرنسا وصقلية وانجلترا وهو الذى غزا باسم الورنجيين Varangians، وأخضع وحكم أهلها حتي سنة ١٩١٧ .. وهذا الجنس نفسه هو الذى استعمر أمريكا واستراليا ، ونيوزيلند ، وهو بعينه الذى فتح أبواب الهند والصين للتجارة الأوروبية ووضع مراكز الحراسة فى كل ميناء آسيوى كبير . وهذ الصنف من الرجال هو الذى يتسلق الجبال ويتخذ من الألب ملاعب ويذهب فى رحلات لا جدوى منها إلى القطبين " ..

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ ، ٢٨ ، (٢) نفس المرجع صـ ٢٨

ثم ينحرف " جرانت " عن آراته هذه إلى حد ما يقول :" فجنس البحر المتوسط [1] مع أنه أضعف فى قوته البدنية من كلا الجنسين الشمالى والألبى ، فهو فى أكبر الظن أرقى منهما فى الأمور العقلية وامتيازه فى ميدان الفن ليس موضع شك .. وقد جاءت الثقافة فيما يختص بأوروبا الحديثة من الجنوب لا من الشمال ويتصل عالم البحر الأبيض القديم بهذا الجنس الذى خلق حضارة قدماء المصريين الطويلة الأمد وامبراطورية كريت المينوية المشرقة وامبراطورية إتروريا الغامضة (سلف روما ومعلمتها) والمدن والمستعمرات اليونانية المنتشرة على سواحل البحر الأبيض وقوة فينيقيا البحرية والتجارية ومستعمرتها ذات البأس قرطاجنة ..وإلى هذا الجنس أيضا يرجع الفضل الأكبر فى حضارة أوروبا القديمة "

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

✡ ثم يحاول راتزل تصحيح النظرة الجنسية فى تفسير التاريخ وذلك فى ضوء نظرته الجغرافية ـ النسبية ـ للتاريخ . فعنده أن :" الأجناس [2] الثلاثة الأوروبية فروع لجماعة واحدة أصلية جاءت من الشرق وكانت فى بدايتها تشبه الجنس الألبى ولكنها حين انتشرت شمالا وجنوبا تشكلت إلى جنسين مختلفين " : شمالى ،" وجنس البحر المتوسط " نتيجة ظروف جغرافيا واقتصادية .

وتنشأ فوارق الجنس من فوارق البيئة ولذلك من العسير أن يقال إن عامل الجنس هو العامل الحاسم فى التاريخ .. وسرعان ما تكتسب الشعوب الشمالية مميزات الشعوب الجنوبية حين يعيشون عدة أجيال فى المناطق الحارة ويميل سكان الجبال فى جميع أنحاء العالم إلى الطول بصرف النظر عن جنسهم .

وقد لاحظت أن أولئك الألمان الذين طالت معيشتهم فى جنوب البرازيل قد فقدوا قوتهم " الشمالية " .. وهم يشبهون الإنجليز فى جنوب إفريقيا فيجلسون تحت شجرة ويستأجرون رجلا ملونا ليشتغل لهم . إن المميزات الجنسية على مر

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨ ، (٢) نفس المرجع صـ ٣٣

الزمن ثمرة البيئة اجغرافية " . .

ثم نتساءل : ما هو موقف العقاد من التفسير الجنسى للتاريخ ؟

نقرر من واقع الدراسات التاريخية التى قام بها العقاد ، ما اتصل منها بدراسة البطولات والعبقريات التارخية . . وما اتصل بدراسة أطوار الحركات التاريخية . . وما اتصل منها بدراسة العبقرية الإسلامية ودورها فى المسيرة التاريخية للحضارة الإنسانية بعامة - نقرر بناء على تلك الدراسات كلها أن العقاد لم يكن من القائلين بالتفسير الجنسى للتاريخ . ومن ثم فإنه لأمر منطقى ألا يكون من مؤيدي العصبية العنصرية التى تفضل جنسا على سائر الأجناس ؛ ولكنه كان على النقيض من ذلك فقد هاجم مفتريات العنصرية وذرائعها التى اختلقتها ووضعت لها من الأسس الاجتماعية والتاريخية والبيولوجية ما وهمت أنها تؤكد الامتياز العنصرى كحقيقة بشرية مطلقة لا شبهه عليها

وما دارت الدعايات والمذاهب ، وما رصدت البحوث والدراسات إلامن أجل إثبات التفوق العنصرى للجنس الآرى أو الجنس الأبيض بعامة وذلك لتبرير التآمر الاستعمارى المدير لشعوب الأرض . . فقد زعم قادة الاستعمار وزعمائه والمحركين لسياسته أن الجنس الآرى أو الدم الآرى أو العبقرية الآرية هى مشعل الإنسانية فى كافة مواطنها : هى أساس الحضارة المصرية القديمة . . وكذلك الحضارة البابلية ، والآشورية ، والهندية ، والصينية ، والحيثية ، واليونانية ، والرومانية ، وكذلك الحضارة الأوروبية فى قديمها وحديثها .

وما هو أبعد من ذلك فى السخف والضلال أن تستكثر العنصرية الأوروبية على السيد المسيح أن يكون ساميا أو آسيويا ، فاختلقوا حوله من الأساطير وأضفوا عليه من الملامح الجسدية ما جعله آريا خالصا . ومن ثم فقد فاضل دعاة العنصرية الأوروبية بين الشعوب على أساس تواجد العنصر الآرى بها . . بل

(١) نفس المرجع صـ ١٨ .

فاضلوا بين كل شخص وآخر بنسبة ما فى عروقه من دم آرى اختلقوا له الخصائص والمميزات . ولهذا جاء تفنيد العقاد للنزعة الآرية الاستعمارية فى ادعاءاتها وإفتراءاتها بالحجة التاريخية الدامغة والبرهان المنطقى الذى استخلصه من سجل الوقائع التاريخية للمسيرة الحضارية . .

فالواقع التاريخى يسجل بما لا يترك ثغرة للتمحل أو التأويل : أن الجنس الآرى كسائر الأجناس التى خلقها الله لا يمتاز عليها فى شئ من بسطة الفكر وتوافر الشعور . .

فعلى القائلين بالآرية أن يتأكدوا أولا من تاريخ القبائل الآرية : أين كان مهدها ؟ وكيف تدافعت هجرتها ؟ وبمن اتصلت من شعوب الأرض ؟ ومقدار ارتقائها الحضارى قبل أن تتصل بها وبعد أن اتصلت بها ؟ وهل كان لها من العبقرية ما يعينها على الاكتفاء الذاتى الحضاري فتستطيع أن تستغنى عن الحضارات الأخرى وأن تعيش بمعزل عنها أم لا ؟

ولمواجهة هذه التساؤلات فإن العقاد يدلى بالحجة التى تظهر تهافت التفسير الجنسى للتاريخ وسوء نية القائلين به والمروجين له ؛ فهو يقول : " إن الآريين [1] الذين استقروا فى القارة الأوروبية وراء بلاد اليونان إلى أقصاها غربا وشمالاً قد عاشوا مئات السنين على همجيتهم الأولى فلم تنفعهم مزايا الآرية فى ابتداع ثقافة خاصة تنتسب إليهم ولا فى اقتباس ثقافة من الشرق بعد ارتقائه وامتداد عمرانه لأنهم فارقوه وانقطعت صلات العلم والتجارة بينهم وبينه . . فليست الآرية إذن منبع الثقافة اليونانية وسر الامتياز والتفوق الذى يخصهم به خلفاؤهم من الأوربيين المحدثين ولكنها الصلة بالشرق والاستفادة منه والتلمذة عليه ميزهم بها موقعهم الجغرافى فرجحهم على سكان المواقع النائية من إخوانهم الآريين

(١) كتاب الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين صـ ٤٩

وقد نشأ عن الدعوة الآرية قول الأوربيين إنهم خلقوا للمعرفة والعلم حبا فى المعرفة لذاتها والعلم لذاته .. أما الشرقيون بعامة فما خلقوا إلا لطلب المنفعة الموقوتة فحسب ، وذك يرجع إلى وضاعة أرومتهم الأولى التى منها نشأوا وعليها تشعبوا . وقد أورثهم ذلك ضعف الهمة وركود الإرادة ، وقصور العقل عن أن يتشوف أو يتطلع إلى الآفاق السامية من مراتب الفكر والشعور .

وفى هذا يستكمل العقاد جحته بتهافت التفسير الجنسى للتاريخ ؛ فيقول عن افتراءات النزعة الآرية وخبث مقصدها : " وهذ الرأى يروج [1] بين الأوربيين بغير تمحيص ولا مناقشة لانه يعجبهم ويرضى غرورهم ولأنه يميزهم على الأمم الشرقية باشرف المزايا الإنسانية ويرضى مصلحتهم لأنه يسوغ لهم استعمار الشرق واستغلاله فى عصر الاستعمار رالاستغلال "

ثم يفند فكرة الامتياز العقلى فيقول :" . . .ولكن الطريف [2] فى الفكرة أنها فهى نفسها ليست من الأفكار الفلسفية أو العلمية ، التى تخلو من المنفعة والتسليم بغير سبب معقول . فإن العقل المطبوع على الفلسفة والبحث المجرد لا يقبل أن يتركب العقل الإغريقى طبعا وأصلاً على غير التركيب الذى استقر فى السلالات البشرية الأخرى ولا يستريح إلى هذا الحكم المعتسف بغير علة يرد إليها هذا الاختلاف العجيب فى أصل التركيب .

والواقع أنه لا اختلاف فى أصل الطبيعة بين العقل البشرى فى الإغريق والعقل البشرى فى السلالات الشرقية التى ذكروها .. وإنما يقع الاختلاف لأسباب موضوعية تجوز على الإغريق كما تجوز على المصريين والبابليين والعرب والفرس والهنود " .

إذن ، فما هى الأسباب الحقيقية التى تكمن وراء الامتياز الظاهر للإعريق فى

---

(١) كتاب إثر العرب فى حضره الأوربيه ص ٨٤ ، (٢)نفس المرجع ص ٨٥

الفكر الفلسفى حتى أصبح من سماتهم التى شهروا بها ؟ مطلقاً وهل كان امتيازا مطلقا ، أم كان امتيازا محكوما بأحوال ومقتضيات يصح أن يتغير بتغيرها ؟

يقرر العقاد تصوره لذلك الامتياز بحجة حضارية يؤكدها المنطق كل التأكيد معتمدة فى علتها الأولية على التفسير الجغرافى ؛ فهو يقول : " وإنما امتاز الإغريق بالبحوث الفلسفية فى زمن من الأزمان لسبب واضح هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة . .[1]

وهى لم تكن مباحة لهم لمزية أصيلة فى طبيعة التركيب كما وهم القائلون بهذا الرأى المتعجل العسوف ، ولكنها أبيحت لهم لأن بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها ملك قوى وكهانة قوية . ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت فى مصر وبابل لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين .

. فالبلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة ، وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث فى أصول الأشياء وحقائق التكوين . . وتتولى شئون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها . فلا يجوز الافتيات عليه وإلا كان المفتئت كالمعتدى على نظام الدولة ومحراب العبادة . . ومتى طال الأمد بهذه الكهانات جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبستها معلوماتها بلباس الأسرار والطلاسم وابتعدت شيئا فشيئاً من منطق البحث الحر إلى نطاق المحفوظات والمأثورات . .

ولو نشأ لليونان دولة كهذه الدولة وكهانات كهذه الكهانات لما اجترأوا على التعرض لمسائل الخلق والخالق وطبائع الكون ومكونه بين سواد الناس وجمهرة النظارة ويسمعهم من شاء منهم بلا رقيب ولا حسيب " . ثم يبطل دعوة الآرية

(١) بالمرجع السابق صـ ٨٥

بشهادة من العصور الوسطى التى هى أقرب إلى الذاكرة الأوروبية الحديثة ؛ فيقول :" إذا حدث للأوروبيين [1] ما حدث فى الشرق حين قامت فى بلادهم الكهانات القوية وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث فى حقائق الدين وأسرار الطبيعة وقوانين الوجود لبطلت الفلسفة والدراسات العلمية فى القرون الوسطى وحيل بين الناس وبينها إلا بإذن من رجال الدين فى حدود النصوص المقررة كما كانوا يفهمونها ويبيحون فهمها .. واستطاعت الكهانة الأوروبية أن تفعل ذلك وهى حديثة العهد لم تبلغ من العراقة مبلغ الكهانة المصرية أو البابلية " ..

وحين رفض العقاد التفسير الجنسى للتاريخ وهاجم التعصب العنصرى أياً كانت حججة ودفوعة فإنه فى نفس الوقت بذل غاية الجهد وقدم أقصى ما يمكن تقديمه من بينات فى دحض كل اتهام قيل فى الأمة العربية أو أشيع عن الحضارة الإسلامية .. والمبدأ الذى استنه لنفسه وفكره واصطنعه ميزانا من موازينه النقدية هو ما جاء فى قوله:" لا نريد [2] أن نمحو فضلا لصاحب فضل ولا أن نبخس حقا لصاحب حق ولابد أن نبطل احتكار المزايا الإنسانية على أناس لكى ننقل هذا الاحتكار إلى أناس اخرين " .

ثم حدد غايته بقوله :" كل ما نريده أن ندفع شبهات القصور الأبدى المفترى على أمة عريقة حية كان لها فضلها العميم على الإنسانية ويرجى أن يكون لها فضل مثله أو يفوقه على أجيالها المقبلة وهى فى مقامها الأوسط بين القارات وبين العقائد والثقافات " .

لكن لابد من وجود الإختلاف والتفاضل بين الأمم ، فأى نوع من الاختلاف كان يؤمن به العقاد ؟ وأى تفاضل كان يزكيه ويعترف به ؟

---

(١) المرجع السابق صـ ٨٦ ، (٢) كتاب : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين صـ ١١٣

وإلى أى مدى جاء إيمانه وتزكيته واعترافه ؟

يقول العقاد : " فلا نكران [1] لاختلاف الأمم فى التفكير والسلوك وإنما ينكر الباحث المنصف أن يعزى هذا الاختلاف إلى أسباب أصلية ينفرد بها عنصر من عناصر البشر دون سائرها وينصف الأجناس جميعا حين يعزو كل مزية إلى أسبابها الطبيعية التى تتأثر بها كل أمة تعرضت لمؤثراتها ولا يقصر مزية من المزايا على قوم يحتكرونها فى جميع الأحوال"

ولعل أمة من الأمم فى العالم كله لم تنل مثلما نالت الأمة العربية من اتهام فى أصالتها ورسالتها الحضارية .. ومن اتهام فى عبقريتها ومدى قدرتها على إغناء الحضارة الإنسانية روحيا وفكريا وثقافيا وعلميا ..

ولعل عقيدة من العقائد الدينية لم تنل من طعنات الحاسدين لها والناقمين عليها والمتربصين بها مثلما نالت العقيدة الإسلامية ..من أجل هذا نهض العقاد فى أصالة واقتدار على إدراك الحقيقة من بين ركام الزيف والتظليل الذى زيفه المزيفون وضلل به المضللون من المفكرين الغربيين خاصة .. وكان أول ما عمله أنه جمع المطاعن أو المثالب التى اتهمت بها الأمة العربية ليكون منها أركان قضية الافتراء التاريخى الكبرى .. فقال :

" كان يقال عن العرب إنهم بعثوا بالدين ولم يبعثوا بالدنيا ..

" وكان يقال إنه لا يفلح عربى إلا ومعه نبى ..

"وكان يقال إنهم لا يصلحون فى دولتهم وفى غير دولتهم إلا محكومين ..

" وقالوا إن العرب لا يحسنون صناعة الحكم ولو لا ذلك لما خرجوا من الأندلس بعد الغلبة عليها عدة قرون ..

---

(١) كتاب : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين صـ ١١٧

" وقالوا إنهم لا يحسنون فنون الحضارة ولولا ذلك لكان لهم فن جميل غير نظم القصيد . .

" وقالوا إنهم لا يحسنون من أعمال المعاش غير ما تعودوه فى البادية من رعى الإبل والماشية . .

ويمكننا أن نوجز هذه الاتهامات الرئيسية فى ثلاثة أركان هى :

أولا : أن الجنس العربى غير مؤهل للإسهام الحضارى

ثانيا : أن الجنس الأوروبى هو باعث الحضارة وأصلها

ثالثا : أن ما يسمى بالحضارة الإسلامية وهم وخرافة

وقد بدأ العقاد فى دحض تلك الأضاليل والشبهات بحجج من منطق المسيرة الحضارية للجنس البشرى ، ومن تاريخ اتصال الإغريق بمن حولهم من الشعوب القريبة والبعيدة . . ومن منطق التطور التاريخى للحضارة الإسلامية ، فمنطق المسيرة الحضارية للجنس البشرى يلزم بضرورة التسليم بالاتصال الحضارى بين الشعوب ؛ فيقول العقاد :" وأول ما يوجب التشكيك فى هذه الدعوى أن نسأل : أين هى الحضارة التى ابتدعت ولم تنقل ؟ وأين هى الحضارة التى يقال عن جميع علمائها إنهم من عنصر محض خالص ينتمون إليه ولا يمترج بالعناصر الأخرى ؟"

ثم يستخلص الحجة على تأثر الإغريق فكريا وعقائديا وثقافيا من تاريخ اتصالهم بشعوب الحضارات التى حولهم ؛ فيقول : إنهم :" نقلوا قبل أن يبدعوا وعلماؤهم قد نبغوا فى آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل وصقلية والإسكندرية وتخوم العراق . . ولم ينحصر نبوغهم فى مكان واحد يقال إنه موطن العنصر المحصن الخالص الذى لا يشوبه عنصر دخيل . . ويصدق هذا على الهند وفارس والصين كما يصدق على أية أمة من سلالات الأوروبيين المحدثين " .

ثم نأتى إلى جانب له خطورته من جوانب قضية الافتراء التاريخى الكبرى

وذلك حيث صا ل الاستعمار الغربى وجال بكل ما يقدر عليه من حجج وبينات جمعت بين الإفك المتعمد والتحريف المقصود وتخريف الوهم والضلال ، ساعيا من وزاء ذلك إلى الإجهار على الكيان الحضارى العربى بطعنتين قاتلتين هما :
الأولى ، لإفراغ الوجدان العربى من إيمانه بحضارته : ما أداه فى ماضيه ، وما ينبغى عليه فى حاضره ومستقبله .. وذلك الإفراغ المتعمد يهدف فيما يهدف إليه تمزيق الأمة الإسلامية إلى شيع متناحرة أو على الأقل منعزلة عن بعضها البعض انعزال اللامبالة أو انعزال التخلص من الأنتماء الإسلامى إلى الأمة الإسلامية .. فيملا كل أمة إسلامية - غير العربية - الاحساس بأن العرب لم يكونوا سوى غزاة مستعمرين ..

الثانية : وتأتى من أنه إذا سهل على المستعمر الغربى أو الفكر الغربى أن يحقق التمزق المقصود ، سهل عليه من ثم أن يشكك فى الإسلام كعقيدة وشريعة فيضر به وأهله الضربة الصميمة التى لا قيام له ولأهله بعدها .

ومن مفتريات الفكر الغربى على العرب أنهم فى نشأتهم الأولى كانوا عالة على الحضارات القديمة البائدة التى وفدوا عليها ، ومنها حضارة السمريين ..

فهل لتلك القربة نصيب من الصحةُ ؟ وإذا كان لها ثمة نصيب فإلى أى مدى ؟

يقول العقاد : " إن القول بأن العرب [1] الذين وفدوا إلى بلادهم م يبدعوا شيئا غير ما أبدعه السمريون هو محض تخمين وتظنين لأن العالم لم يتلق عن السمريين أثراً من آثار حضارتهم فى حينها .. وما اتصلت العلاقة بين بلادهم وما جاروها كانت السمات العربية ظاهرة فى معدن اللغة وعادات الاجتماع ومزاج التفكير .. فلا موضع هنا للجزم بأن العرب نقلوا ولم يبدعوا ، وأن السمريين قبلهم أبدعوا ولم ينقلوا مع جهلنا كل الجهل بما أبدعوا وما نقلوه " ..

---

(٢) المرجع السابق ص ٢٦ ،

ومن مفتريات الفكر الغربى على العرب بعد الإسلام أن العرب ليسوا هم أصحاب الحضارة الإسلامية الشامخة .. فليس لهم فضل أصيل فى أى مظهر من مظاهرها الفكرية أو الثقافية أو العلمية .. إنما يرجع الفضل إلى الشعوب غير العربية اتى دخلت الإسلام . فأبناء هذه الشعوب هم الذين أبدعوا ، وأثروا ، ونشروا الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية وما ينسب إلى المسلمين من أنواع العلوم والفنون .

فما السر وراء مقدرة العناصر غير العربية على النهوض بأعباء بناء الحضارة الإسلامية بكافة مظاهرها ..؟ إنه سبب واحد أو علة واحدة ..

إنها الأرومة الأولى أو العنصر أو الجنس . فالعناصر غير العربية التى دانت بالإسلام مهيئة بحكم فطرتها وإمكاناتها التى يحتويها كيانها الجسمى

والنفسى إلى إبداع الثقافة والعلم .. بل لديها الاهتمام الفطرى التلقائى بما يثرى الحضارة ويخلدها ويرتقى بمظاهرها .

فهل حقيقة أن الفضل كله يرجع إلى الأعاجم الذين دخلوا فى دين الله أفواجا ؟ ما هو مبلغ صحة هذه الفرية أو هذا الاختلاف ؟

لا مراء فى أن الأمم الأعجمية قد اشتركت كما يقول العقاد : " فى أمانة الثقافة [1] وكان للفضلاتها قسط عظيم فى مختف العلوم والدراسات ولكنها لم تنهض هذه النهضة إلا بعد ظهور الإسلام فيها ولم تكن لها فى إبان مجدها القديم فضيلة على العنصر العربى فى الدراسات النظرية التى يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به فى مرافق المعيشة " ..

فلا نكران إذن ولا إجحاف بحق الأعاجم الذين أسهموا فى بناء الحضارة الإسلامية وعملوا على تأصيلها وازدهارها .. ولكن الذى ينكر حقا هو أن

(١) المرجع السابق ، صـ ٢٧ .

أصلهم أو جنسهم علة سموهم وباعث إمكاناتهم على الإبداع والإنشاء .

ولذلك فإن خطورة هذا الادعاء توجب التساؤل : فأين كان الأعاجم قبل الإسلام وقد كان لأممهم مجد عظيم ، ومع ذلك فلم يبدعوا شيئا يميزهم على العرب ؟

ولماذا أبدعوا بعد أن دخلوا فى الإسلام وصاروا يعلمون بما أوجبه عليهم ؟ إذن ، فلا بد أن يكون السر فى العقيدة لا فى نبالة العنصر أو الجنس أو الدم . فإذا قيل بعد هذا ـ مما حكة وادعاء وذلك بالاستناد إلى ظاهر وقائع الحضارة الإسلامية الذى يغرى السذج والبسطاء الذين يخدعون بالبريق وتضلهم الأصداء ـ إذا قيل بعد هذا مما حكة إن الأعاجم قد سبقوا العرب فى المقومات الأساسية أو العناصر الأساسية لقيام الحضارة واستمرارها ورقيها ، وأولها صناعة الكتابة فإننا نقول إن الكتابة وغيرها من شئون الحضارة لا ينبغى أن تؤخذ على أن الجنس العربى غير مؤهل لها بحكم عنصره الذى خلق عليه ، بل ينبغى دراسة الحضارة الإسلامية وهى فى أطوارها الأولى بتمحيص ودقة وإنصاف .. وأن يعى قبل كل هذا الكيفية الحيوية التى لابد من وجودها حتى تأخذ الحضارة سبيلها عند إنشاء قواعدها ، ثم عند تأصيل هذه القواعد كى تحقق الحضارة مكنون أسرارها وتبدع آيات مظاهرها . فالحقيقة التى لا يمارى فيها : " أن الأعاجم سبقوا العرب إلى صناعة الكتابة " ، فما هو علة ذلك ؟

يقول العقاد إن سبق الأعاجم يرجع إلى ان : " العرب [1] كانوا فى صدر الإسلام أصحاب قيادة ورئاسة شغلتهم الفتوح وسياسة البلدان المفتوحة عن دراسة العلوم التى يغنى عنهم فيها أعوانهم من الأتباع والمرءوسين " .

ثم لننظر فيما اعترى الطبيعة النفسية للأعاجم الذين دخوا فى دين الله أفواجا بعد أن شرح الله : " صدرهم بالإسلام أنهم كانوا ظماء إلى تعلم اللغة العربية لحفظ القرآن الكريم ودراسته والعمل بشريعته تقرباً إلى الله وإعزازا لدينه .

(١) نفس المرجع ص ٢٨

إذن فقد كان أمراً طبيعياً أن تدفع الغيرة الدينية الأعاجم إلى دراسة لغته وكتابه وأن يحضهم حبهم لله ورسوله إلى إتقان ما يتعلمون إتقانا مبدعا ، يقول العقاد : " إن الأمم [1] الطارئة على الإسلام كانت أحوج إلى تعلم اللغة والفقة والبحث عن مصادرها والى الاستمساك فى بلادهم النائية بعروة الدين الذى لا تربطهم بالدولة رابطة سواه " . .

وزادت فرصة الأعاجم عند تأسيس الدولة العباسية والتى بها تحقق البناء الأكبر لحضارة الإسلامية . فكان ذلك سببا جديدا أو حافزا جديدا كى يوطد الأعاجم وجودهم ويحققوا إمكاناتهم الإنسانية العامة التى هى فى نضارها إمكانات حضارية . . فالدولة العباسية وقد قامت على الأعاجم فأزالت بهم الدولة الأموية ؛ فإنها : " قربتهم [2] وتعهدتهم بالمكافآت والتشجيع فأقبلوا على البحث والعلم وهم على ثقة من حسن الجزاء " . .

ومن أسباب تفوق الأعاجم أيضا التفوق العددى لمفكريهم بالنسبة للمفكرين من العرب : " فعدد [3] الفضلاء الأعاجم هو عددهم بالقياس إلى جميع أفراد الأمم التى ينتمون إيها . أما عدد الفضلاء من صميم العرب فهو عددهم بالقياس إلى الفاتحين الراحلين عن الجزيرة العربية وهم قلة صغيرة إلى جانب الذين تخلفوا بعدهم فى البادية على نحو من معيشتهم الأولى " . .

إذن فشائعة القصور العنصرى الذى ألحقة المغرضون الحاقدون على الأمة العربية إنما هو قصور لا تثبته حقيقة واحدة من حقائق التاريخ عند الذين يتحرون

---

(١) ، (٢) ، (٣) : المرجع السابق ص ٢٨

الرشاد ويتوخون العدل فيما يبحثون ويقررون . . فالثابت الذى لا شبهة فيه هو أن ." الدفعة[4] التى أحيت الحضارة فى رقعة الدولة الإسلامية قد جاءت من السلالات العربية وأن حضانة الدولة الإسلامية هى التى سمحت ببقاء من بقى من حضارات الفراعنة والإغريق والفرس والهنود ولولا قوة " موحية" فى العبقرية العربية ما جاءت تلك الدفعة ولا تيسرت تلك الحضانة" . .

وبعد سقوط الادعاءات الجنسية سواء ما نسبه الأوربيون إلى أنفسهم كادعاء التفوق والامتياز العنصرى الثابت فى سواء فطرتهم البشرية أو ما نسبوه إلى العرب كادعاء القصور العنصرى الثابت فى سواء فطرتهم أيضا . . بعد سقوط ذلك الافتراء يبقى شئ واحد هو محك الأصالة الحضارية والعبقرية الحضارية لكل أمة من الأمم . .

هذا الشئ هو إمكانية العبقرية على النهوض بتكاليف الحضارة من حيث الحفاظ على التراث الإنسانى وإذكائه ثم تسليمه فى أمانة إلى من التمسوه منها - أى من العبقرية العربية - أو وجدت أن من واجبها أن تبلغه لهم . . فالحقيقة التى لا تجحد أن :" ليس [1] كل ما انتقل على أيدى الحضارة الإسلامية عربيا محضا فى الأصول والفروع ولكن حسبها أنه لم ينقطع على أيديها فاتصلت بفضلها وشائجه بالتاريخ القديم والحديث فحفظت تراث الإنسانية كلها وزادت عليه ونقلته إلى من تلاها . .

وكل حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خير ما يطلب من الحضارات ومن إليها ألا تورث الناس إلا شيئا جديدا من ابتداعها فقد طلب إليها ما يناقض الحضارة فى فضيلتها الكبرى وهى فضيلة السماحة والحرص على تراث الإنسان

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩

التفسير المادى للتاريخ

إن موقف العقاد من التفسير المادى للتاريخ هو موقف المدافع عن حرية الإنسان وكرامته .. فلقد أوضح المبادى التى تصحح النظر وتقوم المفاهيم وتضع العقل على محجة الصواب .. وفى نفس الوقت تعرى التفسير المادى للتاريخ مما استتربه من ادعاءات وتلفيقات ..

ومن جمة الحجج والبينات التى ساقها العقاد لدحض التفسير المادى للتاريخ يمكننا أن نستخلص جانبين هامين هما :

أولا : جانب المغالطات الفكرية ..

ثانيا : جانب المغالطات التاريخية ..

وقبل أن نعرض الحجج التى فند بها العقاد مفتريات التفسير المادى للتاريخ وهى التى شملها هذان الجانبان فإننا نجد أن التفسير المادى يرتكز على ثلاث دعائم هى :

أولا : أن المادة - أو الإنتاج - هى عماد حركة التاريخ ، وبالتالى ، عماد الوجود الحضارى للإنسان ..

ثانيا : أن التناقض أو الصراع الطبقى هو الظاهرة المتحكمة فى تدافع هذه الحركة ..

ثالثا : أن للتناقض أطواره الاجتماعية المحتومة التى تتجسد فى الصراع الطبقى ..

ونقصد بالمغالطات الفكرية ما تردى فيه زعماء الشيوعية وقادتها من تناقض وتذبذب فى تعريفهم أو تفسيرهم للمبادئ الأساسية للمذهب أو فى تعريفهم للمفاهيم التى يرتكز عليها تصورهم لمسيرة التاريخ العالمي ، والى أى شكل من أشكال الاجتماع سينتهى التطور التاريخى للمجتمعات ..

نبدأ أولا بالاساس الأول أو القاعدة الأولى التى يقوم عليها التفسير المادى للتاريخ ..

فالمادة هى عماد البناء الحضارى أو الوجود الإنسانى بكل أشكاله ..

وهنا يظهر تخبط الشيوعيين فى تفسيرهم معنى المادة : فمرة تكون الإنتاج ، ومرة تكون الآلة أو المصنع ، ومرة ثالثة تكون الطبقة أو العاملين بعامة .

ففى الآلة يتجسد البناء الإجتماعي ويتمثل تركيبه .. انظر إلى آية آلة استخدمها أى مجتمع من المجتمعات القديمة تجده ماثلا أمامك ..

هكذا قرر ماركس فى الجزء الأول من كتابه : " رأس المال " ، وذلك حيث يقول : " إن آثار آلات [1] العمل الغابرة تؤدى للباحث فى أحوال المجتمع الإقتصادية التى مضت مهمة كالتى تؤديها عظام الحفريات عن أنواع الحيوان المنقرضة .. وليست آلات العمل هى المميزة بين الأدوار الاقتصادية بل كيفية صنعها ، والأدوات التى صنعتها هى التى تميز لناترف الأدوار ..

وأن أدوت العمل لا تبين لنا درجة التطور الذى بلغه العمل الإنسانى وحسب بل هى دلائل على الأحوال الاجتماعية التى يجرى فيها العمل " .

وعلى هذا فإن وسائل الإنتاج تفهم على أنها الآلات الصناعية أو المصانع بعامة . وذلك هو ما يقوله ماركس فى رسالته الفكرية الألمانية ؛ فقد قال : " إن طاحون [2] الريح تعطيك مجتمعا يتولاه سيد الإقطاع . وطاحون البخار تعطيك مجتمعا يتولاه صاحب رأس المال فى الصناعة "

ومرة أخرى تصبح وسائل الإنتاج هى الطبقة القائمة على المجتمع والمهيمنة عليه ؛ فقد قال ماركس فى البيان المشترك الذى كتبه مع فردريك إنجلز : " إن الطبقة [3] البرجوازية لا يمكنها أن توجد بغير تطور دائم فى أدوات الإنتاج يغير علاقات العمل ويغير من ثم علاقات المجتمع والأسرة " .. ولقد يقال إن التناقض

---

(١) كتاب : الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام ، العقاد ، صـ ٨٦ (٢) نفس المرجع صـ ٨٩ .

هنا يدل على التخبط من ناحية والعجز عن وضع الحدود من ناحية أخرى . .

ولكن واقع الأمر - كما أوضح العقاد - على غير ذلك فهو مس ثم نوع من التمويه أو المخاتلة يستعمل عند ما تدعو الحاجة إليه . . فقد أوجبت الضرورة على الشيوعيين أن يتريثوا فى تفسيرهم المادى للتاريخ وذلك عندما يئسوا من تحقيق الأنقلاب العاجل واحتاجوا إلى مزيد من الإقناع وقليل من العنف والجماح . . فاعترفوا بعض الشئ بأثر العوامل الإنسانية أو أثر الفكر فى حوادث التاريخ . . ولقد كتب إنجلز فى سنة ١٨٩٠ ، إلى طالب يوضح له رأيه فى شأن المادة وأن تكون هى عماد حركة التاريخ ، فقال : " إنه على ماركس [1] وعلى أنا يقع بعض التبعة فى توكيد العوامل الاقتصادية وإعطائها فوق ما تستحقه من التقدير . وقد كنا أمام حملات خصومنا مضطرين للمبدأ الأصيل فى دعوتنا إنكارهم إياه ولم يتسع لنا الوقت كل حين لإبراز العوامل الأخرى بين الفعل ورد الفعل من العوامل المتعددة " . .

وقال إنجلز فى خطاب أخر : " إنه على حسب [2] الإدراك المادى للتاريخ يكون العامل الفعال فى اللحظة الأخيرة عامل الإنتاج والتثمير فى الحياة الواقعية . . وما حدث قط من ماركس ولا مني أننا قررنا غير ذلك ولكن الذى يحاول أن يجعل العامل المادى وحده فعالا فى التاريخ يخرج بالعبارة من معناها إلى كلام مجرد بغير معنى . . فالعامل المادى هو المهم فى الاساس ولكن العوامل الأخرى السياسية وغير السياسية - من دساتير وشرائع ومؤثرات ذهنية ونظريات فلسفية وعقائد دينية - كلها يسيطر على منازعات التاريخ وتقرر أشكالها فى كثير من الاحيان " .

ورغم هدا التموية أو الالتواء الظاهر فإن الإصرار على التفسير المادى للتاريخ يتجلى صريحا فى قول ماركس فى البيان المشترك : " إن الشبهات [1] التى تلقى على الشيوعية من جانب الدين أو جانب الفلسفة أو جانب الأفكار النظرية على العموم غير جديرة بالجد فى تمحيصها واختبارها . . فهل يحتاج الأمر بداهة

---

(١) المرجع السابق صـ ٩٣ (٢) نفس المرجع صـ ١١٢

عميقة لنعلم أن خواطر الإنسان وآراءه ومداركه . . أو بكلمة واحدة وعيه - يتغير ومع كل تغير بطرأ على كيانه المادى وعلاقاته الاجتماعية وحياته العامة "

ويفند العقاد التفسير المادى للتاريخ من نواح متعددة تتفق ومنهاجه في البحث والعرض واستخلاص الحجة الدامغة ،، وقد بدأ بإثبات أن المادة في ذاتها شئ لا يمكن إثبات وجوده . مستنداً في برهنته على أحدث تجارب وتقريرات العلم الحديث ؛ فهو يقول : " وليست [2] المادة هذا الوزن الثقيل أو الخفيف لأنها تقوم بغير هذا الوزن وراء حدود الجاذبية الأرضية . . المادة ذرات والذرة لا يدرى أحد أهي موجبة أو جوهر فرد صغير بالغ في الصغر ولكنه يقبل الانقسام فيطير شعاعا في الأثير . . وما هو الأثير ؟ . . كل ما قيل عن الروح أيسر فهما وأقرب إلى الإدراك من هذا الأثير . . شئ لا لون له ولا كثافة ولا حركة ولا تصدق عليه خاصة من خواص المادة في علم العارفين بها والعاملين في ذراتها " . .

وهكذا انتهت المادة إلى شيء في ذاته ، إن أجيز هذا التعبير . .

ثم يتقدم العقاد خطوة أخرى نحو المادة التي يؤمن بها الشيوعيون ويفسرون بها التاريخ فيسلم معهم جدلاً بافتراض وجودها وأنها صالحة لتفسير وقائع التاريخ ونواميس الكون ، ولكنه يدفع بالحجة في تساؤل إنكاري ؛ فيقول : " فلماذا يلزم من [3] ذلك أن وسائل الإنتاج هي التي تتحكم في تاريخ الإنسان ؟ ولماذ لا يكون الناس أحق بهذه القوة من المادة الصماء ؟" . .

ثم يواجه العقاد التفسير المادى للتاريخ بشاهد من الحياة العضوية للكائنات الحية فيقول . " إن مطالب المعيشة [4] ضرورة لاغنى عنها لجميع الأحياء ولكن ضرورتها هذه لم تمنع الأحياء أن يتعددوا أنواعا وأفرادا لم تحصرها العلوم بعد ولم تحصرها الحواس والعقول واضطرارها جميعاً إلى مطالب المعيشة لم يمنع هذا التنوع الهائل في أجناسها وطبائعها وآحادها . . فلماذا نُسْقط هذه القوى من

(١) المرجع السابق . ص ١١٢ (٢) نفس المرجع ١١١ (٣) . (٤) المرجع السابق صـ ١١٢

حسابنا ولا نلتفت فى تفسير أطوار التاريخ إلا لوسائل الإنتاج الصماء ؟ ولماذا تكون كذلك بعد ظهور نوع الإنسان وهو الذى يصنع تلك الآلات الصماء .

أما الجبهة الثانية التى اقتحمها العقاد على الشيوعيين فهى جبهة المغالطات التاريخية وهى التى أجاد فيها الشيوعيون صنعة التزييف وتعمد الإغفال والإهمال .

والقاعدة التى قامت عليها تلك المغالطات هى ما ذهب إليه الشيوعيون فى تفسيرهم المادى للتاريخ من أن تاريخ البشرية هو تاريخ الصراع بين الطبقات وأن مدار الصراع كله هو المادة أو امتلاك وسائل الإنتاج .

فالطبقة التى تتمكن من الانتصار فى ذلك الصراع تصبح لها السيادة المطلقة على سائر الطبقات . .

وتأتى المغالطة التاريخية الأولى من قول الشيوعيين إن تاريخ الصراع الطبقى بدأ بأطوار تراوحت بين جمع الثمار والرعى وصيد الحيوان ثم الزراعة . . وهم يرون - أى الشيوعيون - أنه لا يمكن الحكم على تلك الأطوار من حيث الصراع الطبقى إذ لم تكن الطبقة قد تكونت بعد .

وهذا ما يقرره إنجلز فى كتابه عن الأسرة ؛ فهو يقول : " إنه بينما [1] كان تحقيق هذه القوى الدافعة للتاريخ فى حكم المستحيل نظراً لإشتباكها واختفاء العلاقات المتداخلة بينها وبين آثارها نرى أن عصرنا الحاضر قد بسط إلى الآن هذه العلاقات المتشابكة تبسيطا يمكننا من حل ألغازها وأنه بعد قيام الصناعات الواسعة - أو بعد الصلح الأوروبى على الأقل - لم يبق مجهولا عند أحد فى بريطانيا أن الصراع السياسى كله إنما يدور على تنازع السيادة بين طبقتين ، طبقة الملاك النبلاء والطبقة الوسطى "

وقد أوضح العقاد أن هذه الآراء متهافتة فى ذاتها لأنه إذا كان عدم وضوح

(١) نفس المرجع صـ ١٨

المراحل الهامة التى تمت قبل نشأة الطبقة من أسباب نشأة الطبقة فإن معنى ذلك أن لايتحتم أن تكون الطبقة صالحة لتفسير ما قبلها ولا تفسير ما بعدها والشئ الثانى أن تاريخ الإنسانية قبل القرن التاسع عشر لا يمكن إرجاعه إلى بينات محددة أو سبب واحد ظاهر الأثر متحقق الدلالة ، يقول العقاد : " وليت الملاحظات [1] ، وملاحظات ثلاثين سنة فى تاريخ الإنسانية قد كشفت عن شئ يؤيد مذهبهم بين الطبقات لأن الصراع بين الملاك النبلاء والطبقة الوسطى لم يكن صراعا على استغلال أحدهما للآخر بل كان صراعا على دعوى السيادة كما قال إنجلز ، وغايته فى رأيه استغلال طبقة ثالثة من العمال " . .

ولنرجع بهد هذا إلى ماهية الطبقة فنجد أن التفسير المادى يعرفها بأنها : " " الطائفة التى تكون مصالحها معارضة لمصالح [2] طبقة أخرى . وعلى هذا يكون التعريف هو البرهان " . . ومن ثم يكون الباعث الأكبر على إنشاء الطبقة هو باعث العداوة والبغضاء : " فهى طبقه لأنها تعادى [3] غيرها وهى تعادى غيرها لأنها طبقة " . .

ويرجع التفسير المادى للتاريخ نشأة باعث العداوة والبغضاء إلى غريزة الملكية الخاصة التى صارت تنمو حتى أصبحت الطبقة ظاهرة اجتماعية أو ظاهرة تاريخية تتحكم فى مسيرة التاريخ . . وهنا يوضح العقاد مدى المغالطات التى اقترفها التفسير المادى فى تعليله هذا ، فهو يقول مستندا إلى الأبحاث العلمية : " نعود (٤) الدعوى إلى الدعوى العلمية التى يدعونها لأصول المذهب وفروعه فنقول إن الثقات من خبراء علم الإنسان " أنثروبلوجى " ، لم يثبتوا فرضا من تلك الفروض ولم يذكروا لنا مجتمعا من المجتمعات البدائية خلا من الملكية الخاصة لوسيلة من وسائل الإنتاج ونحن فى عصرنا هذا ننظر إلى المجتمعات المترقيه فى الحضارة فلا نرى مجتمعاً منها خلا من المشايعة التى كانت فى العصور الأولى مما يعين التاريخ ويدل على ما كان قبل التاريخ " . .

---

(١) نفس المرجع صـ ١٢١ (٢) نفس المرجع صـ ١٢٢ (٣) نفس المرجع صـ ١٢٨

ويعلل العقاد سر ذلك بأن الاستغلال لم يوجد قط : " لأنه [1] رغبة مستجابة لا معارضة فيها وإنما وجد لأنه قدرة يستطيعها أناس ويعجز عنها آخرون . وهذه القدرة إما أن تكون قدرة الشجاعة أو قدرة الخبرة بفنون القتال ، أو قدرة القيادة السلمية ، أو قدرة البنية القوية التى تخضع من تغلبهم لمشيئتها وتروضهم على طاعتها . وقلما تكفى البنية القوية وحدها لتمكين أحد من القيادة الدائمة ما لم تكن مقرونة بمزية عقلية أو خلقية تسندها وتدبر لها وسائل دوامها " . .

وبهذا المنطق كشف العقاد عن تهرب ماركس وإنجلز فى تفسيرهما المادى للتاريخ من ذكر أى شئ عن المرحلة التى قامت بين الشيوع التام كما يدعيان ، وبين نشأة الرق أو الطبقية بعامة . . فهما قد تهربا لأن المنطق العلمى يلزمهما بالاعتراف بالعقل أو الفكر أو ذكاء الإرادة التى فطر عليها الإنسان . ومع هذا فالعقاد لم يترك قضية الطبقات كما صورها التفسير المادى بغير أن يكشف عن جوانب الخطل التى تكشف عن سوء نية الشيوعيين كما تفضح جهلهم بحقائق التاريخ . . فهو يرد على حتمية التناقض أو التناحر الطبقى بقوله : " أى فرق مثلا [2] بين طبقة الأشراف وطبقة السوقة فى الدولة الرومانية من حيث وسائل الإنتاج ؟ كلتا الطبقتين كانت تمتلك الضياع وتملك التجارة وسفن الملاحة وتملك العبيد الأرقاء العاملين فى الزراعة والتجارة والصناعة والمناجم المباحة لغير - الدولة . . وهذه مسألة أصلية فى المذهب المادى وليست بالمسألة العرضية التى تحتمل قولين : إنها مسألة الإنتاج فى عهد الرقيق . فإن قامت قام معها المذهب وإن سقطت سقط معها ولم تقم له قائمة .

" فماذا كان بين الطبقتين من الفوارق [1] فى وسائل الإنتاج وفى تسخير الرقيق ؟

ولماذا بقى فارق النسب - أو دعوى النسب - إلى نهاية الدولة الرومانية قبيل وقوعها فى أيدى البرابرة تمهيدا لعهد الإقطاع ثم عهد الفرسان ؟ ولَمَ انتهى عهد

---

(١) نفس المرجع صـ ١٣٠

السادة ولم يقم بعده عهد العبيد الأرقاء تبعا للأحجبة الفلسفية التى جعلت النقيد مولدا للنقيض ؟ إن نهاية رأس المال بداية عهد الأجراء كما نعلم من جميع المقدمات والنتائج الماركسية .. فلم لم يستول الرقيق على أزمة الإنتاج بعد زوال عهد السادة من سراة الأشراف والسوقة الرومانيين ؟ وأين هم النقيضان فى عهد من العهود ؟ لماذا يكون الملك البربرى نقيضا للشعب البربرى ؟ ولماذ يكون الاقطاع نقيضا للرق ؟ ولماذ يكون الصناعة نقيضا للإقطاع والرق مجتمعين ؟" ..

ثم يقول العقاد عن طبقة الفرسان وعلاقتها بالطبقات الأخرى للشعب :" ولو أراد ماركس (٢) لقال أن الرعايا من الفلاحين والتجار والصناع احتاجوا فى هذا العصر إلى الحماية فنشأ نظام الفرسان موافقا لهذه الحالة واستقر بعد نشوئه لانه كان لازما لصالح الطرفين .. ولو أنه قا ذلك لما خرج على تفسيراته المادية وكان مقاله أقرب إلى المعقول وأشبه بطبائع الأمور لأن الفرسان عدد قليل لا يزيد على الآحاد فى كل أقليم ورعاياهم أضعاف أضعافهم فهم يعدون أحيانا بمئات الألوف " ..

ثم يأتى العقاد بالحجة الدامغة فيقول :" ولكنه (٣) لو قال ذلك لفاتته أولاً دعوى الاستغلال ، وفاتته بعدها سلسلة الطبقات حلقة بعد حلقة إلى خاتمتها المنظورة ..

ولو قال ذلك لاعترف بالمزايا الإنسانية قبل وسائل الإنتاج واعترف بمزايا الشجاعة والدراية العسكرية والقدرة على الرئاسة وهيبة الحكم سابقة لوسائل الإنتاج ، ودون ذلك وينهار المذهب جداراً بعد جدار " :

وتتلخص الحتميات الطبقية فى تصور ماركس على النحو التالى :

أولا : أن الثروة تنحصر فى أيدى فئة قلية من أصحاب رؤوس الأموال وأصحاب المصانع الكبرى ..

ثانيا : أن الطبقة الوسطى تزول رويداً رويدا ، ثم سريعا سريعا فلا تبقى منها بقية فى خاتمة الدور

ثالثا : أن طبقة الأجراء تبتئس وتنحدر مع تقدم الصناعة حتى تبلغ نهاية الانحدار متى بلغت الصناعة الكبرى نهاية الصعود ويومئذ تثور هذه الطبقة لأنها لا تخسر بالثورة شيئا غير القيود والأغلال

رابعا : أن طبقة الآجراء تستولى بعد ذلك على الصناعة الكبرى فتديرها لمصلحتها ولا تستقل بإدارتها طبقة أخرى فيظل المجتمع - أبداً - بغير طبقات .

فهل تحقق تقدير من هذه التقديرات ؟ أو هل تحققت نبوءة من هذه النبوءات ؟

حتى يجد الماركسيون سببا يدعم تفسيرهم المادى ويؤصله ، أم أن التفسير المادى لا يزيد فى جرهر ه عن كونه :" بقية [1] من بقايا الخرافات الإسرائيلية التى تقو ل : إن العالم سيخرب بعد ألف سنة ثم يخرج من في القبور من أبناء إسرائيل فيعمرونه فى نعيم مقيم لا تبديل ولا تقديم " .

الواقع - كما قرر العقاد - أنه لم تتحقق أية نتيجة أو نبوءة من تنبوءات كارل ماركس ، بل إن ما يشهده العالم اليوم لَماَ يقوض التفسير المادى من أساسه :" فرءوس الأموال [2] تتفرق ولا تنحصروأسهم الشركات تتوزع بعشرات الألوف ، ومصانع الشركات الكبرى أحيانا يساهم فيها العمال وتتفرع حصص الربح بين الأغنياء والمتوسطين والفقراء وتتحول المرافق العامة إلى التأميم كلما كان المشاع أوفق لإدارتها من الملكية الخاصة .. وليس هذا بمبدأ جديد فى الملكية العامة أو الخاصة بل هو المبدأ القديم الذى يشيع ملك المرفق ما دام الاستئثار به لمصلحة فرد أو أفراد محدودين غير مستطاع .. والطبقة الوسطى تزداد ولا تنقبض ولا يقل نصيبها من الملكية أو الثورة على حسب تقدير كارل ماركس ولا يتقرر بالفروض والظنون ولكنه يتقرر بالإحصاءات أو الأرقام . ويقوم بهذه الإحصاءات أناس من تلاميذ كارل ماركس يرون أن الثروة صائرة إلى التوريع لا إلى التركيز ، وأنها

---

(١) المرجع السابق صـ ١١٨ . (٢) نفس المرجع صـ ١٤٣

تصير إلى ذلك فى طريق غير الطريق الوحيد الذى رسمه لها كارل ماركس فى قضائه المبرم ومن هؤلاء " ادوارد برنشتين " الذى يسميه الشيوعيون " المنقح "

ثم يقول العقاد عن الطبقة العاملة : " فالطبقة العاملة [1] لا تزداد سوءاً على سوء مع تقدم الصناعة واتساعها إلى غاية مداها .. ونجاح الشيوعية أقل ما يكون فى البلاد التى تقدمت فيها الصناعة ذلك التقدم وأكثر ما يكون فى البلاد التى لم تعرف الصناعة الكبرى ولم تنشأ فيها طبقة من الصناع تديرها إذا استولت عليها ، وتنعكس النسبة تماما فى هذه النتيجة حيث وجدت الدعوة الشيوعية إلا بمقدار التأخر فى الصناعة لا بمقدار التقدم فيها .. ويحدث هذا فى الأمة الواحدة كما حدث فى الولايات الألمانية الشرقية والغربية وكما يحدث فى القارة الأوروبية . فلا تروج الدعوة الشيوعية فى اليابان كما راجت فى الصين ، ولا تروج فى الصين نفسها بين أبناء الأقاليم الجنوبية الشرقية كما راجت بين أبناء الأقاليم الغربية الشمالية " .

وإذا كان الصراع الطبقى هو محور الحركة التاريخية والمفسر لظواهرها وأحداثها فإنه لأمر بدهى أن يضيع الفرد فى غمار ذلك الصراع .. بل إن التفسير الماركسى قد حرص غاية الحرص على تدمير الفردية فكريا ونفسيا واجتماعيا بدعاويه الإرهابية .. وذلك هو قمة التزييف التاريخى والتهافت الفكرى الذى يدمغ أصحابه بالزيغ والضلال .

ويؤمن العقاد بأن للفرد مقامه ودوره القيادى فى تاريخ الحضارة .. وإذا أنكر الشيوعيون ذلك فهل بإمكانهم أن ينكروا فردية لينين وهتلر ومصطفى كمال وصن يات صن ؟ فلولا فردية هؤلاء الزعماء ما قامت لثوراتهم قائمة ،..

---

(١) المرجع السابق صـ ١٤٥

ولولاهم لما طبعت بلادهم بما طبعت به من نظم اجتماعية وسياسية نعم ، لم يستطيع زعماء الشيوعية أن يكتموا الفردية فلا يجعلونها تظهر على ألسنتهم وتصرفاتهم : " فقد أشار [1] ماركس وإنجلز إلى تعدد المواهب والملامح فى معارض كثيرة من معارض البحث والدعوة . وقال ماركس بأصرح العبادات فى رسالته عن فقر الفلسفة : " إن الناس يولدون على اختلاف فى الأدمغة والملكات الذهنية " .. وقال فى انتقاده لبرنامج " جوثا " : إن عالما من المؤهلات المنتجة والغرائز يضحى به من أجل إتقان الأجزاء الآلية " .. وقال فى الجزء الأول من كتابة " رأس المال " : " إن توزيع [2] العمل ينشأ من توزيع الأخلاق حيث يحتاج عمل إلى زيادة فى القوة وعمل أخر إلى زيادة فى الذكاء وعمل غيرهما إلى زيادة فى الانتباه " ..

وأخيرا يدعم العقاد رأيه فى مكانة الفرد وقيمته وكأنه يضرب التفسير المادى للتاريخ الضربة المصمية بقوله : " إن الجزء شئ حقيقى وبغيره لا يوجد المزيج الكيمى كيفما اختلف به التفاعل والتشكيل .. وإن الفرد شئ حقيقى وبغيره لا يوجد الأثر الاجتماعى كيفما كان المجتمع على التعميم .. أما نوع الإنسان فلا يكون له تطور إلا أن يكون تطوراً محيطا بالنوع غير محدد باللون أو بالسلالة أو الطبقة أو الجماعة ، ولا يكون تطوراً إنسانيا وهو خاص بطبقة أو بقوم أو بسلالة أو بإقليم " .

ولو أننا سألنا أنفسنا عن سر ذلك التفسير المادى للتاريخ ؟ لكان الجواب الذى لا شك فيه : " إنه الحقد الكامن فى سواء الشيوعية على كل مزية إنسانية "

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٨

التفسير الإنساني للتاريخ

" التفسير الإنساني للتاريخ " ... عبارة ذات دلالات متمايزة إلا أنها رغم تمايزها فإنها متداخله تداخلا عضويا بحيث يصعب في كثير من الأحيان ، الفصل بين هذه الدلالات فصلاً تاما .. وترجع الدلالات التي توحي بها كلمة : " الإنساني " إلى المقومات الأساسية للإنسان والتي يمكن تركيزها في دلالتين اثنتين هما :

أولاً : الفرد بمواصفاتـه ..

ثانياً : المجتمع بمواصفاته ..

فمن علماء الاجتماع لمن يجعل الفرد أو البطل أو الإنسان العظيم هو علة التاريخ أو نشأة الحضارة .. أو هو المحور الإشعاعي الذي نلقى به الضوء على التاريخ فتسفر لنا خفاياه وبواطنه ، وتسفر لنا أسبابه وعلله .. وتسفر لنا ظواهره وشكوله . فإذا الخفايا والبواطن ، وإذا الأسباب والعلل وكذلك الظواهر والشكول ، ترجع كلها إلى فكر البطل أو الزعيم أو العظيم ، وفي كلمة واحدة ترجع إلى الإنسان الفرد .

لقد كان سبنسر يقول : " الفرد [1] هو الاسمى وهو صاحب السيطرة والصدارة ولا ينبغي للمجتمع أن يتدخل في حياة الناس " .. وكان توماس كارليل من الذين افتتنوا بالفرد أو البطل التاريخي ، فبه وحده ينشأ التاريخ ويفسر ، فعنده : " أن التاريخ العام ، تاريخ ما قام به الإنسان في هذا العالم إنما هو في أساسه تاريخ عظماء الرجال الذين أثروا فيه .. فقد كان هؤلاء العظماء قادة الناس وكانوا القدوة والنماذج ، وبمعنى أوسع ، المبدعين لسائر ما سعت جموع الشعب إلى عمله أو بلوغه .. وكل ما نراه ماثلا محققا في هذا العالم هو ولا ريب الثمرة المادية الخارجية والتجسد والتحقيق العمليين للأفكار التي

---

(٢) مباهج الفلسفة ، تأليف : ول ديورنت ، ترجمة : د / أحمد فؤاد الأهواني ، ص ٤٧

استقرت فى رءوس العظماء المرسلين إلى هذا العالم .. فروح التاريخ كله إنما هو بحق تاريخ هؤلاء الأبطال .. فإذا تيسر لنا حسن البصر بهم فقد نستطيع أن ننفذ إلى لب تاريخ العالم " .

وقد لا تكفى هذه النظرة الصوفية إلى البطل فى أن يكون هو المفسر للتاريخ فيلزم من ثم أن تكون النظرة إلى البطل أكثر موضوعية من حيث أثره فى المجتمع أو التاريخ ..

.. ولعلنا نصيب عند عالم الاجتماع جبريل تارد (١٨٤٣-١٩٠٤) ، شيئا من هذه الموضوعية ؛ فهو يقول :" إذا فرضت وجود [1] جميع الظروف الجغرافية والجنسية والاقتصادية التى تريدها فلابد من وجود شخص يتقدم الصفوف فى كل حادثة وفى كل تغيير .. إن القزم من الرجال لن يبدأ بالابتكار فهو خائف وأكبر الظن أنه لا يحلم أبداً بوجود حاجة لأى شئ اللهم إلا أنواع السلوك المتوارثة وتكفيه فى ذلك العادات والتقاليد . أما العملاق من الرجال فإنه يشعر بالحاجة ، إنه " يفكر " فيتغير كل شئ .. إن طريق التقليد هو على الجملة الشئ الوحيد الهام فى التاريخ . وتقوم وراء العوامل الاقتصادية والجغرافية العملية الأساسية الحيوية وهى عملية الانتخاب الطبيعى للتغيرات الملائمة .

فالعبقرى هو المتغير وفكرته هى التغيير " وروح العصر " والظروف الطبيعية هى البيئة التى تضمن للتغير أن ينجح والتاريخ هو الحرب بين التفاهة والعبقرية " ..

إلا أن البطولة التى تفسر التاريخ ليست حكرا على بطولة الحرب والسياسة .

فللعلماء والمخترعين حقهم المعلوم فيها . فبهم تتطور الحضارة وبالتالى تتجدد عادات الناس وتقاليدهم وأفكارهم وتطلعاتهم ..

وكان لسترارد (٨٤١-١٩١٤) .. من الذين أشادوا بتلك البطولة

---

(١) المرجع السابق ، صـ ٤٩

وفسروا التاريخ على أساسها :" فالتاريخ هو (١) تاريخ الإختراعات العظيمة إذ تقوم وراء التغيرات الاقتصادية تغيرات ميكانيكية ويقوم وراء هذا العلم التفكر المنعزل للفذ من الرجال . قد لا يكون عظماء الرجال علة الأحداث التى تصوره عادة فى التاريخ كالحروب والانتخابات والهجرات وغير ذلك ولكنهم علة الاختراعات والاستكشافات التى تصوغ العالم صياغة جديدة وتغير كل جيل عن الجيل السابق . . إن نمو المعرفة هو جوهر التاريخ " .

وتأتى نظرة " : محاكاة البطل " كأساس لتفسير التاريخ ، وذلك على اعتبار أن المجتمع مسئول عن حرية الفرد ومطالب بتهيئتها له والحفاظ عليها وتنميتها وإلا فإنه - أى المجتمع - يكون قد حكم على نفسه بالموت . . إن الفرد هو أساسه وهو الذى يعطيه بفضل حريته وعبقريته مدده من الحياة والتقدم ؛ يقول :نيقولا ميكيالوفسكى (١٨٤٢ - ١٩٠٤) فى كتابه :" البطل والغوغاء " :" إن الهدف (٢) الاساسى للنشاط الاجتماعى يجب أن يكون هو الكفاح من أجل حرية الفرد " ، ثم يقول :" لا ينظر للبطل (٣) بالضرورة باعتباره شخصا عظيما لكنه شخص له من التجربة ما يحفز الناس على الخير أوالشر . والرجال العظام هم نتاج نفس البيئة التى أنتجت الغوغاء . فالناس يتطلعون إلى المثاليات ويسيرون بحماس وراء أولئك الذين يتجلى لديهم النزعة البطولية حينما يقدمون لهم هذه المثاليات . . وأخيرا فإن البطل هو الشخص الذى يضطلع بالخطوط الأولى التى تنتظرها الغوغاء لكى تقوم بمحاكاتها . ذلك أن المحاكاة - باعتبارها قانونا عاما للسلوك الإنسانى - تحدث عموما بصورة لا شعورية . . وطالما أن الشعور والإرادة عادة ما يكونان على درجة من الضعف فإن الميل إلى المحاكاة غالبا ما تكون له الأولوية" . .

ولقد بلغت النزعة الفردية غاية تطرفها على يد فردريك نيتشه : فالإنسان

---

(١) المرجع السابق صـ ٥٠ ، (٢) كتاب نظرية علم الإجتماع ، تأليف نيقولا تيماشيف ، ترجمة محمود عودة وآخرون صـ ١٦٠

العظيم هو وحده خالق الحضارة وباعثها ومن ثم فإن التاريخ لا يفسر إلابه ؛ فهو يقول : " إن سمو طبيعة (١) الرجل العظيم هو فى كونه شيئا متمايزا وفى محافظته على البعد الذى تقتضيه درجته ـ وليس فى أى عمل من الأعمال حتى لو زلزل الأرض بأسرها "

ثم يجمع بين الافتتان بالبطل إلى حد الخروج من دائرة الإنسان إلى ما فوق الإنسان ؛ فهو يقول : " إننى أدعوكم (٢) بدعوة الإنسان الأعلى فإن الإنسان الأعلى شئ يجب أن يعلى عليه .. فماذا فعلتم مكن أجل العلاء عليه ؟..

إن الإنسان الأعلى معنى الأرض وعلى إرادتكم أن تقول ليكن الإنسان الأعلى معنى اأرض " ..

ويقابل هؤلاء اذين يفسرون التاريخ بالفرد أو البطل جماعة المفسرين بالمجتمع بحجة أن المجتمع هو أساس نشأة الفرد والذى يهبه أو يورثه كل خصائصه الإنسانية . فعالم الاجتماع جمبلو فتش (يهودى بولندى ١٨٣٨ ـ ١٩٠٩) .. يرى : ؛ أن الجماعة فقط (٣) هى العنصر الهام لأن الفرد ما هو إلا نتاج جماعى ..

هناك إقلية فقط من االأفراد ليست ذات أهمية تتلقى تعليمها من انطباعات وافدة من خارج جماعتهم القول الذى يذهب إلي أن الإنسان يفكر بوصفه فردا إنما هو ضرب من الهذيان " .

ويؤكد عالم الاجتماع لستروارد أهمية المجتمع وخطورته فى كتابه :" علم الاجتماع النظرى ؛ فيقول :" إن الطاقة الاجتماعية تتدفق فى المجتمع فى كافة الاتجاهات .

وهى تشبه العاصفة أو الفيضان من حيث [١] مبلغ صرامتها . وإذا كانت المصالح الفطرية للناس فى اتجاهها نحو تحقيق أهداف غالبا ما تخفق فى تحقيق هدف بعينه فإن هذا الموقف يصدق أيضا فى مجال الطبيعة . فهناك قوى عديدة

---

(١) . (٢) . كتاب نيتشه تاليف د / عبد الرحمن بدوى ، صـ ٢٤٧ صـ ٢٤٩

تتصارع وتتعارض . وبما أن الحركة شئ لا ينتهى فإن توازنا جزئيا لابد أن يتحقق بحث يؤدى إلى خلق بناءات تتفاوت فى درجة استقرارها .. غير أن هذه البناءات تتصارع مرة آخرى . وهكذا تتكرر نفس العملية السابقة بحيث تؤدى باستمرار إلى بناءات جديدة تنتشر فى كافة آفاق الوجود .. ومن الملاحظ عموما أن البناءات االتى يخلقها توازن القوى تفوق دائما مجموع العناصر التى أخذت منفردة " ..

وفى تقدير عالم الاجتماع الروسى سوروكين (١٨٩٩) أن الفرد صورة للمجتمع حبيث تنعكس فيه مقومات المجتمع واهتماماته وأفكاره فشخصية الفرد :" عبارة عن عالم صغير [٢] يعكس العالم الثقافى الاجتماعى الذى يولد فيه الفرد ويعيش .

فحياة الفرد درامى كبيرة تتحد أولا من خلال عالمه الاجتماعى ثم من خلال الخصائص البيولوجية لكيانه العضوى . وحتى قبل أن يولد الكيان العضوى يتدخل العالم الثقافى الإجتماعى فى التأثير على خصائصه وتحديدها ويظل ملتزما - دون لين - بعملية التشكيل حتى وفاة الفرد وبعد وفاته أيضا " ..

وبين هذين الطرفين المتقابلين : الطرف المؤيد للفرد ، والطرف المؤيد للجماعة ، تقع الجماعة ذات الرأى الوسط ، أى لا ترجع الأمر إلى الفرد وحده ولا إلى الجماعة وحدها .. ولكنها تجعل لكل نصيبه فى تكوين الآخر وتشكيله ، وفى إعطائه ما هو فى حاجة ضرورية لحياته الإنسانية أو لحياته الحضارية بعامة .

فعالم الاجتماع الإنجليزى " سمول " (١٨٥٤ - ١٩٢٦)، يعتقد بوجود تبادل عضوى متوازن بين الفرد والمجتمع فالفرد :" ليس [١] وسيلة للمجتمع كما أن المجتمع ليس وسيلة للفرد ، وإنما يعد كل منهما وجها للآخر .. فالمجتمع مركب من أوجه نشاط الأشخاص . والشخص هو مركز الدفعات الشعورية التى تتحقق فى المجتمع بصورة كاملة " ..

ومما يعتقده عالم الاجتمع اليهودى الألمانى جورج زيمل (١٨٥٧ - ١٩١٨) أنه : " من العسير [٢] فهم المجتمع على أنه وحده سوسيو لوجية مستقلة عن عقول الأفراد فهذه نظرية وهمية تصورية تجعل من التصورات ظواهر واقعية . كما أنه من الخطأ كذلك أن نعتقد أن للأفراد وحدهم وجودا واقعيا فالأفراد فى ذاتهم ليسوا سوى ذرات أى المادة التى يتكون منها المجتمع وليس حقيقيا أيضا أن نربط الواقع بأبسط الوحدات اتى يتكون منها الكل فنحن لا نكتشف مواقع فقط فى المادة بل نعثر عليه فى نطاق ما يكسب المادة صورتها أو شكلها . فالمجتمع إذن يتعدى نطاق الأفراد الذين يكونونه .

والواقع أن الاهمية الحقيقية للمجتمع تتجلى فى تعارضه مع مجموع الأفراد والمجتمع هو وحدة موضوعية تعبر عنها العلاقات المتبادلة بين عناصرها الإنسانية " .

وتؤكد النظرية العضوية عند عالم الاجتماع الأمريكى تشارلس كولى (١٨٦٤ - ١٩٢٩) ، فكرتى وحدة الكل وقيمة الفرد فى ذاته معاً محاولة تفسير كل منهما من خلال الآخر . فهو يقول فى كتابه " الطبيعة الإنسانية " ، " إن تصورنا لفرد منعزل [٣] هو تجريد لا تعترف به الخبرة ، يعادله فى ذلك تصورنا للمجتمع على أنه شئ مختلف عن الأفراد . . ويرجع ذلك إلى أن الفرد والمجتمع لا يشيران إلى ظواهر منفصلة ولكنهما يمثلان - ببساطة - المظهرين الجمعى والتوزيعى لشئ واحد "

ويكاد يكون هناك شبه إجماع بين علماء الاجتماع على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم على أن الماضى محكوم بقوانين علميه اجتماعية هى التى تتحكم فى المجتمع وتؤدى إلى انبثاق ظواهره الحضارية الممثلة في أنماطة السلوكية والاخلاقية والثقافية والعلمية فإذا وعينا تلك القوانين وهى فى أساسها قوانين الصراع من أجل البقاء استطعنا أن نفسر بها أية حقبة من حقب التاريخ وأن نستخلص منها

---

(١) كتاب " الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام ، العقاد ، ص ٨٦ ، (٢) نفس المرجع ص ٨٩

خصائص الزعامات التى نشأت فى المجتمع وقادته فى هذا الطور أو ذاك ، أو هذه المرحلة أو تلك .. بل استطعنا أن نتصور ما يمكن أن يقع فى المجتمع من أحداث تحمل معنى التغيير سواء أكان التغيير إلى ما هو أحسن أو إلى ما هو أسوأ .. ولقد تأثر كثيرون من فلاسفة التاريخ بقوانين التطور الاجتماعى تأثرا بالغ العمق جعلهم يقرون أن أطوار حياة المجتمع هى أطوار حياة الكائن الحى : من طفولة وشباب ونضج وهرم أو انحلال .. ومن أولئك الفلاسفة : أوزوالد اشبنجلر ، وأرنولد توينبى .

وإن من المفكرين لمن يفسر التاريخ بالعقل فيجعل العقل عماد الوجود الحضارى والوجود الإنسانى بعامة .. فحياة العقل هى حياة التاريخ، فلا حياة للفرد ولاكيان للمجتمع بغير العقل . فإذا أردنا من ثم أن نفسر أية حضارة أو أن ندرس أية مرحلة من مراحلها فلندرس أطوار النمو العقلى بها وما أبدعه فى كل طور من مظاهر ثقافية وعلمية وصناعية وأخلاقية ،، ولعل التفسير العقلى للتاريخ لم يبلغ أقصى ما قُدِّرَ له من تقدير إلا على يد هيجل الذى بوأه مقام الألوهية : فهو الروح ..

والحياة .. والمطلق .. والحرية " فالله هو المطلق (١) Absolute ، والمطلق هوالمجموع لجميع الأشياء فى تطورها .. الله هو العقل Reason والعقل هو ذلك النسيج وذلك البناء للقانون الطبيعى الذى تتحرك الحياة أو الروح Spirit فى داخله وتنمو .. الله هو الروح والروح هى الحياة life .. والتاريخ هو نمو الروح Devrelopment of spirit ، أى أن التاريخ نمو الحياة ..ففى البدء تكون الحياة قوة غامضة لا تعى نفسها ، وعملية التاريخ انتقال الروح " أو الوعى الذاتى والحرية .. والحرية جوهر الحياة كالجاذبية التى هى جوهر الماء .. والتاريخ هو نمو الحرية وغايته أن تكون " الروح " حرة حرية مطلقة " ..

---

(١) كتاب الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام ، العقاد صـ ٨٦ ، (٢) نفس المرجع صـ ٨٩
(٣) نفس المرجع صـ ٩٣

وليس للعبقرية الفردية أو الجماعاية أدنى قيمة عند العقل المطلق فحسب الكل أن يخدمه أو يحقق إمكاناته ، فالوجود هو وجوده ، والحرية هى حريته . والحياة هى حياته ، يقول هيجل :" لا يؤثر عظماء (١) الرجال إلا حين يكونون آلات غير واعية لروح العصر .. وإذا لم يكن الفذ من العظماء مؤتلفا مع روح العصر ضاع ، ولعل الأولى به ألا يظهر إلى الوجود . إن العبقرى الذى يلقى الشهرة والنجاح قد لا يكون أعظم من أسلافة الذين وضعوا هم أيضا لبناتهم فى البناء . غير أن من حسن حظ ذلك العبقرى أنه جاء آخرهم فلم يكد يضع حجره فى البناء حتى استقام العقد . وليس لمثل هؤلاء الأفراد وعى بـ" الفكرة العامة " التى يبسطونها ولكنهم ينفذون ببصيرتهم إلى احتياجات زمانهم فيعروفون ما تهيأ نضجه للنمو فليس عظماء الرجال مبدعين بل شأنهم فى ذلك شأن القابلة التى تساعد الزمن على توليد ما هو موجود فى الرحم من قبل " .

ولكن هذا الجبروت الذى خلعه هيجل على العقل سرعان ما ينهار تحت ضربات فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ، فعنده أن الكارثة الكبرى أو الخطأ الأكبر هو أن نجعل من العقل هاديا لنا فى سبيلنا فى الحياة ، أو أن نجعل منه أداتنا فى العمل والبناء .. إن العقل ينفع فى شئ واحد هو أن نفسر به التاريخ فى مراحل الضعف والفساد وفى مراحل الانحلال الحضارى والتدهور الأخلاقى ؛ ومن ثم فإنه :" لو كانت الإنسانية (١) قد سارت حقا على مقتضى العقل ، أعنى على أساس أفكارها وعلمها إذن لكان قد قضى عليها منذ زمن طويل " .

إن التاريخ بناء وتغير وصيرورة :" وعقلنا لم يُهَيَّأ لإدراك الصيرورة (٢) وإنما هو ينجو نحو بيان الثبات العام " .. ولهذا فهوغير صالح لتفسير التاريخ فلا حاجة إليه إذن فى حياة الإنسان :" لأن (٣) عدم معقولية شئ من الأشياء ليست حجة ضد وجوده بل الأحرى أنها شرط لوجود هذا الشئ " .. إذن كيف يصلح

---

(١)المرجع السابق صـ٩٣ ، (٢) نفس المرجع صـ١١٢

العقل أن يكون مفسراً للتاريخ وهولا يهدى إلا إلى الوهم والضلال ؟

الحق :" أن ما يمكن تصوره عقليا لابد قطعا أن يكون وهما لا حقيقة له "

فما هو البديل لحياة الإنسان غير العقل ؟ مالبديل الذى نفسر به التاريخ غير العقل طالما أنه لايهدينا إلا إلى الوهم ؟ إن البديل هو " إرادة القوة " ، لا إرادة الحياة " ، كما تصور شوبنهور ، ولا إرادة تنازع القوة كما تخيل دارون .. فليست الحياة تنازع البقاء ، فتلك حالة شاذة وإنما تنازع القوة وتنازع السيطرة :" إن إرادة حفظ (٣) الحياة تعبير عن ضائقة ومازق وعن تضييق لغريزة الحياة الجوهرية الحقيقية التى هى التوسع فى القوة بل إن هذه الغريزة غالباً ماتجعل حفظ الحياة فى خطر وتضحى به والذى يسود الطبيعة ليس هو الضائقة والمازق بل الفيض والتبذير حتى إلى درجة الجنون .. وليس تنازع البقاء إلا حالة شاذة وتضييقا مؤقتا على إرادة الحياة ..فالنزاع الكبير منه والصغير يدور فى كل مكان ومن كل الوجوه حول القوة وتبعا لإرادة القوة التى هى إرادة الحياة " ..

وإذا كانت الأخلاق عند نيتشه :" هى العلم بأحوال السيطرة (٤) " ، فإن معنى هذا أن التاريخ لا يفسره غير إرادة القوة أو إرادة البطولة . ولعل منهاج نيتشة فى تفسير التاريخ بناء على مقولة :" إرادة القوة " ، يظهر بوضوح فى قوله :" فى أثناء رحلاتى التى قمت بها (٥) خلال أنواع الاخلاق الرفيعة أو الوضيعة التى سادت العالم والتى لا زالت تسوده حتى اليوم لا حظت وجود صفات معينه بدت مقرونه بعضها ببعض وظهرت دائما فى وقت واحد حتى أننى استطعت أن أكتشف وجود نوعين رئيسيين من الاخلاق مختلفين جوهريا : فهناك أخلاق للسادة وأخلاق للعبيد " .

فإذا جئنا إلى موقف العقاد من التفسير الإنسانى للتاريخ وجدناه يؤمن به غاية الإيمان ولكن على شاكلة تتفق وطبيعته الإيمانية والفكرية كما تتفق

(١)، المرجع السابق ، ص ١١٢ ، (٢) نفس المرجع صـ ١١١ ، (٣) ، (٤) المرجع السابق صـ ١١٢

وطبيعته الشخصية ومزاجه النفسى .. ونود أن ننبه - وإن كان التنبيه هنا رجع من القول - إلى أنه لا ينبغى أن ينصرف الذهن إلى أن العقاد كان يتخذ من الإنسان مبدأ لتفسير التاريخ عى غرار ما اصطنعه كارليل فى إيمانه بالبطولة والآبطال أوعلى غرار ما اصطنعه نيتشه فى إيمانه بالإنسان الأعلى " أو السوبر مان " الذى جعل منه وسيلته المثلى فى إعادة تشكيل الحضارة أو إعادة خلقها من جديد .وكذلك لم يكن العقاد على شاكلة المتسامين بالفرد بعامة ، أو المتسامين بالمجتمع بعامة .

قدر العقاد الفردية بغير شك .. وقدر البطولة بعير شك .. ولكنه فى كل منها لم يعط الفردية ما يزيد على حقها فى التقدير والتقويم والتعظيم بما يخرجها أو يخرج صاحبها من دنيا الناس ليدخلها فى ملكوت لا يتصل بهذه الدنيا بسبب من الأسباب

قدر العقاد الفرد فلم يبخسه حقه .. ودافع عن ذلك الحق بقدر ما يستطيع ، وكان مخلصا عاية الإخلاص فى استخلاص الحجة ودعمها بسند من منطق الفكر القويم .. وسواء هو فى تقديره أو تقويمه فقد كان ينزع إلى أن يتبوأ الإنسان مكانته حتى يتمكن من الإسهام فى بناء مجتمعه وإسعاد أمته وإنسانيته .. ومن هنا كان إيمانه - وهوالذى عارض العنصرية وأوضخ زيفها - بقدرة الإنسان على الأنتفاع بما تهيئه له فطرته وبيئته وعصره ؛ شريطة أن يكون الانتفاع متزنا غير متطرف مع جانب دون أخر ..

فالخلق الموروث يصير عبثا مدمرا مالم يسنده خلق مكتسب يعينه على تحقيق الخير بما يفيد ذاته وغيره ومجتمعه فالخلق :" لا [1] يلغى المزايا الفردية ولا ينقص من قدر الفرد فى الانتفاع بما ورث مع اختلاف الزمن وتبدل المواطن والمناسبات التى ينتفع فبها بتلك المزايا .. فإذا استطاع الفرد فى الجيل الحاضر أن يستخدم مزاياه الموروثة التى كانت نافعة لآ بائه قبل جيل أو جيلين فلابد من

(١) نفس المرجع صـ١٨

فضل له فى حسن الاستخدام وحسن الاحتفاظ بما آل إليه من تراث الأقدمين .
وإذا كان الحطام الموروث قابلا للضياع أو كان الغالب عليه أن يضيع ولا يبقى
فالأخلاق الموروثة تضيع كما يضيع الحطام إذا آلت إلى المفرط فيها والعاجز عن صيانتها .

وقد توضع الفطنة فى غير موضعها فتضر ولا تنفع ، وتجور الشهوات على
الجثمان القوى فتنهكه ، وقد يكون الشعور بالقوة من بواعث الشطط والتمادى
فى الغواية . وقد كان مساك الاعتدال فى خلائق الآباء والاجداد "..

ويبدوا أن إيمان العقاد بالفردية - على ألا تكون فردية متعالية أو متسامية
على الغير بما يخرجها عن إنسانيتها - كان متمكنا من فكره وشعوره حتى أنه
جعله معياره الوحيد فى تفسير التاريخ وتعليل أطواره واتجاه مساره .

فهو يرى - وقد أوجز كل تنظيرات وتحليلات المذاهب الاجتماعية أن : "
الفارق بين المذاهب [1] الاجتماعية أو المذاهب السياسية إذا شئت أن تسميها
بالسياسية هو فارق واحد يهديك بينها جميعا ولو بلغت المئات والألوف فى
الحرية الفردية أو هو الفارق فى التبعة التى يحملها الفرد فى علاقته بأمته
وبعالم الإنسان على اتساعه فاحسبها مائة مذهب أو ألف مدهب أو مافوق هذا -
أو مادون ذلك . فإنما هى فى النهاية مذهبان إثنان : مذهب يقدس الحرية
الفردية ومذهب يستخف بها تقديسان لسلطان الدولة أو سيادة الزعيم ولا عبرة
باختلاف الأسماء والعناوين " . .

ويؤكد العقاد أن ميزان الحرية الفردية هو أصدق الموازين جميعا فى تفسير
التاريخ وتقويم ظواهره وتعليل أحداثه ؛ فالحقيقة : " أن التاريخ [1] لم يستقم
قط فى اتجاه واحد كما استقام فى اتجاه الحرية الفردية أو فى اتجاه انهوض بالتبعة
وكذلك الأخلاق ، فمنذ آمن الإنسان بروحه وعلم أنه مثاباً على عمله لم يكن
له تقدم قط إلا فى هذا الاتجاه ولم تقم على غير هذا الطريق قائمة من الأديان
والأخلاق والحركات الاجتماعية فى كل زمان وبين كل قبيلة . .

(١) كتاب : فى بيتى صـ ٤٢

فما تفاضل عصران ، ولا امتاز شعبان ولا فردان ولا خلقان إلا استطعت أن تحكم بينهما بميزة التبعة أو الحرية الفردية .. ولن يكون الراجح بينهما إلا أوفر الطرفين نصيبا من تلك التبعة أو تلك الحرية " ..

ومن هذا المنطلق ، منطلق الحرية الفردية مفهومة على هذا الوجه يفسر العقاد التاريخ تفسيره الإنسانى ،، فيتساءل أولا : " هل للتاريخ[2] وجهة معينة نستطيع أن نتبينها من جملة الحوادث الماضية ؟" .. ثم يرد قائلا : " إنه سؤال يتوقف جوابه على سؤال آخر ، وهو : ماذا يمكن أن تكون وجهة التاريخ المعقولة إذا تخيلنا له اتجاها يتوخاه على نهج مرسوم " ؟ .

ثم يجيب بما يتضمن إيمانه بالفرد وحريته وبالتآصر الإنسانى كنتيجة تلقائية للإيمان بحرية الإنسان ؛ فيقول : " إنه شئ [3] يتعلق بالإنسان الفرد وشئ يتعلق بالناس كافة أو بالإنسانية جمعاء .. فالشئ الذى يتعلق بالإنسان الفرد هو ازدياد نصيبه من الحرية والتبعية والشئ الذى يتعلق بالإنسانية جمعاء هو ازدياد نصيبها من التعاون والإتصال .. وزيادة نصيب الفرد من الحرية والتبعة هو المطلب الشامل الذى تنطوى فيه جميع المطالب " ..

ولهذا كان لابد من أن تكون الحرية الفردية حرية تآصر وتناسق بين الأعمال والاتجاهات حتى يتحقق التعارف الإنسانى أو الوحدة العالمية التى يتحقق بها السلام العالمى .. فلا نجاة للعالم ولا خلاص : " إلا بهذا الترياق الوحيد [4] حيثما أعضلت عليه مشكلة فى السياسة أو فى المعيشة أو فى الحكومة أو فى الأخلاق .. والتعاون بين الأمم كبارها وصغارها والتعاون بين الطبقات غنيها وفقيرها والتعاون بين السلطات والتعاون بين الأفراد .. ولا اختيار للناس فى تعاطى هذا الترياق لأنهم مدفوعون إليه مقسورون عليه بعد نزاع بين الأمم ونزاع بين الطبقات ونزاع

---

(١) كتاب : فى بيتى ، صـ٤٢ ، (٢) كتاب : غاندى صـ٥ (٣) كتاب : عاندى صـ ٥ ،

(٤) كتاب فى بيتى صـ٤٩ ، ٥٠ .

بين الحكماء والمحكومين " ..

ومن هنا فقد جاء تفسير العقاد للتاريخ فى أطواره وفق حصة الفرد من الحرية والتبعة فى كل طور أو كل مرحلة : " فالإنسان [1] الفرد قبل نشأة القبيلة لم يكن له حق يدافع عنه أو واجب يلتزم به ولذلك فإنه لم ينل من الحرية إلا بمقدار ما أهمله المعتدون عليه .. فلما نشأت القبيلة لم يكن من الحقوق سوى حق القبيلة .. فلما نشأت الأمم نشأ معها الاعتراف بحرية الفرد " ..

ويجب أن ندرك جيدا أن العقاد لم يكن طوبا ويا مغرقا فى الأحلام الطوباوية ..

ولكنه كان مفكرا عميق النظر حى الشعور وعلى وعى مكين بطبيعة الفطرة الإنسانية فى نزعاتها وشهواتها . ولذلك كان تحوُّطه واحتراسه من الوحدة العالمية أو التعاون العالمى ومن ثم فهو لا يزعم : أن هذا : " التعاون [2] سيبطل كل شكاية ويوفر كل مطلب وينصف كل محروم فإن نظاما من النظم لن يكفل هذا " الفردوس " لبنى الإنسان أبد الأبيد وآخر الزمان ولو أنه كفله لكان وبالا عليهم لأن الأمان من كل قلق مدعاة للتواكل والخنوع ولأن الناس ما عملوا قط إلا وفى جوانحهم بعض الخوف وبعض النزوع إلى التغيير .

وهب أن بعض القلق لا يفيد هذه الفائدة فى حياة الأفراد والجماعات ، فهل يكون القلق اليسير ثمنا كبيرا لحرية الفرد وإطلاق المجال لسباق الهمم والآمال ؟ " ..

ومما تجدر ملاحظته أن الفردية عند العقاد ذات درجتين أو قيمتين وهما :

فردية الإنسان العادى ، وفردية العظيم .. ولا تمايز بينهما إلا بمقدار ما على ك منهما من تبعة . ولئن كان الحق فى الحرية والحياة الكريمة مما لا يختص به الفرد وحده إلا أن الإنسان العظيم هو المبدأ الإنسانى الذى يفسر التاريخ ..

فما هى الخصائص النفسية والأخلاقية التى يجب أن تتوافر فى الإنسان

(١)،(٢) كتاب فى بيتى صـ ٤٩ ، ٥٠

العظيم أو الفرد العظيم حتى يكون كفاء دوره التاريخى ؟.. إن العظيم ليس :" عظيما إلا لأنه أكبر من البيئة [1] المحيطة به وأعلى مطلبا من أن يندس فيها كما يندس سائر الناس ، فإذا رأيته بعد تجربته للناس يقدم على تجربتها مرة أخرى وثالثة ورابعة فذاك لأن قوته لا يحدها زمنه ولا ينتهى أملها عند معرفة ما يطلبه لنفسه .. وما هو فى الحقيقة بغر إلا من وجهة النظر إلى مصالحه الخاصة .. أما إذا كان مقياس الحكمة فى اعتبارنا هو أن يقيس الانسان قوته على قوة بيئته فالبطل هو المثل الأعلى للعقل الحى لأنه فى الحقيقة لا يمنعه أن يخضع للواقع إلا لهذا السبب وهو أنه قاس قوته على القوى المحيطة به فوجد ـ شاعراً بذلك أو غير ذلك ـ أنه قمين أن يكافحها ولا يخضع لها .. وما دام بينه وبين دنياه هذا الكفاح فهو الطفل الكبير الذى تعاوده الغرارة ولا يفرغ من التجربة " .

ولذلك كانت الميزة الكبرى التى يتصف بها عظماء الإنسانية هى صفة الإيثار ، والإيثار فى طبيعته تضحيه وفداء وتعاطف كريم .. إنه أقوم دلالة على عظمة االعظيم وعلى خطورة دوره فى مسيرة التاريخ :" فإذا تعادلت [2] كفاءات العقل واللسان وكفاءات العزم والعمل فيس فى الميزان الإنسانى أصدق من وزنة الإيثار للمفاضله بين المتقاربين فى الأعمال والأقدار " ..

فالإيثار لا يصبح سمة يتميز بها العظيم ما لم يكن إيثاراً تاريخيا له عمله التاريخى وأبعاده الثورية فى مظاهر الحضارة وأوضاعها الإجتماعية ..

ولكن إذا فسرنا التاريخ بمقياس العظمة الإنسانية ممثلة ومجسدة فى شخصيه معينة ، ألا نكون بهذا قد فسرنا التاريخ بمقياس الأنانية الحية ، إن أجيز هذا التعبير ؟.. وإذا كان هذا صحيحا فهل أنانية الفرد العظيم صاحب الدور التاريخى من نوع خاص أو مرتبة خاصة ؟.. : لقد اعتاد الناس [1] أن ينظروا إلى الأنانية كأنها أحبولة تنصبها الحياة لتصطاد بها الحى ؟ إننا نعلم أن الحى لم يطلب الحياة ولم يدع إليها ولكنها هى التى طلبته ودعته إليها فالأولى أن تكون هى التى تخدعه بالأنانية لتقنعه بأنه رابح منها وتضطره إلى الصبر على ملازمتها

---

(١) كتاب : الفصول صـ ١٩٧ ، (٢) كتاب : فى بيتى صـ ٩١

وليقرر ذك فى أفهامنا .

نفرض أن الأحياء خلقوا بلا أنانية ألا تراهم حينئذ يخلعون ثوب الوجود لأول صدمة يلقونها فى سبيله ويرونه أهون عليهم من أن يصبروا له على ألم أو يتعللوا من أجله برجاء ؟ وإذا فعلوا ألا تكون الخسارة إذن كونية عامة لا أنانية محصورة ؟ فالأنانية الصحيحه هى الإيثار الأكبر فى هذا الوجود .. والذى يعمل " لمصلحة " إنما يعمل لشئ أكبر منه فى الحقيقة ولهذا تتقارب الأنانية الغيرية فى النفوس العظيمة حتى يوشك أن لا يختلفا ولا يمكن الفصل بينهما " ..

ويبقى الأثر التاريخى الأكبر الذى تقاس به عظمة العظيم .. فنجاح العظيم فى حركته التاريخية يقاس بمقدار الفائدة التى تعم الناس وينتشر خيرها بينهم ، وبذلك يكون عمله إنسانيا وتاريخيا :" فالنجاح (٢) فى الحركات التاريخية لن يسمى نجاحا إذا لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد .. فإذا قيل إن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت فمغزى ذلك بداهة أن القائمين بها يذهبون وهى الباقية بعد ذهابهم " ..

ولقد يوحى تقدير العقاد للفرد والحرية الفردية على هذا النحو أنه كان على سنة الذين لا يجعلون للمجتمع سوى أثر سلبى فى بناء الإنسان وصقله نفسيا وفكريا وأخلاقيا وكأن المجتمع أفراد متناثرون ، كل فرد بمعزل عن الآخر لا يتعارف عليه ولا يتعامل معه إلا لضرورة .

ولكن العقاد قد جعل للفرد حقه وواجبه .. وجعل للمجتمع حقه وواجبه .. وفى تصوره أن الخطر الأكبر يكمن فى استئثار أى من الطرفين بالحق كله أو بالواجب كله فإنه بذلك الإستئثار المطلق يضيع الفرد لا محالة أو يضيع المجتمع لا محاله .." ومناط الأمر كله [١] هو أن يحسب " للمسئوليه الشخصية " كل حساب ونحن نقدر ما ينبغى للفرد من حقوق أو ما يكون للمجتمع من حقوق " .. هكذا جاء التفسير الإنسانى التاريخ كما تصوره العقاد .. وهو تصور قائم على منطق العقل الحى والشعور الصادق بالحياة فى وحدتها الكبرى .

(١) كتاب : الفصول صـ ٢٨٦ ، (٢) كتاب :أبو الشهداء صـ ١١

التفسير الدينى للتاريخ

الدين هو فطرة الإنسان . .

فطره الله عليه منذ نشأته الأولى وسيظل به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . .

وإننا حين نستقرئ تاريخ الحضارة الإنسانية منذ فجرها الأول فإننا نجد أن الدين هو باعثها ومفجر إمكاناتها ، ومحقق ظواهرها الفكرية والاجتماعية والصناعية والأخلاقية بل الشعورية . . فلا كيان للإناسان إلا بالدين ، ولا كيان للمجتمع إلا بالدين . . ولا كيان للإنسانية إلا بالدين .

فانظر إلى الدين من حيث وجوده وقوته أو ضعفه فى النفوس وتخاذلها أو تغافلها عن الأخذ بمبادئه وقيمه ، فإنك تستطيع أن ترجع كل الظواهر الحضارية إليه وحده . . فالمؤرخ الفرنسى فوستل دى كولانغ يؤكد فى كتابه :" المدينة العتيقة " أن : الأفكار الدينية هى الباعث الأساسى للتغير الإجتماعى . .

وكذلك عالم الاجتماع بنيامين كيد (١٨٥٨ - ١٩١٦) ، الذى حاول أن يؤصل العلاقة بين الدين والنظرية التطورية . فذهب فى كتابه :" التطور الاجتماعى " ، إلى أن :" العقل لا يمكن أن يكون السبب [1] الأساسى فى التقدم ذلك لأنه يكسب الإنسان نزعة فردية غير اجتماعية بينما التطور فى جوهره اجتماعى يستهدف تحقيق مزيد من الترابط الاجتماعى . لذلك كانت القوة الوحيدة المؤثرة فى التقدم هى الدين الذى يحاط بجزاءات فوق طبيعية ويدعم الأخلاق الغيرية . .وإذن فالدين هو الرباط الذى يوجد بين الأجيال ويحقق التكامل بين المجتمعات وينقذ الحضارة من الأخطار الكبرى . .والدين فوق ذلك كله هو الذى منع حدوث تفكك اجتماعى كامل خلال القرون الأولى للمسيحية . فقد نهضت الحضارة فى العصور الوسطى على أسس دينية كما أن

---

(١) كتاب : نظرية علم الإجتماع ، تاليف : نيقولا تيماشيف : ترجمة : محمود عودة وآخرون صـ ١٤٦

الدين الذى تفرع عن المذهب البروتستانتى هو الذى عمل على انتشار الحريات السياسية والاقتصادية . فالدين وحده هو الذى سيسمح بوجود تقدم اجتماعى مستمر " . . غير أن دور كايم عام الاجتماع اليهودى الفرنسى (١٨٥٨ - ١٩١٧) ، يقلب الآية فيرجع الدين إلى المجتمع ؛ ويقول فى كتابه : " الصور الأولية للحياة الدينية " : " إن الرموز [1] المقدسة للمعتقدات والممارسات الدينية لا يمكن أن تشير إلى أى شئ يخرج عن نطاق الواقع الأخلاقى مثل البيئة الطبيعية أو الطبيعة الإنسانية للفرد ويرجع ذلك إلى الحياة الجمعية فهى مصدر الدين وهى تحدد موضوعه . . فالمقدس إذن مشخص فى قاع المجتمع " .

والواقع كما يقول تيماشيف فى كتابه : " نظرية علم الاجتماع : " أن التفسير [2] السوسيولوجى العلمانى للدين يستند إلى فكرة أساسية تتلخص فى أن هناك نوعا من التماثل فيما يتعلق باتجاهات الناس نحو الله والمجتمع . فكلاهما يخلق لدى الفرد إحساساً بالألوهية . وهما كذلك يتمتعان بسلطة أخلاقية ويدفعن الإنسان إلى الإخلاص والتضحية بالذات وهما كذلك يكسبان الفرد سلوكا غير عادى . ومعنى ذلك كله أن شعور الفرد بالاعتماد على قوة أخلاقية خارجة عنه لا يفسر بأنه استجاب لضرب من الوهم والخيال ، بل أن ذلك فى الواقع نتيجة مترتبة على عضويته فى المجتمع . ويخلص دور كايم من دراسته هذه إلى أن الوظيفة الأساسية للدين تتمثل فى تحقيق التضامن الاجتماعى وتدعيم والمحافظة عليه بل إنه يؤكد فوق ذلك كله أن الدين سوف يبقى طالما بقى للمجتمع بقاؤه واستمراره " .

وفضلا عن هذا نستطيع أن نقول أن قد كان للسيحية فضل كبير فى تطوير معنى التفسير الديني للتاريخ والغاية منه . . وقد كان ذك نقلة كبيرة بغير شك سواء فى كتابة التاريخ أو فى فلسفة التفسير الدينى للتاريخ . . يرى كولنجوود

---

(١) ، (٢) المرجع السابق ، صـ ١٧٩

في كتابه : " فكرة التاريخ : : " أن المسيحية [1] قد استحدثت فكرتين من الأفكار الرئيسية في كتابة التاريخ عند الإغريق والرومان .

أولهما : فكرة التفاؤل بالطبيعة الإنسانية . .

وثانيتهما تستند إلى " جوهر " الأشياء ، وتقول بقيم أبدية تكمن وراء عملية التغيير االتاريخي " . . ثم يقول : " وكان من نتيجة مجئ الأفكار المسيحية أن ظهرت نزعة جديدة نحو التاريخ تذهب إلى أن نشاط الأحداث التاريخية ليس من قبيل النشاط الإنساني وإنما هو إقرار لمشيئة الله " . " . .وهذه النظرية الجديدة [2] للتاريخ لا تسيرلنا الوقوف عى حقيقة نشاط القوى التاريخية فحسب ، وإنما يفس لنا كذلك حياة وطبيعة القوى نفسها بوصفها الأساليب التي ابتدعتها الأهداف الإلهية ومن ثم كانت لها أهميتها التاريخية " . .

ويعقب كولنجوود على التفسير المسيحي للتاريخ بقوله : " وهنا يجد [3] الإنسان نفسه متضمنا في سريان هذا النظام وإقرار المشيئة الإلهية سيان قبل أو لم يقبل . . فالتاريخ بوصفه مشيئة الله ينتظم الأحداث ونشاطها ، ثم هو لا يعتمد في تنظيمه هذا على إرادة إنسانية تستحدث هذا التنظيم .

إنك لتجد أن الخطط تظهر ثم لا تلبث أن تسير صوب التنفيذ ولكنها خطط لم يقم بوضعها إنسان ، وحتى لوخيل لبعضهم أنه يحول بين هذه الخطط وبين إقرارها فهو في الواقع يساهم في تنفيذها " . .

وبعد هذا ، فكيف كان موفق العقاد من التفسير الديني للتاريخ ؟

لعرض هذا الجانب لابد أن نعرف أولا موقفه من الدين بعامة . .وأن نعرف ثانيا أبعاد إيمانه بالله سبحانه وبالإسلام عقيدة وشريعة . فإذا عرفنا هذين الجانبين استطعنا أن نعرف ما إذا كان يؤمن بالدين كمبدأ من مبادئ التفسير التاريخي

---

(١) الكتاب من ترجمة د/ محمد بكير خليل ، صـ ١٠٣ ، (٣) المرجع السابق صـ ١١٢

(٤) نفس المرجع صـ ١٠٧

.. وعلى أى منهاج اصطنعه فى التفسير والتعليل .

فما هى أولا طبيعة إيمان العقاد بالله سبحانه ؟

لقد قال : " أو من بالله .. أومن به [1] وراثة وشعورا وبعد تفكير طويل " .. إذن فإيمان العقاد مكتمل الجوانب ، مكتمل الخصائص التى لابد أن تكون راسخة أصلية عند إنسان عميق الفكر ، عميق الشعور بالحياة ،، آمن بالله وراثة : وإيمان الوراثة هو إيمان الناس بعامة ، الفضل فيه للذين ورثوهم وأرضعوهم شعائر الدين وقواعده " .. أما الإيمان عن شعور فإنه لا يأتى إلا لمن كان فى وجدانه عامر الشعور بالحياة حبا وتقديرا وتعظيما .. ومن ثم يقول العقاد عن إيمانه شعورا : " أما الإيمان [2] بالشعور فذاك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان فى الحس والتصور والشعور بالغيب . وربما كان ؛ وعى الحياة " شعبة من " وعى الكون " أومن "الوعى الكونى " الذى يتعلق به كل شعور بعظمة خالق العالم .. والوعى الحيوى مصدر النفس والوعى الكونى مصدر الدين " .

والمعيار الأكبر هو الإيمان بالله إيمان تفكر وتدبر ، وفى هذا يتخالف المفكرون ويتمايزون : فقد ينتهى التفكير إلى الإبتكار والتعطيل ، وقد ينتهى إلى الإيمان والتسليم . ومع ذلك فقد لا يكون الإيمان والتسليم عن تصور للألوهية صادق قويم . إذ ربما كان منحرفا إلى جانب واحد من صفات الألوهية منكراً لجوانب آخرى . ونحن فى جميع هذه الأحوال : الإنكار ، أو التسليم المنحرف ، أو الإيمان الصادق القويم نجد تصورات متخالفة للكون والحياة والناس ، أو التاريخ بعامة ..

فكيف كان الإيمان الفكرى عند العقاد ؟

كيف كانت مواصفاته ؟

وكيف كانت نظرته إلى الحياة بناء على هذا الإيمان ؟

---

(١) كتاب : أنا صـ ١٩٥ ، (٣) نفس المرجع صـ ١٩٥

يقول الأستاذ العقاد : " أما الإيمان بالله [١] بعد تفكر طويل فخلاصته أن تفسير الخليقة بمشيئة الخالق المريد أوضح من كل تفسير يقول به الماديون . وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل من تناقض لا ينتهى إلى توفيق لا ينتهى أو يلجئه إلى زعم لا يقوم عليه دليل وقد يهون معه تصديق اسخف الخرافات والأساطير فضلا على تصديق العقائد الدينية وتصديق الرسل والدعاة .. فالقول بالتطور فى عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شئ جديد فى العالم .. وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ فى اللسان فضلا عن الفكر والخيال ..

والقول بالارتقاء الدائم عن طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وخوارق العادات فى تركيب الأجسام والأحياء .

والقول بأن المادة تخلق العقل كالقول بأن الحجر يخلق البيت وأن البيت يخلق الساكن فيه .. وأيسر من ذلك عقلا ، بل ألزم من ذلك عقلا أن يقال إن العقل والمادة موجودان وأن أحدهما يسبق الآخر ويخلقه هو العقل لأن المادة لا توجد من هو أفضل منها وفاقد الشئ لا يعطيه .. فأنا أومن بالله وراثة ، وأومن بالله شعورا .. وأمن بالله بعد تفكر طويل "

وفى هذا البيان الذى أراد به العقاد أن يبرهن عقليا على وجود الله سبحانه ، نجد أنه قد فسر وجود الحياة الإنسانية والطبيعية بظواهرها وأطوارهما تفسيرا دينياً فى لبا به .. ذلك أنه يبحث عن الإيمان ويريد أن يطمن فكرا وشعورا على أنه سبحانه موجود ، وأنه جل شأنه خالق الوجود ، فكان منطقياً أن يتخذ من أطوار التاريخ الإنسانى والطبيعى دلائل على وجود الله سبحانه .

وإنه لمن البدهى أن يجعل من الإيمان بالله أو الدين بعامة محركاً للوجود الحضارى للإنسانية فيبعث الفكر الإنسانى ويستنهض الإرادة الإنسانية لعمل من

أجل الحضارة والارتقاء بها .. ولهذا فإن العقاد يصطنع من الدين منهاجاً لتفسير التاريخ فيقول : " إن تجارب [١] التاريخ تقرر لنا أصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى والا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شئ تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه فى علاقاته بتلك الجماعة أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ولو كانوا من أقرب الناس إليه .. ويقرر التاريخ أنه لم يكن قط عامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين وكل ماعداه من العوامل م المؤثرة فى حركات الأمم فإنها تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة " ..

ثم جاء تاكيد العقاد مرة ثانية على أن المعايير التى نقيس بها الأحداث الكبرى للتاريخ أو نفسر أطواره لا تغنى غناء تاما عن مقياس العقيدة الدينية فهو أرفاها وأشملها لأنه يضمها فى ذاته ويجعلها حزءا منه .. يقول العقاد :" إن الحوادث الكبرى [٢] تستدعى المقارنة بين فهمنا لها بمقاييس العلم ومقاييس الفلسفة ومقاييس العقدة .. وتوحى إلينا فى جميع الأحوال أن مقاييس العقيدة أخلصها إلى أعماقها وأقدرها على التفسير كلما استجاشت العقيدة فى الأمم قوة الحياة وقوة الضمير " ..

ولا غرابة بعد هذا حين يؤمن العقاد بان الإسلام هو العقيدة التى تصلح وحدها لتفسير التاريخ ومن ثم : فهو الذى يفضل العقائد جميعا فى خلق الإنسان التاريخى الذى يرتقى بالمسيرة الإنسانية إلى خير ما يرجى لها وما يرجى منها ..

---

(١) كتاب :حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، صـ ١٥

التزييف المقصود

(أ). معنى التزييف المقصود

(ب). العمليات الأولى والأوليه للتزييف اليهودى

(جـ). عمليات التزييف الحديثة

معنى التزييف المقصود

للحديث عن التزييف المقصود لابد لنا أولا من أن نحدد ماهية التزييف المقصود فى ذاته : فالتزييف المقصود فى ذاته هو طمس لحقيقة راسخة أصيلة من أجل إحلال فِرْية أو أكذوبة محلها لغاية مدبرة .. وهى أكذوبة بغير شك فى ضمير صاحبها ولكنه لا يحتجز ها لذاته .. لأن معنى الكذب أن يكذب على الغير تحقيق غاية باستبدال واقع بواقع آخر .. وبهذا المفهوم كان لابد أن تختلف أساليب التزييف باختلاف المقاصد ، كما تختلف درجات التزييف باختلاف طبيعة القائمين بها ومكانتهم الاجتماعية ومبلغهم من العلم ومبلغهم من الحضارة والاستنارة ..

ومن هنا كان لابد من أن تتوافر فى المزيف المتعمد للتزييف خصائص نفسية تتواءم وتتلاءم وتعين على تنفيذ التزييف وتتلخص هذه الخصائص النفسية فى ثلاث :

أولا : شهوة الحصول على غنيمة بغير وجه حق .

ثانيا : فساد الضمير فى سبيل الحصول على الغنيمة .

ثالثا : استباحة كل رذيلة أو موبقة .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

العمليات الأولى والأولية للتزييف اليهودى

حقائق تاريخية زيفها اليهود

وبناء على هذا فإننا نقول إن التزييف الأكبر هو ما اقترفه اليهود فى حق العرب وجودا ، وكيانا ، وعقيدة وشريعة وحضارة . . ومن هنا جاء تزييفهم للتوارة الذى أصبح كتابهم ووصلوا به أو أوصلوه إلى مقام التقديس الذى لا يمارى فيه إلا كل معاند حقود . . ومن ثم فإننا نسوق حقيقة تاريخية لابد من الأخذ بها وتقديرها والنأى بها عن التشكيك والارتياب . .وهى :

أن التوراة لم تسجل إلا بعد موت موسى ﷺ بحوالى ثمانمائة سنة أو يزيد ؛ فظلت تتناقل شفاها طيلة هذه المدة تتعرض خلالها لا للتنقيح والتهذيب ولكن للحذف والإضافة التى اتفقت مع الدرجة الفكرية والثقافية التى كان عليها كهان اليهود والتى اتفقت مع هواهم الذى هو فى لبابه رفع اليهود إلى المقام المقدس الأسنى فوق كل العقائد والشعائر وفوق كل الجماعات البشرية التى كانت تعمر المنطقة العربية . ومن هنا كان أن طفحت التوراة التى نسميها بالتوارة المزعومة ـ لأن التوراة الأصلية تكاد تكون قد اختفت من كتب اليهود ـ أجل ، طفحت بفيض زاخر من التخريف التاريخى المختلق ، والذى لم يثبت لا جغرافيا ولا إنسانيا ولا حضاريا أمام الدراسات التاريخية التى انتهجت سبيل النزاهة فى التقويم والدقة فى البحث والتقصى .

ومن هنا اكتسب ذك الكلام صبغة القداسة التى لا يمارى فيها أحد من اليهود . . فكان أن رسخ فى الأذهان والضمائر أن ما جاء فى تلك التوراة هو كتاب البشرية الأقدس

وقد عمد اليهود منذ نشأتهم الأولى ، ومنذ عمليات التحريف المتصل والدءوب إلى تسجيل ثلاث حقائق هى :

أولا : أن سام بن نوح عليه السلام هو وحده والد اليهود وحدهم لا يشاركهم فى أبوته أحد سواهم . ومن ثم فهو ليس أبا العرب أجمعين وذلك هو التزييف للمسيرة التاريخية الاجتماعية للسامية .

ثانيا : أن إبراهيم عليه السلام الذى هو والد العرب أجمعين لم يزد عن كونه رجلا تقيا صالحاً وزعيما لقبيلة تنقل بها من مكان لآخر طلبا للأمان وسعيا للرزق . .

ومن ثم فلم يكن صاحب دعوة دينية ولذلك فقد ضرب اليهود صفحا متعمدين عما كان له من صحف أو كتاب التوراة المزعومة هى الكتاب العمدة لهم علما بأن القرآن الكريم قد ذكر أن قد كان لكل من إبراهيم وموسى عليهما السلام صحفا ، فقال سبحانه ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ** ﴾ . (١٤ ١٩ سورة الأعلى) . . ويأتى القرآن الكريم بتذكير الكافرين بصحف إبراهيم وموسى ؛ فقال سبحانه ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ** ﴾ . (١٣٣ سورة طه) . .

ثالثا : أن اليهود طالما أنهم وحدهم الساميون فإن من حقهم أن يستولوا على كل المنطقة العربية التى خطرت فيها أقدامهم والتى وعدوا بها من لدن الرب المعبود . .

أما عن أدعاء السامية لهم وحدهم وإقصاء العرب عن دائرتها فقد فضحهم كتابهم المقدس من حيث لا يدركون . . جاء فى الإصحاح التاسع : " وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث . . وحام هو أبو كنعان . هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت الأرض " فكأن اليهود ليسوا هم وحدهم أبناء سام . ثم يفرض اليهود العبودية على غيرهم فجاء فى الإصحاح التاسع : وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر

فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو منعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراد وسترا عورة أبيهما ووجها هما إلى الوراء .. فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته .

وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله ليافث فليسكن فى مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم " .. وجاء فى الإصحاح العاشر :" وهذه مواليد بنى نوح سام وحام ويافث . وولدلهم بنون بعد الطوفان " .. من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم بأراضيهم ، كل إنسان كلماته حسب قبائلهم بأممهم " ..

إذن فلا تقتصر السامية على اليهود وحدهم بل هم أضأل الفروع منها ..

ويجتمع التزييف والجهل فيما جاء فى الإصحاح الحادى عشر ك" وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة وحدث فى ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك . وقل بعضهم لبعض : هلم نصنع لِنْا ونشويه شيا . فكان لهم اللبن مكان الحجر . وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء . ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض . فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها . وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذ ابتداؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه .

هلم ننزل ونبلبل هناك؛ لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض . فكفوا عن بنيان المدينة . لذلك دُعِىَ اسمها بابل .

لأن الرب هناك بلبل لسانَ كل الأرض . ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض ولم يشأ اليهود إلا أن يلعوا الوجود البابلى والحضارة البابلية التى كان لها تأثير كبير فى حياتهم وفى حياة الحضارات الأخرى من شرقية وغربية وما ذلك إلا لأن البابليين كانوا فرعا كبيرا من الفروع السامية كان لهم دورهم وخطرهم فى

اللغات اسامية والآداب السامية . . ومن ثم فلم يشأ اليهود إلا أن ينفوهم نفيا تاما حتى لا يقوم لذكرهم ذكر : ألم :" يبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض "؟ . . ولم يعرف أولئك الجهال الذين دونوا التوراة وزيفوها حسب ما يشتهون أن " بابل " لا تنسب إلى البلبلة بل تنسب إلى " باب أيل " ، أى باب الله وهكذا شاء اليهود فى تزييفهم أن يخفوا كل أثر للبابليين جنسا وأصلا ونسبا . .

نأتى بعد هذا إلى مسيرة إبراهيم ﷺ لنرى كيف دأب اليهود على نسبة السامية لهم وحدهم وأنهم وحدهم الذين اختصوا بشرف الانتساب إليها فليس لأحد سواهم أن ينتسب إليها ويغار عليها . . فتارح هو أبو إبراهيم ﷺ وكا ن يعمل بصناعة تماثيل الآلهة بمدينة أور الكلدانيين (والكلدان ساميون) . .

وهنا يرتفع سفر التكوين بنسب إبراهيم إلى سام بن نوح فهو :" إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن أرفكشاد بن سام بن نوح " . . وذكر الإصحاح العاشر أبناء تارح فقال إنه ولد :" إبرام وناحور وحاران ،وأن حاران ولد لوطا ومات قبل أبيه فى أرض ميلاده " أور الكلدانيين " وأن إبرام وناحور اتخذا لهما زوجتين :

اسمهما ساراى وملكه بنت حاران . أما ساراى فهى بنت تارح من زوجة أخرى كما جاء فى الإصحاح العشرين على لسان إبراهيم :" وبالحقيقة أيضا هى أختى ابنة أبى غير أنها ليست ابنة أمى فصارت لى زوجة " . . وجاء فى الإصحاح الحادى عشر أن " تارح أخذ إبرام إبنه ولوطا ابن حاران وساراى فخرجوا معا من أور الكلدنيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى أرض حاران وأقاموا هناك وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ومات فى حاران " . .ثم جاء فى الإصحاح الثانى عشر أن الرب قال لإبرام :" اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة وآباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة . وأبارك من يباركك ومن يلعنك ألعنه وفيك تتبارك

جميع قبائل الأرض .. فذهب إبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط .. وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حاران فأتوا إلى أرض كنعان ومعهم ذخائر وعبيد وماشة .

واختار إبرام مسكنه من شكيم إلى بلوطة مورة وفيها الكنعانيون "..." وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض فبنى هناك مذبحا للرب الذي ظهر له ثم انتقل من هناك إلى الجبل ونصب خيمته شرقا من بيت أيل بين بيت أيل من المغرب وملاى من الشرق ، ثم والى رحلته إلى الجنوب "." وحدثت مجاعة فى الأرض فانحدر إبرام إلى مصر وقال لساراى امرأته وهو على مقربة من مصر : إنى علمت أنك امرأة حسنة المنظر . فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى إنك أختي ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك . فلما دخل إبرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جدا ومدحها رؤساء فرعون لديه فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيرا بسببها وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال . فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة .. ودعا فرعون إبرام وقال له : ماهذا الذى صنعت بى ؟ لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك ؟ لماذا قلت لى هى أختى حتى أخذتها لتكون زوجتى ؟ خذها واذهب ووكل به أناساً شيعوه إلى خارج الديار .

وعاد إبرام إلى بيت إيل حيث كانت خيمته قبل انحداره إلى مصر . ولم تحتمل الأرض إبرام ولوطا ومن معهما من ماشية وحاشية واشتجر رعاتهما وحولهم الكنعانيون والفرزيون . فقال إبرام لإبن أخيه لا تكن مخاصمة بينى وبينك ، وبين رعاتى ورعاتك . إننا أخوان . أليست الأرض أمامك ؟ فاذهب حيث شئت . إن ذهبت شمالا ذهبت أنا إلى اليمين وإن ذهبت يمينا ذهبت أنا إلى الشمال . ونظر لوط فرأى أمامه أرضا خصبة كأرض مصر فاختار دائرة الأردن وارتحل مشرقا ونقل خيامه إلى سدوم ، وأهلها جد أشرار . وبقى إبرام فى كنعان

فقا له الرب " ارفع عينك وانظر فى الموضع الذى أنت فيه من مشرقه إلى مغربه ومن شماله إلى جنوبه فإننى معطيك جميع الأرض التى تراها ولنسلك من بعدك وأجعل لك نسلا كتراب الأرض لا يحصيه الإ من استطاع أن يحصى ترابها فاضرب فى الأرض طولا وعرضا كما تشاء .

فنقل إبرام خيامه وأقام عند بلوطات ممرا التى هى جبرون وبنى فيها مذبحا للرب .. ونشب قتال بين أمراء البادية والحضر فى تلك البقاع فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة ومك صبويم وملك بالع التى هى صوغر ونظموا حربا معهم فى عمق السديم مع كدر عومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم وأمرافل ملك شنعار ، وأريوك ملك الأسار ؟ أربعة ملوك مع خمسة .

وعمق السديم كان فيه آبار حمر كثيرة .." إلى أن يقول الإصحاح الثانى عشر :؛ قال إبرام : أيها السيد الرب : ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ومالك بيتى هو اليعزر الدمشقى . وقال إبرام أيضا : إنك لم تعطنى نسلا وها هو ذا ابن بيتى وارث لى . . .

فكان كلام الرب له : لا يرثك هذا بل الذى يخرج من أحشائك هو وارثك .. ثم قاده إلى خارج وقال :" انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت .. هكذا يكون نسلك .. فآمن بالرب فحسبه له حسنه وقال له : أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدنيين ليعطيك هذه الأرض ترثها " .. ثم قال الإصحاح الثانى عشر :" ... وفى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقه قائلا ك لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات : القينيين ، والفنزيين ، والقدمونيين ، والحشيين ، والفرزيين ، والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين ، واليبوسيين " ..

نستلخص مما سطر فى كتب العهد القديم الحقائق الآتية :

أولا :" كان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك سام وحام ويافث ؛

ثانيا : نسب اليهود السامية إليهم وحدهم وفرضوا العبودية على غيرهم بدعوة من نوح عليه السلام الذى قال : " مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم " . .

ثالثا : أن بنى نوح سام وحام ويافت وأحفادهم تفرقوا فى الأرض جزائر للأمم . كل إنسان كلماته حسب قبائلهم بأممهم " . . . فكيف يدعى اليهود أنهم وحدهم شعب السامية ؟

رابعا : إذا كان إبراهيم عليه السلام هو : " ابن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن أرفكشاد بن سام بن نوح " . . أليس معنى هذا أن ناحر وسروج ورعو وفالج وأرفكشاد ، آباء لقبائل سامية فهم ساميون باضرورة غطوا المنطقة العربية بأسرها فأين اليهود من هؤلاء ؟ ولماذ لم يدع كل منهم أنه الإبن الوحيد سام بن نوح ؟

خامسا : إذا كان إبراهيم عليه السلام ابن سام - وتلك حقيقة تاريخية لا ريب فيها - فمعنى هذا أنه هو وابناؤه وأحفاده ساميون تفرقوا فى الأرض التى وعده الله بها . . وذلك حسب ما جاء في الإصحاح الثانى عشر : " وظهر الرب لإبرام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض " . . ثم قال : " أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدنيين . . وعد النجوم إن استطعت هكذا يكون نسلك . فآمن بالرب فحسبه له حسنة ، وقال له : أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدنيين يعطيك هذه الأرض ترثها ؛ . . ثم قال : " وفى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقه قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض . . من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات " .

ومعنى : لنسلك " هنا : لكل أبنائك وأحفادك أجمعين ، فالنسل فى هذا المقام له معنى الشمول والعموم المطلقين إذن فيس من حق أية جماعة أن تدعى أنها وحدها السامية ومن ثم تكون الأرض من النيل إلى الفرات لها وحدها

سادسا : إذا كان إبراهيم عليه السلام من نسل سام فليس معنى هذا أن السامية

مقصورة عليه ولكن ما تميز به إبراهيم عليه السلام أنه خص برسالة التوحيد لهداية قومه وأبنائه ثم أحفاده وأولئك هم نسله .

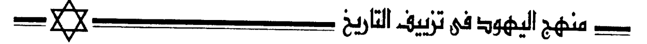
فإبراهيم هو ابن للساميين وأب للساميين .. ولذلك فان ينكر اليهود - وهم على هامش فرع من فروع السامية - السامية على العرب هو منتهى الوهم هذا فضلا عن أن العرب هم الذين يجسدون السامية بكل قبائلها وفروعها الحضارية الكبرى من بابليين وآشوريين وكلدان .

وقد شاء اليهود من هذا الادعاء الموهوم أن يُسْبغُوا على أنفسهم صبغة القداسة العنصرية المبرأه من كل دم دخيل ؛ وذك هو منهى الوهم ومنتهى الخطل والتزييف ..

هذا فى الوقت الذى لم يحاول العرب أن يقتدوا ذك الوهم على مستوى العالم إعلاميا وعلميا وثقافيا وفنيا ..

ومن الحقائق التى علينا أن نسوقها ونؤكد عليها ونكاد نكشف عنها لأول مرة ، أن اليهود لم يحاولوا أبدا أن يثيرو ا مسألة السامية وَهُمْ بين العرب فى الإندلس يأخذون منهم ويتعلمون عليهم لأنهم - أى العرب - يعرفون حقيقنتهم السامية المتدنية .. أما عندما انتقل مركز الحضارة إلى أوروبا وانتقل اليهود إليها ، والأوربيون لا يعرفون شيئا عن حقيقة السامية وحقيقة العرب فإنهم صدقوا كل ماروجه اليهود عن ساميتهم بوصفهم أصحاب التوراة وحراس اشريعة ، أليسوا هم أصل العهد الجديد أو الانجيل ؟..

ومن هنا كان من أكبر الاتهامات التى يتحاشاها الأوربيون هم أن يتهمهم اليهود بمعاداة السامية .. والفضيحة المخزية أن يتحاشى العرب فى أيامنا هذه ذلك الاتهام الباطل والمضلل معا فيتبرأون منه وينفونه بكل ما يستطيعون محاولين أن يظهروا أمام العالم أنهم لا يعادون السامية ..



هذا التفرد الجنسى المدعى يتكامل معه تفرد جنسى آخر هو أن اليهود فضلا عن أنهم أبناء الله وأحباؤه ، كما زعموا ويزعمون ، هم وحدهم الأحرار . .

هذه العنصرية البغيضة تنتقل إلى أبناء إبراهيم أنفسهم .، إلى أسرته . فزيف اليهود حقائق التوراة لتتفق مع أوهامهم وتضفى على تلك الأوهام قداسة خاصة يعتزون بها ويتفردون على العالمين . . وتتجلى عنصرية اليهود البغيضة خير ماتتجلى فى مولد ولديه اسماعيل واسحاق . . جاء فى الإصحاح السادس عشر :" وأما ساراى امرأة إبرام فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هَاجَر . فقالت ساراى لإبرام هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة . .

أدخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين . فسمع إبرام لقول ساراى . فأخذت ساراى امرأة إبرام هَاجرَ المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة إبرام فى أرض كنعان وأعطتها لإبرام رجلها زوجة له . فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها فى عينيها . فقالت ساراى لإبرام ظلمى عليك . أنا دفعت جاريتى إلى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت فى عينيها . يقضى الرب بينى وبينك . فقال إبرام لساراى هو ذا جاريتك فى يدك . . افعلى بها ما يحسن فى عينيك فاذلتها ساراى فهربت من وجهها .

فوجدها ملاك الرب على عين ماء فى البرية على العين فى البرية على العين التى فى طريق شور . . وقال ياهاجر جارية ساراى من أين أتيت وإلى أين تذهبين . فقالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى . فقال لها ملاك الرب ارجعى لمولاتك واخضعى تحت يدها . وقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة . . وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك .

وإنه يكون إنسانا وحشيا . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه . وأمام جميع إخوته يسكن . فدعت اسم الرب الذى تكلم معها أنت إيل رُئى لأنها قالت أههنا أيضا رأيت بعد رؤية لذلك دعيت البئر لَحَىْ رُئى . ها هى بين قادش وبَارَدَ . فولدت هاجرُ لإبرام ابنا ودعا إبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر اسماعيل " .

وجاء فى الإصحاح السابع عشر ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرا جدا . فسقط إبرام على وجهة وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدى معك وتكون أبا لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم وأكثرك كثيرا وأجعلك أمما وملوكَ منك يخرجون وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلهيا لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم .

وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى . أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم " .

وأيضا جاء فى الإصحاح السابع عشر :" وقال الله لإبراهيم ساراى امرأتك لا تدعواسمها ساراى بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . أباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون . فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال فى قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة . . وقال إبراهيم له ليت اسماعي يعيش أمامك . فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق وأقيم عهدى معه أبديا لنسله من بعده . وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأكثره كثيراً جدا . اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدى أقيمة مع اسحق الذى تلده لك سارة فى هدا الوقت فى السنة الآتية فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم "

وجاء في الإصحاح الحادى والعشرون عن مياد اسحق ؛ وافتقد الرب سارة كما قا ل . وفعل الرب لسارة كما تكلم . فحبلت سارة وولدت لإبراهيم إبنا فى شيخوخته فى الوقت الذى تكم الله عنه . ودعا إبراهيم اسمه ابنه المولود الذى ولدته له سارة اسحق . وختن إبراهيم إسحق وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله " . . " ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزج . فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها الآن إبن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق فقبُحَ الكلام جدا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم لا يقبح الكلام فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقوله لك سارة اسمع لقولها لأنه باسحق يُدْعى لك نَسْل . وابن الجارية أيضا ساجعله أمه لأنه نسلك . فبكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجَر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت فى برية بئرسبع . ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحتإحدى الأشجار ومضت وجلست مقابلَهُ بعيدا نحو رمية قوس . لأنها قالت لا أنظر موت الولد فجلست مقابلَهُ ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هَاجَر من السماء وقال لها : مالك ياهَاجَر . لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى أحملى الغلام وشدى يدك لأنى ساجعله أمة عظيمة " . .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

نستخلص من هذا الجزء كيف زيف اليهود الحقائق التاريخية :

أولاً : أن اليهود لا يملون من تكرار أنهم وحدهم المقصودون من لفظة " نسل ؛ فهم ولا أحد غيرهم نسل إبراهيم ومن ثم فهم الساميون . .

ثانيا : غير أن الإصحاح السابع عشر يؤكد بما لا يقبل مجالا لشك أو التأويل والتزييف أن نسل إبراهيم هم كل أبنائه وأحفاده . .

فالنسل لا يوصف به جماعة دون أخرى وهذا ما يتأكد تماما فى قول الرب رابرام : " أما أنا فهو ذا عهدى معك وتكون أبا لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم وأكثرك كثيرا جدا وأجعلك أمما وملوك منك يخرجون وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك ولأعطى لك ولنسك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم .

فعبارة : " أنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم ؛ . . وعبارة : " وأجعلك أمما وملوك منك يخرجون " ، لا يقصد منهما إلا كل نسل إبراهيم .

ولما لم يستطع اليهود ان ينكروا وجود إسماعيل عليه السلام الذى كان أول ما أنجب إبراهيم ، فإنهم أزروا عليه وعلى أمه هَاجرَ وكتبوا عليها ان تكون عبدة ذليلة لسارة الزوجة الأولى لإبراهيم تفعل بها ما تشاء وذلك بأمر من إبراهيم وتضرع : فلما انجبت هاجر اسماعيل وطلب إبراهيم من ربه ان يشهد حياة اسماعيل فجاة قال الله مميزا لإسحق وكأن اسماعيل غير موجود . . يدل على ذلك قول التوراة : " وقال إبراهيم لله ليت اسماعيل يعيش أمامك فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق وأقيم عهدى معه أبديا لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا اثنى عشر رئيسا وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدى أقيمه مع اسحق الذي تلده لك سارة ،. وتدعوا اسمه اسحق وأقيم عهده معه أبديا لنسله من بعده " .

فإذا كان عهد الله هو عقيدة التوحيد وشريعة التوحيد كما جاء بها إبراهيم فإن اليهود هم وحدهم المقصودن بالعهد لا يشركون معهم أحد غيرهم ولا سيما أن لفظة " العهد " جاءت فى تكرارها مقترنة باسم إسحق . .

وفضلا عن هذا فإن حقدا متسعراً فى نفسية اليهود رسخه اليهود وأصّلوه فى تواراتهم . يتضح ذلك فى سخط سارة على اسماعيل بن هَاجَر عندما رأته يمزح فطلبت من إبراهيم أن يطرده وأمه ولا يكون له نصيب من الميراث . .

وعندما راجعها إبراهيم فى فعلها صدر الأمر الإلهى لإبراهيم بأن يطيع سارة

فيما تأمره به لأنه :" با اسحق يدعى لك نسل" . . ومعنى هذا ألا اعتبار لإسماعيل إنما الاعتبار كله ، والنسل كله ، والبقاء كه لإسحق ونسله . . فكيف يصدر هذا الانحياز للرب علما بأن اسماعيل هو أول أبناء إبراهيم ؟ . .

وهكذا يبلغ الحقد العنصرى اليهودى على العرب منتهاه . . .

✡✡✡✡✡✡✡✡

نصل بعد هذا إلى حقيقتين تاريختين زيفهما اليهود : الحقيقة الأولى هى رسالة إبراهيم عليه السلام . . والحقيقة الثانية هى قصة الفداء .

أما عن رسالة إبراهيم الدينية فإنه لم يزد فى التوراة وكتب اليهود المقدسة عن كونه رجلا تقيا له صلة بالله يقود قومه فى جنبات المنطقة العربية يخرجهم من الظلمات إلى النور . . أما الصحف التى جاءت بها شريعة إبراهيم وعقيدته التوحيدية فلم تشر إليها التوراة من قريب أو بعيد وأدخلتها فى تيه من الأقاصيص ، ومختلق من الروايات والغاية أن تحتفظ لصحف موسى بتفردها فلا ينافس التوراة منافس أخر . . مما يتيح لليهود أن يعبثوا بها كما يشاءون .

والقرآن الكريم يعرض سيرة إبراهيم عليه السلام عرضا يجسد المجاهدة الكبرى فى سبيل عقيدة التوحيد فتكون العبودية خالصة لله وحده . . وقد جاء عرض

السيرة فى أربعة مواقف رئيسية . .

الموقف الأول ، تنزيه العبودية للتهيئة للرسالة الإلهية . . وهذا الأمر الذي لم يعرفه اليهود ولم يدركوه فى رسالة إبراهيم ﷺ . . فالقرآن الكريم قد أثبت أولا أن الروح النبوية منزهة عن الشرك وحسبها أن تنظر فى الكون نظرة تيقن وهداية ومعراج إلى الوجدانية المنزهة ؛ فقا جل شانه ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . (٧٥ : ٧٩ سورة الأنعام)

وهكذا أنتهى إبراهيم ﷺ إلى اليقين الإيمانى . فكان عليه وهو يقود قومه أن يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده ؛ فكانت المحاجة وكان الحوار ؛ فقال سبحانه ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .(٨٠ : ٨٢ سورة الأنعام) . .

الموقف التاريخى الثانى ، هو المحاجة العملية التى دمغ فيها الخليل عبادة الأوثان بالظم وازيغ واتى بلغ بها ذروة التحدى ؛ فقا سبحانه ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ

وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ .

(٥١ :٧٣سورة الأنبياء) . .

وفضلا عن هذه المحاجة العملية وما وقع فيها لإبراهيم عليه السلام ، ثم نجاته فقد تقرر أمران : أول ، التاكيد على أن إسماعيل هو أول أبناء إبراهيم عليه السلام .

نستبين هذا من قوله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ . .فالنافلة تعنى العطية والعطية تعنى الزيادة . . إذن فإسماعيل هو أول الأبناء ، والزيادة أو النافلة جاءت عندما وُهب إبراهيم إسحق ويعقوب . .

الأمر الثانى يتقرر فى هذه الآية الكريمة وهو مالم يعرفه اليهود فى توراتهم المزعومة .

الأمر الثانى هو رسالة الرسل والأنبياء ؛ فقا سبحانه وتعالى﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾ . .

الموقف التاريخى الثالث الذى زيفه اليهود هو قصة " الفداء " .. فصاحب الفداء عند اليهود هو إسحق وليس إسماعيل . فقد جاء فى توراتهم - فى الإصحاح الثانى والعشرون من سفر التكوين : " ...وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم . فقال له يا إبراهيم . فقا هاأنذا . فقال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق إلى أرض المريَّا واصعده هناك مُحْرَقة على أحد الجبال الذى أقول لك . فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه ومعه اسحق ابنه وشقق حطبا لمحرقة وقان وذهب إلى الموضع من بعيد فقال إبراهيم لغلاميه إجلسا أنتم هاهنا مع الحمار وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين فذهب كلاهما معا . ،وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبى . فقال هأنذا يا بنى . فقال هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة .فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابنى فذهبا كلاهما معا . فلما أتيا إلى الموضع الذى قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط اسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب . ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه . فناداه ماك الرب من السماء وقال بَراهيم إبراهيم فقال هأنذا. فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا إنى الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى . فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا فى الغاية بقرنيه . فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده مُحْرَقة عوضا عن ابنه . فدعا إبراهيم ذلك الموضع يَهْوَهْ يرْأَه . حتى أنه يقال اليومَ فى جبل الرب يُرَىْ.

ونادى ماك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتى أقسمت يقول الرب . إنى من أجل أنكَ فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر ويرث نسلُك باب أعدائه ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت

لقولى . ثم رجع إبراهيم إلى غلامه فقاموا وذهبوا معا إلى بئر سبع وسكن إبراهيم فى بئر سبع " .

نجد فى هذا الجزء الذى يروى قصة الفداء ست حقائق تاريخية هى من الركائز الأساسية فى تاريخ اليهود :

الحقيقة الأولى : التأكيد المستمر على أن إسحق هو الأبن الوحيد المحبوب لإبراهيم :" خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق " . .

وفى المقابل نُفِىَ أن يكون اسماعيل هو الابن الأول وكان الوحيد لإبرهيم قبل إسحق علما بأن التوراة قررت هذه الحقيقة فى الإصحاح السادس عشر .

الحقيقة الثانية : أن إسحق هو المبارك وهو الذى يكثر نسله تكثيرا كنجوم السماء . . وكالرمل . . وهو الذى يرث باب أعدائه . . وهو الذى يتبارك فى نسله جميع أمم الأرض .

الحقيقة الثالثة : أن الفداء الأعظم الذى انتقل بالإنسانية من الوحشية إلى الإنسانية كان بفضل إسحق

وفى المقابل أنه يكفى إسماعيل أن يعيش فى البرية وأن تخرج منه أمة .

الحقيقة الرابعة : أن اليهود رسخوا العنصرية فى توراتهم بتكرار الألفاظ والمعانى والمواقف وهذا يعنى أن السامية مكتوبة ليهود وعلى اليهود من قبل الرب

الحقيقة الخامسة :أن العرب نافلة فليسوا من الساميين إلا بالشفعة إن أجيز هذا التعبير

لكل هذا دلالة خاصة هى إنكار الوجود العربى وإنكار أن العرب هم أصل السامية بكل فروعها .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡

ومن هنا فإننا نذكر قصة الفداء كما وردت فى القرآن الكريم ففيها إرساء للتاريخ الصحيح .. فقد قال سبحانه :

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ . (٩٥ : ١١٣ سورة الصافات)

أيضا يتضح هنا أن إسماعيل كان أول آبناء يعقوب . فقد وردت الآية ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ .. وبعد هذا تم الفداء وردت الآية التى تقرر مولدا اسحق بعد إسماعيل ، فقال سبحانه ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ..

✡✡✡✡✡✡✡✡✡

حقائق تاريخية سكت عنا اليهود

فرق كبير بين تزييف الحقائق التاريخية ، والتزام الصمت إزاء تلك الحقائق أو السكوت عنها . . فالتزييف قلب للحقائق لا ستبدالها بمزاعم يزعم أصحابها أنها هى الصادقة وأنها هى الحقائق . . ومثل هذه التقابل يعطى من زيفت عليهم الحقائق ، الحق فى أن يحللوا أقوال الخصم تحليلاً يكشف أسباب التزييف ومعانيه ومن ثم فما جاء الخصم إلا بالزور والبهتان الذى لا يمكن السكوت عليه أو قبوله . .وهكذا ينشأ عن تزييف الحقائق نوع من الصراع بين متخاصمين حتى ولو كان أحدهما غير موجود أو هو موجود اعتبارا فحسب . . فنحن نناقشه وكأنه شخصية تواجهنا وتتحدانا وتريد أن تثبت أنها هى الصادقة فيما ذهبت إليه وقررته بل اعتقدته .

أما السكوت عن الحقائق التاريخية أو إغفالها تماما وكأنها غير موجودة فإن هذا السلوك الفكرى أو المنهج الفكرى يؤدى إلى طمس حقائق كان ينبغى أن تظهر وتبدو واضحة للعيون والعقول . وهذا الطمس للحقائق أو لرموز الحقائق أو لأحداث وقعت فعلا يؤدى إلى نسيانها من جانب من تعنيهم إن لم يكن من جانب الناس أجمعين .

حتى إذا طمسها من أراد أن يسكت التاريخ عنها أصبحت من المزاعم التى لا ينبش عنها إلا من خفت موازينه العقلية . .

فبعد سبعة قرون من موت موسى عليه السلام ، ظل اليهود خلالها يتوارثون التوراة مشافهة ، بدأ اليهود فى تسجيل حسب توراتهم وما لا بسها من مصادر . فكان من الحقائق التاريخية التى سجلها اليهود حسب ماتوارثوه أن إسماعيل كان أول أبناء إبراهيم عليه السلام. . ولما وجد أحبارهم وكهانهم أنهم فى مأزق يستحيل إنكاره فإنهم لم يجدوا سبيلا غير أن يجأوا إلى التمييز والمفاضلة فقرروا فى توراتهم أن أبناء أسحق هم وحدهم الذين وُعدُوا بالعهد الإلهى ، بالرسالة

الإلهية ، بالنعيم المقيم وكان من شأن هذه التفرقة أن تدعم وتؤصل الصبغة السامية لأبناء إسحق وحدهم فهم الساميون المفضلون .. وكان الباعث على هذ أن اليهود كانوا يحسون من العرب منافسة دينية فضلا عن منافسة دنيوية .. ولو لم يكن الأمر خشية من المنافسة الدينية لكان يكفى أن : " يحصر اليهود وعد إبراهيم فى أبنائه المؤمنون دون [1] أبنائه الوثنيين الذين لا يعرفون الله الواحد الأحد فيخرج العرب بهذا الاستثناء من وراثه إبراهيم الروحية " .

وهكذا سكت اليهود عن أن لإسماعيل وأبنائه احق فى وعد الله وجعلوا الوعد كل الوعد لأبناء إسحق والنبوة لأبناء إسحق .. ومما كشف من هذا السكوت وجعله صفيقا يصعب اخترامه بالتفنيد ، فإ المصادر اليهودية القديمة ذاتها - وهى التى دونت بها كتب العهد القديم لم تكن على علم واسع بأخبار البلاد التى كانت بمملكة إسرائيل .. ومن هنا جاء تجاهل اليهود فى مصادرهم وعهدهم القديم لأنبياء الجنوب أو أنبياء العرب ..

ورغم هذا السكوت فلم يستطع اليهود أن يحجبوا الحقيقة التاريخية .. والحقيقة التاريخية هنا ذات شعبيتين : الأولى ، أن اليهود لم يعرفوا كلمة : " النبى " ولم يعرفوا رسالة النبى إلا من العرب .. وهذا مما يثبت أصالة النبوة العربية فى شبة الجزيرة . لقد كان اليهود يسمون الأنبياء بالآباء وكانوا يطلقون على من لدية قدرة على الاطلاع على الغيب باسم الرائى والناظر فكانت الدرجةالأولى من معنى النبوة عند اليهود تعنى الإنذار .

والشعبة الثانية أن قد ورد فى التوراة ذكر أربعة أنبياء من العرب هم : ملكى صادق ، ويثرون ، وبلعام ، وأيوب .. أما ملكى صادق فقد التقى به إبراهيم عند بيت المقدس ، ويثرون هو شعيب الذى صاهره موسى وقد تعلم موسى على يديه نظام الحكم وسياسة القبائل .. وكان أيوب من أنبياء العرب الذين تتلمذ عليهم اليهود وتعلموا منه الارتفاع بالمشاعر الإنسانية إلى النبالة الروحية التى لا

(١) كتاب أبو الأنبياء ، تأليف العقاد ، صـ ١٤٠

يضارعها مضارع . وبلغ من كلف اليهود بالنبى العرب أيوب أن الذين جمعوا التوراة أدرجوا سفره بين كتب موسى وكتب يوشع وكتب وسائر الأنبياء من بنى إسرائيل . .

وكذلك ضمت النسخة السريانية من كتاب العهد القديم سيرة أيوب ومسيرته فى مجاهداته النفسية . . والدلالة الكبيرة لعقيدة أيوب التى نعرفها من سفره أنها فى غاية السمو والجود والتنزية ؛ فهو : ينكر عبادة الشمس والقمر ، ويصف الله القدير بأنه أعلى من السموات وأعمق من الهاوية وأعرض من البحر . . ولا فرق عنده بين الحر والعبد ؛ فقال : " أوليس صانعى فى البطن صانعه وقد صورنا واحد فى الرحم ؟ ويحمد من الغنى أن يكون أبا للفقراء وأن تكتئب نفسه على المساكين وأن يبكى لمن عسر يومه ويستعيذ بالله أن ينظر إنسان إلى امرأة وأن يطمع فى مال غيره" . . وقد كان أيوب هو الذى علم اليهود أن هناك بعث ونشور . .ويبدو سفر أيوب من حيث وضعه وموضوعه غريبا بين أسفار العهد القديم . .وقد صادف سفر أيوب شهرة كبيرة فى الأراضى الفلسطينية الجنوبية يرويه الرواة ويتغنون به فضمه اليهود إلى جملة أسفارهم وقدوهم بعضهم أنه من كلام موسى وآخرون حسبوه من كلام سليمان . فلا غرابة إذن فى أن يصيب هذا الكتاب شهرة واسعة فقد كان الناس يصطنعون منه عزاء كلما دهمتهم الكوارث ، كما يصطنعونه عبرة يعتبرون بها . . ولقد أصاب هذا السفر ذيوعاً فى أنحاء العالم . . ففى مصر والشام كان الشعراء يتغنون بقصة أيوب وكانت منظومة باللغة العربية العامية . وفى أوروبا كان النقاد يجلون سفر أيوب ويقدرونه تقديرا أدبيا لم يظفر به كتاب آخر من كتب اتوارة ، فقد قال عنه توماس كارليل : : إنه واحد من أجل الأشياء التى وعتها الكتابة . وإنه أقدم المورثات عن تلك القضية التى لا تنتهى قضية الإنسان والقدر والأساليب الإلهية معه على هذه الأرض ولا أحسب أن شيئا كتب مما يضارعه فى قيمته الأدبية " .

وفضلا عن هذا فقد كان للجزيرة العربية قداستها إلى أيام إرميا وما بعدها حتى أن إرميا كان وهو يتوجع فى مراثيه يقول : " ألا حكمة بعد فى تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء "؟. وتيمان تعطى معنى احكمة والمشورة الصادقة .. وهى مرادفة لكلمة" يمن " فى اللغة العربية بكل معانيها كما أنها تشير إلى الجنوب (اليمن) ..وكذلك جاء فى سفر التثنية على لسان موسى :" جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير " .. وفى سفر حبقوق :" الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران " ..

أما القرآن الكريم فقد ذكر أنبياء العرب التى سكت اليهود عنها وكذلك التى خفيت عليهم .

وإن كان السكوت هو الوارد الغالب هنا لأنه لا يعقل أن يذكروا بعض الأنبياء ويشيدوا بهم ثم لا يدفعهم دافع الحسد والخوف إلى السكوت عن الآخرين إلا إذا كانوا يجهلونهم .

وأنبياء االعرب الذين وردت سيرتهم فى القرآن الكريم أصحاب رسالة دينية إنسانية اجتماعية حضارية تقوم على تنزية الله وتوحيده .. نذكر من هؤاء الأنبياء : هوداً ، الذى أرسل إلى قوم عاد ، وصالح الذى أرسل إلى ثمود ، وشعيبا، وأيوب ، وإدريس .

فعن قوم عاد قال سبحانه ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ



عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ . (٦٥ : ٧٢ سورة الأعراف) . .

وعن قوم ثمود قال سبحانه ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ . (٧٣ : ٧٩ سورة الأعراف) .

وكان لشعيب رسالته فى الدعوة إلى الله ؛ فقال سبحانه ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .(٨٥: ٩٣ سورة الأعراف) ..

ودلالة الآيات إن رسالة شعيب كانت دعوة إلى عبادة الله وحده .. وعبادة الله شريعة عدل وتعاطف بين الناس ..

ومن أنبياء العرب الذين تتلمذ عليهم اليهود فى تعلم الصبر والارتفاع بالمشاعر الإنسانية إلى النبالة الروحية ، أيوب عليه السلام ؛ وقد قال فيه القرآن الكريم ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ .

(٨٣: ٨٤ سورة الأنبياء) ..

ومن أنبياء العرب إدريس عليه السلام ؛ وقد قال فيه القرآن الكريم ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (٥٦: ٥٧ سورة مريم) .

ومن أنبياء العرب : اليسع وذا الكفل وقد قال فيهم القرآن الكريم ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ . (٤٨ سورة ص) .

ويتميز اسماعيل عليه السلام بأنه كان رسولا ونبيا ، فقال سبحانه ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ .(٥٤: ٥٥ سورة مريم) .

وإذا كانت المصادر اليهودية قد سكتت عن أنبياء العرب فى جملتهم وسكتوا كل السكوت عن أبناء اسماعيل لما كانوا يخشونه كل الخشية من المنافسة الدينية والمنافسة المادية أو الاقتصادية إلا أن هذا السكوت قد فضحه الجغرافى اليونانى بطليموس فقد ذكر اسم عاد Oadita، واسم ثمود Thamudita فى جغرافينه وإذا كان قد ذكرها بالسماع فإن معنى هذا أن شأنهما لم يكن مجهولا عند تسجيل كتاب " العهد القديم " .

ولكن الصواب كل الصواب هو السكوت عن أنبياء العرب طالما أنه يطمس كل بارقة دينية للعرب . وإن من شأن هذا السكوت المقصود أن يلزمنا بالفصل فى ثلاثة أمور هى من الصميم فى رسالة خليل الرحمن . وذك لإظهارها وتجسيد هذا الإظهار فى حقائق تاريخية لا يمكن التدليس بها أو التدليس عليها والأمور اثلاثة هى :

أولا : السامية فى أصولها القبلية ونطلاقاتها البشرية .

ثانيا : عروبة إبراهيم عليه السلام .

ثالثا : خاتمة مطاف إبراهيم عليه السلام .

أما عن السامية فى أصولها رتحركاتها القبلية وأنطلاقاتها البشرية فإننا نقول : إن القاعدة الرئيسية التى انطلقت منها الشعوب اتى عرفت باسم السامية - وإن كان الأجدر أن يقال :" الشعوب العربة" - هى شبة الجزيرة العربية فقد انطلقت بعض القبائل السامية نحو منطقة الهلال الخصيب وهى المحصورة بين وادى نهر الفرات والبحر الأبيض المتوسط . . كما انطلقت قبائل سامية آخرى من جنوب شبة الجزيرة العربية نحو الحبشة فى إفريقيا .

وتتفق معظم الآراء على أنه كان للهجرة سبيلا لم تحدعنه فى مجمل تحركاتها وكان السبيل من جنوب شبة الجزيرة إلى شرقها مرافقة لساحل المحيط الهندى ثم تصعد القبائل إلى الخليج الفارسى ثم تتجه إلى وادى الفرات لتبلغ شماله الأقصى .

وفى التقدير التاريخى لهذه الأفواج يذهب بعض المؤرخين إلى أن الفوج الأول من أفواج الهجرة العربية يبدأ من مستهل القرن الثلاثين قبل الميلاد ، وبعدها انطلقت جماعات المهاجرين مترسمين ذلك الدرب إلى ما بعد هذا التاريخ . فمن الأفواج السامية التى تلاحقت نحو الفرات والهلال الخصيب : الأشوريون والأكاديون والبابليون والكلدانيون . . وكانت الفترة الزمنية بين كل فوج وآخر مابين ستمائة سنة وألف سنة . على أن أقدم تلك الأفواج هى التى استقرت فى الأقاليم الشمالية من وادى النهرين وذلك لخصوبة التربة وثرائها الوفير بالمحاصيل ولغناها بالمراعى . . وذلك على حين أن أقصى الجنوب لم يكن صالحا للزراعة لأنه كان مغمورا بماء البحر وظل على حاله هذا قبل أن تنحسر تلك المياه وتصبح الأرض مهيأة للإقامة والعمران ومن أكثر أقاليم وادى النهرين خصوبة وثراء فى شتى نواحى الحياة من زراعية وتجارية .

ثم تنطلق قبائل المهاجرين الساميين نحو الشرق حيث بادية الشام تقترب أكثر نحو شواطئ البحر المتوسط وعلى مقربة من صحراء سيناء .

وعلى هذا فالقبائل السامية والأصح أن نقول القبائل اعربية التى استوطنت فلسطين من شمالها إلى جنوبها إنما اصطنعت سبيلها من الشرق لا من الجنوب ولم تقدم لنا اآثار الأولى المتخلفة ما يظهر أن قد كانت هنناك هجرات عربية محسوبة من طريق الحجاز وشواطئ البحر الأحمر قبل الإسلام . والمرجع فى هذا أن الحجاز كما كان معروفا واد غير ذى زرع وأن سكانه لم يكونوا على كثافة تشجعهم على غزو البلاد الشمالية ولكن الرحلة للشمال كانت بقصد التجارة فحسب . وربما اضطر ضيق العيش وأخطار الزلازل والصواعق العرب الشماليين إلى أن يقصدوا الجنوب . وكان هذا سببا أصيلا إلى أن يرجع المؤرخون اللغة العربية إلى اليمن وكذلك يتفق المؤرخون المحدثون من أهل الحجاز الذين قالوا إن العرب العاربة هم أهل اليمن ومن بعدهم العرب المستعربون .

---

(١) كتاب : أبو الأنبياء : تأليف : عباس محمود العقاد صـ ١٤٩

ومن ثم فإذا حق لنا أن نعتمد على هذا النسق من حيث النسب فإنه لا يجوز لنا أن نصطنعه معيارا من حيث الارتقاء باللغة العربية فإن " الغة العربية الأولى فى اليمن لم تبلغ من الصقل والفصاحة وانتظام القواعد ما بلغته لغة الحجاز ففى [1] نهاية الدورة بعد مطاف اللغة العربية من أقصى الجنوب فى شبة الجزيرة إلى أقصى الشمال فى العراق إلى الرقعة الوسطى بين العراق والبحر الأبيض المتوسط وهى لا تزال تنتفع وتتهذب فى كل مرحلة من مراحل المطاف "

ومما يثبت وحدة اللغة العربية بين القبائل فى شبة الجزيرة العربية وفى أرض الهلال الخصيب وجود عناصر لغوية لازالت موجودة بعد عشرات القرون قبل الميلاد ؛ يقول البرايت **Albright** فى كتابه عن " أحافير فلسطين " إن اللغات السامية [2] المشهورة فى القدم هى : الأكادية ، والأشورية ، والبابلية ، والسامية الشرقية والسامية الغربية . وتنقسم هذه إلى العربية الشمالية والعربية الجنوبية أى المعينية والسبئية والأثيوبية . ومعها لهجات شتى بعضها قديم وبعضها حديث وكل تقسيم من هذه التقسيمات فإنما هو مسألة إصطلاح والتفرقة فيها أقل جدا من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانية التى درسها الباحثون خلال القرن أو القرن والنصف الأخير . إذ أن اللغات السامية القديمة ـ عدا الأكادية ـ تتقارب فى الأجرومية بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ولا يلحظ الإنتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية . ولما بدا عصر الآباء العبريين عند مطلع الآلف الثانية قبل الميلاد لم يكد الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصلية فى هذه الأيام . ولم تكن الأكادية نفسها منفصلة عن سائر الغات السامية الغربية أكثر من الإنفصال بين المالطية والعراقية الحديثتين "

---

(١) كتاب : أبو الأنبياء تأليف : العقاد ، صـ ١٤٩ ، (٢) نفس المرجع صـ ١٥٠

لقد كان إبراهيم عليه السلام عربيا يعيش فى وطنه عند سيناء وشماال الحجاز ، ولذلك لم يكن من الغرابة أن يكون الجنوب موصداً فى وجهه .. ومن هنا فقد كان الاتجاه إلى الشمال فيه مشقة وعسر حيث تقطنه وتتحرك فيه قبائل قوية بلغت من قوتها أن أغار بعضها على بابل والأخرى على مصر .. ولذلك فإنه لمن البدهى أن يكون الجنوب هو الأرض المهدة لإستقبال إبراهيم حيث يقصد الحجاز .. أليست الأرض أرضه والوطن وطنه ؟ ولذك فيس من العجيب ولا الشاذ الغريب أن نقو أن إبراهيم كان عربيا يتكلم العربية. على ألا يفهم من هذا أنه يتكلم عربيتنا التى نكتب بها اليوم ونقرأ .. واللغة العربية التى نعنيها هنا هى لغة القبائل اتى كانت تعيش فى شبة الجزيرة العربية وتنطلق منها ثم تعود إليها فى تلك الفترة من الزمان ، زمان إبراهيم عليه السلام .

فقد كانت اللغة واحدة منطلقة من اليمن إلى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء .. وقد سميت اللغة العربية آنئذ بأسماء مختلفة فقد سميت تارة باسم اللغة العربية السريانية كما أسماها اليونانيون خطأ وذلك لأنهم كانوا يسمون شمال الشام باسم " أشورية " أو " أسورية " ومن هنا سميت العربية باسم السوريانية والسريانية وذلك من المنطقة التى كانت تقيم بها بعض القبائل العربية القادمة من شبة الجزيرة من عصور موغلة فى القدم ربما كانت قبل عصر إبراهيم بأمد طويل .

ولقد كانت هذه اللغة السريانية تضم فى محيطها عدة لغات تتمايز فيما بينهما كما كانت تتمايز لهجات القبائل العربية قبل الإسلام ، ومن تلك اللغات لغة آرام وكنعان وأدوم ومؤاب ، ومديان ، وغيرها من اللغات التى كانت شائعة فى الأقاليم الممتدة بين العراق وسيناء ..

وأيضا من الغرابة والشذوذ أن يقول اليهود عن إبراهيم عليه السلام : " أبرام العبرانى

(١) نفس المرجع صـ ١٥٠

" . .أى إبراهيم العبرى . وذلك من الأوهام التى روجها اليهود حتى غدت من الحقائق المسلم بها بينهم ، إن لم يكن بين المسلمين أيضا

فما هى حقيقة سكوت اليهود عن عروبة إبراهيم وعربيته ؟ أجل ، ما هى حقيقة العبرية ؟

حقيقة العبرية لا تستدعى بحثا طويلا ، ففى حوالى القرن العشرين قبل الميلاد كانت العبرية كلمة عامة تتسمى بها جمهرة كبيرة من القبائل ارحل فى صحراء الشام وقد عبرت نهر الفرات ومن ثم سميت القبائل العبرية وكانت فى تنقلاتها تسير على مشارف المدن ولا تجسر على الاختلاط بها لهوان شأنها من جانب وإحساسها بهذا الهوان من جانب آخر - ولو أنهم أبناء عمومة - مما أورثهم الحسد الذى ظل يتنامى على مر القرون حتى صار إلى عقيدة راسخة ذات تقاليد تلتمس الحماية من غيرها مما جعلها تعمل كجنود مرتزقة فى مواقع شتى منضمة إلى هذا الحاكم أو ذاك . . وعلى هذا المعنى وردت كلمة العبرى والإبرى ،الهبيرى وما كان يشابهها من حيث اللفظ فى آثار :" تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق " . . هذا فى الوقت الذى لم يكن لليهود وجود فيه . حتى إذا ما وجد اليهود وانتسبوا إلى إسرائيل فإنهم كانوا ينفون العبرية عن أنفسهم ويذكرون أنها لغة كنعانية . . وإن هى إلا عقود حتى سيطر الاراميون على القبائل فى فلسطين والعراق وكان من نتيجة ذلك أن ذابت العبرية فى الآرامية مع وجود بعض الإختلاف بين الآرامية الشرقية والآرامية الغربية . وكانت النتيجة اندثار العبرية كلغة لها كيان استقلالى وأصبحت كما كانت لغة هامشية يتعامل بها العبريون فيما بينهم . وكى يتعاملوا مع من حولهم من القبائل السامية الآخرى أو القبائل ذات الحول والطول فإنها كانت تستعير منها ألفاظا وتراكيب كثيرة . ومن ثم فشيئا فشيئا أصبحت لغة هاشمية معروفة لأهلها ولغيرهم فهى لغة قائمة أساساً على الاستعارة من اللغات السامية الأخرى واللغات الأخرى كالفارسية واليونانية

والهندية بحكم التعامل التجارى وغيره

وإذا كان إبراهيم عليه السلام عربيا - كما ذكرنا من قبل - فإن هذا يؤكد الحقيقة التى لا يخالطها زيف وهى أن إبراهيم لم يكن إسرائيليا : " لأن يعقوب هو أول من تسمى [1] بإسرائيل ويعقوب حفيد إبراهيم . ولا يقال عن إبراهيم إنه يهودى لأن اليهودى ينسب إلى يهودا رابع أبناء يعقوب : ولم يكن ينسب إليه إلا بعد أن أصبح اسمه علما على الإقليم الذى قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب وهو القسم الجنوبى من فلسطين . .

ولا يقال إنه عبرى إذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية يتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف فإن إبراهيم كان يتكلم بلغة يفهمها جميع السكان فى بقاع النهرين وكنعان ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية فى تلك الأيام " . .

فإذا كانت العبرية لم توجد قبل أيام إبراهيم ولا فى أيامه فكيف يلقبه اليهود بلقب ؛ العبرانى " كما جاء فى الإصحاح الرابع عشر فى سفر التكوين حيث قال :" فاتى من نجا وأخبر إبرام العبراني " ؟

وإذا قال اليهود أنهم هم الساميون . فإنها نسبة إلى جد وليست نسبة إلى قوم وقد تكلم باللغة السامية أناس ليسوا من االسريان ولا من الآراميين ولا الحميريين " .

من كل هذا يمكن القول إن إبراهيم كان عربيا لا سيما وأنه ومن قبل أسرته من مدينة " أور " التى درجت على المعيشة فى البادية . . ومن هنا فإن علينا أن نقول إن إبراهيم كان عربيا نسباً ولغة وأنه صاحب رسالة دينية وأنه لم يكن من الحول والطول والقوة بحيث يستطيع أن يواجه حكام الأقاليم التى طاف بها ولا سيما أن الرئاسة الدينية كانت لأحبار آيل عليون ، فقد كان إبراهيم يقدم العشر أحيانا إلى أولئك الأحبار .

---

(١) المرجع السابق صـ ٢٢٧ .

وإذا كان إبراهيم مضطراً لأن يجد لأتباعه مساحات يرعون فيها ماشيتهم حيث كانوا لا يقدرون على المزاحمة والمنازعة فإنه وجد نفسه وهو يتجه إلى الجنوب . وفضلا عن هذه الأسباب الاجتماعية والدنيوية التى ألجأت إبراهيم إلى أن يتجه إلى الجنوب فإن هناك أسبابا دينية هى المحرك على هذا التحرك . فلماذا لا يتحرك "ليبتنى لعبادة الله [1] هيكلا غير الهياكل التى يتولاها الكهان والأحبارمن سادة بيت المقدس فى ذلك الحين " .

لقد أدرك إبراهيم عليه السلام بصيرته النبوية الملهمة وبعد تجربته الوجدانية أن أولئك الأوقوام الذين يعيش بينهم فى فلسطين ليسوا على شئ من عبادة الله وحده وأن عبادتهم كانت مشوبة بالوثنية الصريحة فكان لكل قبيل مذبح للرب الذى يعبده . فخشى الخليل على أتباعه فتنة الشرك وهو وسط تلك الفتنة من الآلهة والمذابح ، هذا فضلا عن أنه لم يجد له مكانا يتسع لإقامة هيكل خاص بأتباعه ولا سيما وأنه صاحب رسالة دينية .

أدرك إبراهيم بالهداية النبوية أن الجنوب هو وحده المكان الذى تتحقق فيه رسالته بعد تجاربه فى العراق والشام ومصر .. ومما يجب التنبيه إليه فى هذا المقام أن بيت المقدس ، حسبما ذكرت روايات التوراة والمشنا والتلمود لم يكن قد نوه به فى عصر إبراهيم وعصر موسى إلا بعد زمن طويل . ولكن التنويه ببيت المقدس والإشادة به إنما جاء مواكبا لعصر المملكة الإسرائيلية وكان للسياسة شأن كبير فيه .. فبعد زمن موسى بقرون عدة ظل اليبوسيون قائمين على شأن عاصمتهم يبوس (أورشليم فيما بعد) ولو أن بنى بنيامين تغلبوا على جيرانهم إلا أنهم لم يطردوا اليبوسيين : " فسكن اليبوسيون مع بنى بنيامين فى أرشليم إلى هذا اليوم "

والمقصود هنا اليوم الذى كتب فيه سفر القضاة من العهد القديم ثم تمكن

(١) نفس المرجع صـ ٢٣٢

بنو يهودا من التغلب على مدينة يبوس وأتوا عليها من القواعد بغير أن يقيموا بها .. حتى كانت أيام الملك شاؤول ثم استولى عليها داود فكانت عاصمة ملكه التى عرفت آنئذ باسم أورشليم واكتسبت من ثم قداسة لم تعرفها إلا بعد أيام داود .

فى هذا الوقت كانت للجنوب العربى قداسة خاصة مسكوت عنها وإن جهر اليهود ببعضها فى أيام أرميا وما بعدها ولم يستطيعوا أن يطمسوا ما ذكرته المصادر الإسرائيلية من أن بعض الإسرائيليين أقاموا فى نجد وما وراءها .

إذن فلماذا يظل هذا الجنوب موصدا فى وجه إبراهيم ؟

لماذا لا يتجه إليه مبتعدا عن التزاحم والتنازع الذى فى الشمال ليقيم المعلم الرئيسى للعقيدة التى آمن بها ودعا إليها ؟

لقد توجه إليه إبراهيم عليه السلام وأقام به هو وولده اسماعيل :" ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ .(٦٩ :٧٩ سورة آل عمران) .

إن المصادر الإسرائيلية صمتت عن ذهاب إبراهيم إلى الحجاز وإقامته لأول بيت وضع للناس ، قبل بيت المقدس الذى أقامته التقلبات السياسية فى عصر داود وأسبغت عليه قداسة يمكن أن ننعتها بالقداسة السياسية التى اكتسبت قداسة دينية بفضل من قدمها التاريخى .

فمرجع صمت المصادر الإسرائيلية متعمد مقصود خشية المنافسة الدينية التى يرهبها اليهود فحسب إبراهيم عند اليهود أن يكون زعيما تقيا لطائفة من الناس ، ألم يخاطبوه يوما بقولهم :" أنت رئيس من الله بيننا "؟

لقد كان اليهود يعلمون أن إبراهيم ليس منهم ، فلماذا يذكرونه فى مقام النبوة والدين الحنيف ؟ قال تعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا

مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .(٦٧ سورة آل عمران)..

وتتجسد نبوة إبراهيم ورسالته فى قوله لقومه - وهذا مما لا يتفق مع الطبيعة الدينية والسلوكية لليهود وما جلبوا عليه - فقال سبحانه ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. (١٦ :١٧ سورة العنكبوت)... ماذا نقول

إنه الحسد الدينى والحسد الدنيوى الذى يخشاه اليهود غاية الخشية ...

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

عمليات التزييف الحديثة

أخلاق اليهود فى الميزان

هل تتفق أخلاق اليهود مع وصايا أنبيائهم التى كانت فى جملتها أخلاق ذرائعية متقلبة حسبما يكون عليه اليهود من قوة وضعف ؟ وهل من الممكن أن يقال إن أخلاق اليهود تحولت إلى ما هو أقوم بتطاول العصور وما أصابهم من كوارث ومحن ؟

ونستهل تمهيدنا بأن نسأل : هل هناك ثمة حضارة يهودية ؟

سؤال لو واجهنا به الفكر الغربى لكانت الإجابة على الفور : نعم . هناك حضارة يهودية . .لقد أعطانا اليهود فكراً وادبا وعلما وروحانية ووجدانية ، كانت أوروبا فارغة منها لولا اليهود الذين تفضلوا عليها بتلك النعمة الكبرى . .ولعل مثل هذا القول هو الصبغة الظاهرة التى تجسد الأكذوبة الكبرى التى يعيشها الوعى الأوروبى وهو بين التضليل الذى لبس عليه الحقيقة فاختفت عنه أو أخفاها هو عن ذاته لخوف نفسى أو لجحود عنصرى .

وحتى نكون منصفين فى هذه القضية المصيرية التى لم تفرغ الدنيا من مشكلاتها وأزماتها وكأنها اللعنة الأبوية التى على الإنسانية أن تقاسيها وتحتمل عواقبها الوخيمة التى لا يُعْرف لا انتهاء . .

أجل ، حتى نكون منصفين فإننا نقدم اليهود نفسية بشرية أو خليقة بشرية مجسدة فى كتابها المقدس " التوراة " . ومن واقع هذه التوراة التى صنعها أحبار اليهود على تواتر الأحقاب التى عاشتها جماعتها فغيروا وبدلوا وحذفو وأضافوا حتى جاء الكتاب فى النهاية مصوراً لشئ واحد : الطبيعة النفسية لليهود والشخصية اليهودية فى إحساسها بالحياة والوجود ، فى فكرها الذى تُقوِّم به الحياة والناس ، فى تصورها حياة تنشدها فى نموها - من واقع هذه التوراة نحدد طبيعة هذه النفسية فنقول :

إن اليهودية نفسية مريضة يتحقق مرضها فى كتابها المقدس أو " التوراة

المزعومة " ثلاث خصائص متكامة تسعى بها إلى السيطرة على الوجود البشرى كله . والخصائص ثلاث هى : الفساد الأخلاقى كطبيعة متأصلة وتزييف التاريخ كطبيعة متأصلة .. والحقد الجحود كطبيعة متاصله .

ومن أول خصائص الفساد الأخلاقى اليهودى فوضى الانحلال الجنسى . وتصرح التوراة المزعومة بهذا ويترنم به اليهود ترنم التقديس والإجلال فى صلواتهم وخلواتهم فقد قالت - أى التوراة -:"وكان يفتاح الجلعادى جبار بأس وابن المرأة الزانية "(سفر القضاة ١١ :١) . ثم تورد " التوراة المزعومة "قصة شمشون والمرأة الزانية وكذلك قصة شمشون ودليلة التى استنفدت الإصحاح السادس عشر من ذلك السفر ..ويكشف الإصحاح التاسع عشر من نفس السفر عن صنوف من المخازى الجنسية التى تستحى منها الأبصار . وقد أوجزت المزامير مآثم ذلك العهد بقولها :" وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان وأهرقوا دما زكيا ، دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان وتدنست بالدماء وتنجسوا بأعمالهم وزنوا بأفعالهم " (مزمور ١٠٦ :٣٦ - ٣٩) .. ولقد بذل صموئيل ملكهم غاية ما فى وسعه فى أن يجعل من قومه صفا واحدا يحارب به الفلسطينيين ،.وهو فى سعيه كان يدعوهم إلى أن يكفوا عن عبادة الأوثان ويرجعوا إلى عبادة :" الرب إله إسرائيل " . فقال ينذرهم :" فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم واعدوا قلوبكم للرب واعبدوه فينقذكم من الفلسطينيين فنزع بنو إسرائيل البعليم والعشتاروت وعبدوا الرب الواحد"

(سفر صموئيل الأول ٧ :٤٣)

وتذكر التوراة المزعومة فى تاريخاتها أنه بعد موت شاءول خلفه داود ملكا على بنى إسرائيل (حوالى عام ٩٩٠ ق.م) .. ولم يجد داود مفرا من أن يرسخ حكمه فعقد معاهدة تحالف وصداقة مع الفينيقيين انعكست آثارها على عصر ابنه سليمان وكانت سببا من أسباب العظمة التى نسبت له . ويحكي سفر

صموئيل الثانى قصة الملك داود فى صورة زعيم طاغية فاسق بدأ عهده بمحاربة أنصار شاءول (سفر صموئيل الثانى ٣ :١) ، وباغتصاب زوجة أحد رجاله وقد رآها عارية وهى تستحم فدفع بزوجها إلى الحرب لكى يموت وتبقى المرأة خالصة له وحده (صموئيل الثانى ١١ :٢:٢٦) .. هذا فضلا عن مئات السرارى والنساء اللواتى ذكرت التوراة المزعومة أنه أخذهن من أورشليم .(صموئيل الثانى ٥ :١٣) . ولم تترك التوراة المزعومة سليمان بن داود من غير أن تصفه بأنه عاش حياته وهو والغ فى شراسة فى الجنس والنساء فقد جعلت له ألف امرأة ، سبعمائة من السيدات وثلثمائة من المحظيات . ، سفر الملوك الأول ١١ :١-٣) ولو أنه تزوج من أبنة فرعون مصر (شيشنق) ، إلا أنه عشق كثيرات من جنسيات مختلفة :" مؤابيات ، وعمونيات وأدوميات وصيد ونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل " لا تدخلوا إليهم ولا يدخلوا إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم فالتصق سليمان وراء هؤلاء بالمحبة " ..وقد سبب خضوع سليمان لأهواء زوجاته أن استرضاهن بعبادة أربابهن ولم يأبه برب إسرائيل :" فذهب سليمان وراء عشتروت إله الصيدونيين ، وملكوم رجس العمرنيين ، وركموش رجس الموآبيين ، ولمولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الغربيات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن "(سفر الملوك الأول ٥ :٥ ، ٧ - ٨).

وقد استهلت التوراة المزعومة حكم سليمان بتصويره على أنه عزم بسفك الدماء واقتراف الجنس . فقد استهل حكمه بإباده خصومه ومن يتوجس من مناوأتهم . فبادر بقتل أخيه " أدينا " بعد أن استسلم له وكان قد شق عليه . ولم يكتف بأخيه بل أعمل سيفه فى كل أنصاره فأهرق دماءهم وشتت شملهم . ثم التفت إلى الكهنة فتخلص من كبيرهم " إنتحار " وعين مكانه " صادوق " وكان من الموالين له .. ثم أوعز إلى كبير سفاحيه " بناياهو " أن يقتل يؤاب :" فقتله داخل الهيكل بعد أن خال أنه قد احتمى بقدسيته " (سفر الملوك ٢)...

ولقد أدى الجموح الجنسي المتفحش باليهود إلى أنهم لم يجدوا غضاضة في التزاني يزينونه ويحضون عليه ولا يتأثمون منه ، بل إنهم ليعدونه سبيلا مشروعا للحصول على ما يشتهون. ولم يسلم من هذا التصوير المسف إبراهيم الخليل عليه السلام كذلك بنوه الأنبياء المكرمون.

فالتوراة تدعى على لسان إبراهيم أنه قال عندما قرر أن يرحل إلى مصر ومعه زوجه سارة فرارا من القحط الذى نزل بهم :" إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذ رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك ،. قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك "(سفر التكوين ١٢ :١١ ١٣) .. وتؤكد التوراة هذه القرية فتقول ":.. فأخذت المرأة (أى سارة) إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها وصار له خدم وبقر وحمير وعبيدا وإماء واتن وجمال " (سفر التكوين ١٢ :١٥-١٦).. ونفس الحكاية الصقوها بابنه إسحق حين توجه إلى أرض جيرار يلتمس فيها عيشه ، فقد جاء:" وسأله أهل المكان عن امرأته . فدعا أبيما لك إسحق وقال له : إنما هى امرأتك فكيف قلت هى أختى ؟ فقا له إسحق : لأنى قلت لعلى أفوز بسببها. فقال أبيمالك : ما هذا الذى صنعت بنا لولا قليل لا ضجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنيا "(سفر التكوين ٢٦ :٢٧-١٠).

ولم يستنكف أبناء الأنبياء أن يتزانوا غير متأثمين ولا متحرجين ، فقد حكت التوراة عن اغتصاب أمنون بن داود بالمخادعة والحيلة أخته " ثامار " العذراء (سفر صموئيل الثانى ١٣ :١ - ١٤) فثارت ثائرة أخيها أبشالوم فتربص به حتى قتله غيلة.(سفر صموئيل ١٣ :٢٨ - ٢٩) .. ويطفح ما يسمى " بسفر أستير " بحكايات وروايات عن شيوع مواخير التزانى بين اليهود من منطلق :" الغاية تبرر الواسطة. فإحدى الروايات تحكى أن أحد اليهود من سبايا بابل واسمه " مردخاى " ، تمكن من دخول بلاد فارس تصحبه ابنة عمه

" أستير " وكانت رائعة الحسن والجمال . فانفذها بحيلة من الحيل إلى حريم ملك الفرس أخشويروس . وقد أدرك هامان ، وزير دفاع الملك ، خطورة مردخاى ، فأوعز صدر الملك عليه وعلى جميع اليهود المقيمين بالمملكة . غير أن مردخاى لم يعدم الحيلة للإيقاع بوزير الدفاع . فاتفق مع أستير عل أن تخدع الملك بجنماها وتمكنه من نفسها شريطة أن يقتل هامان وأتباعه ليخلوا السبيل لمردخاى ويصير هو وزير الدفاع ، وقد كان ... والعجيب فى الامر أن التوراة جعلت من هده القصة رمزا من رموز البطولة والتضحية فى سبيل البهود . هذا فى الوقت الذى حرمت فيه الزنا كما جاء فى وصاياها العشر ، فقد أوصت اليهود قائلة « لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى لالا تزنى الأرض وتمتلئ الأرض رزيلة » (سفر اللا ويين ١٩ : ٢٩) . ومن ثم فلم تر التوراة بأسا فى أن تجعل أستير عشيقة للملك وإحدى محظيات طاما أن ذلك يجلب منفعة لليهود .

ترى .، لو سألنا أى إله هو ذلك الذى يأمر عباده فى كتابه المقدس بالزنى ويوصيهم به وبحضهم عليه ؟ لقد زعم اليهود ، ومازالوا يزعمون ، أنهم الذين هدوا العالم إلى التوحيد . ففضل التوحيد يرجع إليهم وحدهم ، وإذا أردنا أن نتحقق من مدى صدق اليهود فى دعواهم . فعلينا أن نعرض تصويرهم لربهم الذى عبدوه وفاخروا به كل الأمم . والألوهية فى تقديرنا هى أخطر جوانب الفكر اليهودى لأنه على أساس العبودية يكون التشريع .. وأول ما نجده فى خصائص إله اليهود وصفاته أنهم نحلوه صفاتهم الأخلاقية والنفسية . فهو إله " مساوم " يساوم عباده على طاعنه وعبادته ، ويساومونه على مبلغ ما يدفعه لهم من نعمة ، جاء فى سفر التكوين على لسان يعقوب " : ... إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه وأعطانى خبزا لآكل وثيابا لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبى الرب لى إلها " .

وهو إله يصارع عباده ويصارعونه فإن تغلبوا عليه باركهم واعترف بقدرتهم

عليه فمما نرويه التوراة المزعومة فيما يتعلق برواية هرب يعقوب من وجه أخيه عيسو خشية البطش به لخداعه له " فبقى يعقوب وحده يصارع إنسان حتى مطلع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخده فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعة معه ، وقال : أطلقنى لأنه قد طلع الفجر فقال : لا أطلقك إن لم تباركنى فقال له : ما اسمك ؟ قال : يعقوب ، فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك لماذا تسأل عن اسمى وباركه هناك "(سفر التكوين ٣٢: ٢٤-٢٩).

وادعت التوراة لله صفات من صفات سائر البشر بل العوام من الناس . فمما نسبته إليه أنه أقسم حين قال لموسى " : هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا : لنسلك أعطيها "(سفر التثنية ٣٤ :٤) . ومما نسبته إليه أيضا أن قد جمحت به سورة الغضب على هارون ومريم لأنهما تجاسرا وتكلما مع موسى بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها ويصب غضبه على مريم فتصاب بالبرص . وحين أشفق عليها موسى وكلم بشأنها الرب ، أجاب الرب قائلا :" ولو بصق أبوها فى وجهها أما كانت تخجل سبعة أيام ؟" ..

وتلك سوقية بذيئة ما فى ذلك شك...

ويتصور اليهود " الرب " كتصورهم لسائر الخلق فتصيبه افة النسيان التى تصيبهم جاء فى التوراة :" ... وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب "(سفر الخروج ٢: ٢٣-٢٤) . فلا حرج على اليهود إذن إن نسبو إلى الرب صفة الندم . وما الندم إلا دليل خطأ أو تجاوز وانحراف . فالتوراة تذكر أن الله حين غضب على بنى إسرائيل لانصرافهم عن عبادته ورجوعهم إلى عبادة العجل الذهبى الذي أقاموه وصاغوه بأيديهم عندما افتقدوا موسى زمنا حيث دخل الله مع موسى فى جدل عقيم

ونقاش سقيم ، فقد خاطبه ، أى خاطب موسى قائلا : " اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم "(سفر الخروج ٣٢ :١٠) . حاول موسى أن يخفف من غضب ربه بالاستغفار ، ولما لم يُجْد الاستغفارنفعا لم يحد سبيلا سوى أن يُعَنِّفَه قائلا :" ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك " (سفر الخروج ٣٢ :١٣) .

فكان أن رجع الرب عن غضبه فتاب وأناب :" فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه" (سفر الخروج ٣٢ :١٤) .. وبلغ إسفاف التناقش حدا جعل إله إسرائيل يسأل موسى ذات يوم فى ضراعة فيقول له حتى متى يهيننى هذا الشعب " (سفر العدد ١١:١)..

وإذا كان الإله يجمح فى غضبه لغير ذنب أو جريرة .. وإذا كان الإله يتذكر وينسى .. وإذا كان الإله يتدنى إلى درجة الإسفاف فى التعبير .. وإذا كان الإله يساوم ويمالئ .. وإذا كان الإله يندم ويرضى بالإهانة توجه إليه .. وإذا كان الإله يغلب على أمره ويسيره البشر بأهوائهم ونزواتهم ، تُرى هل مثل ذلك الإله جدير بأن يضع لعباده شريعة طاهرة عادلة تدعو إلى محمود الآداب والأخلاق ؟

إن السمسرة فطرة نفسية وطبيعة أخلاقية عند اليهود ومن ثم فقد دعاهم إلههم إلى أن يقرضوا المال للأجانب ـ أى غير اليهود ـ بالربا ، فقالت التوراة :"

لا تقرض بربا . لأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرضه بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل لتمتلكها "(سفر اتثنية ٢٣ :١٩ ـ ٢٠).

وتسجل التوراة كما اختلقها الكهان صورة لتفشى الفساد بين طبقات اليهود فوصفت الانحلال الذى حاق بالطبقات العليا من المجتمع الإسرائيلى فقالت :" اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم . الذين يبنون صهيون بالدماء . وأورشليم بالظلم . رؤساؤها يقضون بالرشوة ، وكهنتها يعلمون بالأجرة

وأنبياؤها يعرفون بالفضة ، وهم يتوكلون قائلين : أليس الرب فى وسطنا لا يأتى علينا شر .

لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خربا وجل البيت شوامخ وعرة " (سفر ميخا ٣ : ٩ -١٢) ومن وصفها للمجتمع الإسرائيلى " قد باد التقى من الأرض ، وليس مستقيم بين الناس جميعهم . يكمنون للدمار ويصطادون بعضهم بعضا بشبكة اليدان إلى الشر مجتهدتان . الرئيس طالب القاضى بالهداية ، والكبير متكلم يهوى نفسه فيعكشونها أحسنهم مثل العوسج وأعدلهم من سياج الشوك " (سفر ميخا ٧ : ٢ - ٤) .. ومما قالته أيضا : " فإن أغنياءها ملآنون ظلما وسكانها يتكلمون بالكذب ولسانهم فى فمهم غاش " (سفر ميخا ٦ : ١٢) .. ثم تصف الخيانة وقد مزقت كل آصرة محمودة حتى بين ذوى الآرحام فتقول : لا تأمنوا صاحبا . لا تثقوا بصديق . احفظ فمك عن المضطجعة فى حضنك لأن الإبن مستهين بالأب والأبنة قائمة على أمها والكنة على حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته " (سفر ميخا ٧ : ٥ - ٦) .

وإذا كانت تلك هى الطبيعة النفسية والأخلاقية لليهود .. وإذا جاءت صلة اليهود بالإله على هذه الشاكلة فإنه مما لا شك فيه أن يكون تصورهم للإله من صنعة نفوسهم ومالها من نزوات وشهوات ، ومن صنعة نفوسهم بما تحمله من ضغائن وأحقاد . ومن ثم جاء الضمير اليهودى والنفسية اليهودية مجسدة لفكرة محورية واحدة فحواها أن الله قد وهب إبراهيم عليه السلام أرض كنعان فقال له : " اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة " (سفر التكوين ١٢ : ١ - ٢) .

ثم يفيض الرب بوعده على إبراهيم ، يظهر ذلك فى قول التوراة " :

إرفع عينك .. انظر من الوضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لأن

جـمـيع الأرض التى أنت ترى لك أعطيـهـا ولنسلك إلى الأبد وأجـعل نسلك كتراب الأرض "(سفر التكوين ١٣ :١٤ -١٦) .. ثم يصبح الوعد أو تصبح البركة عهدا وميثاقا قائلا لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات "(سفر التكوين ١٥ :١٨) .

ومن هنا أصبح تكرار هذا الوعد وتأكيده المتصل فى حكم العقيدة المقدسة .

فالتوراة تكرر عهد الله مع إبراهيم فى قولها :" فأجعل عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبديا . وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا " (سفر التكوين ١٧ :٧-٨) .

ثم يتسع العهد الأعظم ليشمل كل فج من الأرض يقطنه اليهود فتقول التوراة حين أطاع إبراهيم أمر ربه وهَمَّ بذبح أبنه :" بذاتى اقسمت ، يقول الرب : إنى من أجل أنك فعلت هذ الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض "(سفر التكوين ٢٢ :١٦ - ١٨) . ثم يتكرر العهد الأقدس لإسحق كما تروى التوراة قصته ؛ فتقول :" .. أسكن فى الأرض التى أقول لك . تغرب فى هذه فأكون معك وأباركك . لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد وأفى بالقسم الذى أقسمت لإبراهيم أبيك وأكثر نسلك كنجوم السماء وأعطى نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض " (سفر التكوين ٢٦ :٢ - ٤) .. ثم يتكرر العهد الأقدس فى قول الرب مخاطبا يعقوب :" الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الأرض تمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض "(سفر التكوين ٢٨ :١٣ -١٥)

(١) كتاب : أبو الأنبياء . تأليف . عباس العقاد ، صـ ١٤٩

.. وبعد أن تسمى يعقوب باسم إسرائيل عادت التوراة لتؤكد العهد الأقدس الذى قطعه الرب على نفسه ، فقال لإسرائيل :" أنا الله العلى القدير أثمر وأكبر ، أمة وجماعة تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطى الأرض " .(سفر التكوين ٣٥ :١١-١٢)..

ثم جاء موسى وكان أمراً مقضيا فى التصور اليهودى أن يعيد الرب قسمه وعهده وميثاقه الأقدس . فذكرت التوراة أن الرب قال فى خروج بنى إسرائيل من مصر :" وأيضا أقسمت معهم عهدى أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التى تغربوا فيها "(سفر الخروج ٦ :٤).. ثم قال:" وأتخذكم لى شعبا وأكون لكم إله "(سفر الخروج ٧,٦).ثم تستطرد التوراة فى ذكر كلام الرب لموسى :" اذهب .. اصعد من هنا أنت والشعب الذى أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التى حلفت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها"(سفر الخروج ٣٣ :١٠).. ولقد جاء هذ الوعد المقدس بالأرض المقدسة لاعلى أنها :" أرض الميعاد :، فحسب ، بل على صورة قدسية تلهب المشاعر وتؤجج الخيال بالاشواق الضارية لتلك الأرض فـ جاءت التوراة بأوصاف لها مختلفة ، فهى أرض " عمانوئيل " (سفر أشعياء ٨ :٨)وهى أرض "الرب " (سفر هوشع ٩ :٣، وسفر أشعياء ١٤ :٢) وهى كل؛ الأرض البهية " (سفر دانيال ١١ :١٦) ..وهى " الأرض المقدسة " (سفر زكريا ٢ :١٢).

من هذه المأثورات التوراتية نخرج بالنتائج الآتية :

- أن اليهود أمة عظيمة بل أعظم الأمم قاطبة .
- أن مشيئة الله هكذا اختارت .
- أن سيطرتها على أمم الأرض قدر مقدس لا سبيل إلى جحده أو انكاره ومحاربته .

وإنه لأمر منطقى أن تسوِّد التوراة اليهود على أم الأرض فتقول : " ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك .. بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك . إنى أنا الرب الذى لا يخزى منتظروه "(سفر أشعياء ٤٩ :٣) .. ثم تقول :" ليؤتى إليك بغنى الأمم وتُقاد ملوكهم لأن الأمة والمملكة التى لا تخدمك تبيد وخرابا تخرب الأمم "(سفر أشعياء ٦ :١١-١٢) .. ثم تقول :" ويقف الأجانب ويرعون غنمك ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم . أما أنتم فتبدعون كهنة الرب . تسمون خدام إلهنا .

تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتآمرون "(سفر أشعياء ٦ :٥ ٥٦).. إذن فالعهد الأقدس يفرض على اليهود تخريب الأمم بكل ثرواتها .. والعهد القدس يفرض عليهم أن يتآمروا على " مجدها " أو حضارتها ، وذلك بدعوى الربانية . فهم وحدهم كهنة الرب وخدامه ، والتخريب قد يكون بإشاعة الفساد وتزيين بوائقه ، كما يكون بالحرب ، حرب الإبادة التى لا تبقى على شئ .. وبقدر عمق الحقد على الغير يكون تسامى القداسة ، وبقدر تسامى القداسة ، يكون اختلاف ذرائع الحرب .

فالتوراة تؤسس لليهود أخلاقا للحرب خاصة بهم وحدهم، فقد ذكرت أن الرب كلم موسى قائلا :" انتقم نقمة لبنى إسرائيل من المديانيين ثم تضم إلى قومك "(سفر العدد ١٣ :١) ثم يقول ": تجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر سبى بنو إسرائي نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم "
(سفر العدد ٣١ :٧ ، ٩ :١).

وتمضى التوراة فى تكريسها للأخلاق اليهودية فى حرب الإبادة قائلة :"

فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجل بمضاجعة رجل اقتلوها . لكن جميع الأطفال من النساء اللواتى لم يعرفن رجل بمضاجعةذكر أبقوهن لكم حيات "(سفر العدد ٣١:١٧-١٨) . . ورسمت التوراة المزعومة لليهود منهاج حرب يخصهم وحدهم ؛ فتقول :" حين تقرب مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف .

وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتاكل غنيمة أعدائك التى أعطاها الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق فيها نسمة ما ء(سفر اتثنية ٢٠:١٠-١٦)

ثم تأتى أخط عبارة فى توراة اليهود حيث تجسد النية المبيتة لا للعرب وحدهم ولكن للناس أجمعين . عبارة تقطر حقدا زُعافا ، إذ تقول مخاطبة اليهود ك" قومى ودوسى يابنت صهيون لأنى أجعل قرنك حديدا وأظلافك أجعلها نحاسا فتسحقين شعوبا كثيرين واحزم غنيمتهم للرب وثروتهم لسيد كل الأرض "(سفر ميخا ٤:١٣) .

ويأتى اغتنام ثروات الأمم فى الحروب على نحو بشيع رجيم مزاجه الإسفاف فى السلوك فقد قالت التوراة المزعومة :" هذه فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى : الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص كل ما يدخل النار تجيزونه فى النار فيكون طاهرا غير أنه يتطهر بماء النجاسة "

(سفر العدد ٣١:٢١-٢٢) .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

ولم يحقد اليهود على شعب فى الدنيا بأسرها سوى الشعب المصرى .. فهم يضمرون له كل سوء ويتمنون أن تنزل به أبشع الكوارث ..

وهكذا ستظل مصر فى عين اليهود وكأنها الجزاء الوفاق الذى يستحقه المصريون من اليهود بعد أن علموهم وهذبوهم .. ونظفوهم

● جاء فى سفر الخروج الإصحاح السابع : " ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم تصير دما . فيكون دم فى كل أرض مصر فى الأخشاب وفى الأحجار . ففعل هكذا موسى وهارون كما أمر الرب . رفع العصا وضرب الماء الذى فى النهر أمام عينى فرعون وأمام عيون عبيده .

فتحول كل الماء الذى فى النهر دما ومات السمك الذى فى النهر وأنتن النهر . فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر . وكان الدم فى كل أرض مصر . وفعل عرافو مصر كذلك بسحرهم " .

● وجاء فى سفر الخروج الإصحاح الثامن : " فقال الرب لموسى قل لهرون مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقى والآجام وأصعد الضفادع على أرض مصر . فمد هرون يده على مياه مصر . فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر " .

● وجاء فى سفر الخروج الإصحا الثامن : " ثم قال الرب لموسى قل لهرون مد عصاك وا ضرب تراب الأرض ليصير بعوضا فى جميع أرض مصر وفعل كذلك العرافون بسحرهم وأصعدوا الضفادع على أرض مصر .

ففعلا كذلك . مد هرون يده بعصاه وضرب تراب الأرض . فصار البعوض على الناس وعلى البهائم . كل تراب الأرض صار بعوضا فى جميع أرض مصر .وفعل كذلك العرافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا . وكان البعوض على الناس وعلى البهائم " .

● وجاء فى سفر الخروج الإصحاح التاسع : " ثم قال الرب لموسى وهارون

خذا ملء أيديكما من رماد الأتون . وليزره موسى نحو السماء أمام عينى فرعون ليصير غبارا على كل أرض مصر . فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور فى كل أرض مصر . فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دمامل بثور طالعة فى الناس وفى البهائم ولم يستطيع العرافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل لأن الدمامل كانت فى العرافين وفى كل المصريين " .

● وجاء فى سفر الخروج الإصحاح العاشر :" ثم قال الرب لموسى مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد ليصعد على أرض مصر ويأكل كل عشب الأرض كل ما تركه البَرَد . فمد موسى عصاه على أرض مصر . فجلب الرب على الأرض ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل اليل . ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل فى جميع تخوم مصر . شئ ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا بعده كذلك . وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذى تَركه البَرَد حتى لم يبق شئ أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر " . .

● وجاء فى سفر الخروج الإصحاح العاشر :" ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر . حتى يُلْمَس الظلام . فمد موسى يدَه نحو اسماء فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام . لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام . ولكن جميع بنى إسرئيل كان لهم نور فى مساكنهم " .

● وجاء فى سفر الخروج الإصحاح الثانى عشر :" فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعا جنهم فى ثيابهم على أكتافهم . وفعل بنو إسائيل بحسب قول موسى . طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا . وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم فلبسوا المصريين " .

من واقع هذا الإيمان المطلق بالتوراة عقيدة وشريعة نستطيع أن نستخلص ثلاثة مزاعم كانت الخديعة الكبرى التى خدع اليهود بها العالم منذ ثلاثة آلاف سنة ولا زالوا يخدعونه بها إلى اليوم وهى : التوحيد والأخلاق والفكر فعبادة الله الواحد الأحد المنزه تنزيها مطلقا جاء بها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، ثم جاء بها موسى ثم عيسى . ولكن الشئ الخطير جدا أنه لم يَرِد لتلك الوحدانية المنزهة أى ذكر فى التوراة المزعومة .

فقد استعاض اليهود عنها بإله صنعوه على هواهم ولبَّسوا على أنبيائهم من لدن أبيهم إبراهيم مروراً بأبنائه إلى موسى ثم عيسى عليهم السلام .

وجسدوا فى ذلك الإله أقبح السلوكيات الأخلاقية وأضرى الشهوات الجسدية .. أما تسامى التوحيد ، أما طهارة التوحيد ، أما صفاء التوحيد فذلك مالم تعرفه التوراة المزعومة التى فتن بها اليهود . ومن هنا أصيبت الوحدانية على أيديهم بانهيار لم تفق منه إلى اليوم . فلم تسمع منهم طوال تاريخهم كله .

أما دعوة الوحدانية التاريخية وهى التى حفظها التاريخ فهى الوحدانية التى جاء بها أمنحتب أو اختاتون .. وكان من الأجدر أن يكون هو صاحب الدور التاريخى . ولكن اليهود طمسوها وأسدلوا عليها جُدُراً صفاقا من الإغفال حتى لم يعد التاريخ يذكرها بشئ سوى إشارة ضئيلة ليس ها كبير حسبان .

ومن ثم يمكن القول إن إخناتون هو أول من دعا إلى وحدانية الله فى مصر الفرعونية وأنها لم تفوق بين الناس بالنسبة لألوانهم وألسنتهم ومراتبهم . أما حين يدعى اليهود أنهم أول من دعا إلى الوحدانية فذلك هو التزييف الأول أو الجحود الأول الذى اقترفه اليهود فى حق أنفسهم ، وفى حق التاريخ، وفى حق الإنسانية .

أما التزييف الثانى أو الجحود الثانى فهو قول اليهود بأنهم أهدوا العالم مبادئ الأخلاق والآداب حتى صدقتهم أوروبا . فقد ظل كتاب اليهود يروجون لهذه الأكذوبة الكبرى حتى وقر فى أخلاد الأوربيين أن التوراة هى روح الحضارة الأوربية .

فما مدى صحة هذا التزييف الذى خدع العالم بتدبير محكم من اليهود ؟

إنه يستحيل استحالة مطلقة أن يأتى هؤلاء القوم بأية آداب أخلاقية صالحة أو بأية خصال إنسانية على شريعة الحق والعدل والتكريم لشخصيته الإنسان من ذات أنفسهم وإنما كل ما فعلوه أنهم كانوا مجرد نقلة حرفيين لأسس الأخلاق الحضارية الإنسانية من الحضارة المصرية القديمة . . بهذا أكد كبار المؤرخين الأوربيين نذكر منهم :

برستد ، وببير ، ومونتين ، وساف سودر برج ، وأوسترلى .

فقبل أن يوجد موسى فى الدنيا بما يقرب من ألف سنة ، نصح أحد الفراعنة ابنه : " مربكير" قائلا : " إن فضيلة الرجل المستقيم لأحظى بالقبول من ثورة رجل يقيم الظلم " . . فهذه النصيحة وردت فى التوراة فى صيغة تتفق ورموز الحياة الرعوية اليهودية حيث تقول : " هو ذا الاستماع أفضل من الذبيحة والإصغاء أفضل من الكباش؛ (سفر صموئيل الأول ١٥ :٢٢) . . ثم " فعل الحق والعدل أفضل عند الرب من الذبيحة "(سفر الأمثال ٢١ :٣) . .وباستقرار تاريخ الشرق القديم كله لا نجد فيه دينا تزن فيه الآلهة قلوب البشر عند محاسبتهم على أعمالهم سوى الدين فى مصر افرعونية . . وتتردد هذه اشعيرة فى توراة اليهود حيث تقول : " ولكن الرب وازن القلوب "(سفر الأمثال ٢١ :٢) .

وحتى تكون لدينا صورة كاملة عن السطو اليهودى على دستور الأخلاق المصرية القديمة فإننا نقدم مجموعة من النصائح الفرعونية وما يقابلها فى أسفار التوراة :

- من نصائح المصرى القديم : " آمن أينوب " .

" أعطنى أذنيك لتسمع ما يقال وأعطنى

قلبك ليفهمه

لأنه خير لك أن تحفظه فى قلبك ولكن

ويل لمن يرفضه"

جزء ٣ : ٩ -١٢

لترد جوابا بالذى أرسله

جزء ١ : ٦

لا ترفع علاقات الأرض

ولا تطمع فى زراع منها ولا تدخل أرض الأرامل"

جزء ٧ : ١٢ - ١٦٥

● وفى التحذير من إغراء الثروة واقتنائها ، جاء :

" ولا تتعب جريا وراء أكثر مما عندك

إذا كان ما عندك يكفى حاجتك .. وإذا

جاءتك الثروة عن طريق السرقة فلن

تمكث معك ليلة واحدة لأنه حين

يجئ الصباح لن يكون فى بيتك شئ

منها ، فإنها قد صنعت لأنفسها أجنحة

كالإوز ، وهى قد طارت نحو السماء

جزء ١٩ : ١٤، جزء ١٠ : ٥

● ومما يقابل هذه النصائح فى سفر الأمثا ل :

"أمل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجه

قلبك إلى معرفتى

لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك أن

تثبت جميعا على شفيتك

جزء ٢٢ : ١٧ - ١٨

لأعلمك قسط كلام الحق لترد جواب

الحق للذين أرسلوك

جزء ٢٢ : ٢١

لا تدخل التخم القديم ولا تدخل حقول الأيتام

جزء ٢٣ : ١٠

هل تطير عينيك نحوه وليس هو

لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة

كالنسر يطير نحو السماء

جزء ٢٣ : ٤ -٥

● وفي الفصل الذى عقده المؤرخ أوسترلى عن مصر وإسرائيل فى كتابه :: تراث مصر " ، أورد المشابهة الآتية :

" حذار من سلب الفقير أو من ظلم المكروب "

ويشبهها فى سفر الأمثال :

لا تسلب الفقير لكونه فقيرا ولا

تسحق المسكين فى الباب

جزء ٢٢ : ٢٢

● وكان حكماء مصر يؤثرون الخلق على الثروة ، فالثروة لاقيمة لها يوم الحساب فمن الطيش الركون إليها . فالحكمة المصرية القديمة تقول

" وأكلة أرغفة بقلب مرح خير من

ثروة مع الهم

جزء ٩ : ٥ - ٨

ويقابل هذه الحكمة فى سفر الأمثال :

" القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع هم

أكة من البقول حيث تكون المحبة خير

من ثور معلوف ومعه بغضة "

جزء ١٥ : ١٦ - ١٧

● ونصيحة آخرى بنفس المعنى

"مديح يعبر عن حب الناس لمرء خير من

ثروة فى مخزن "

جزء ١٦ : ١١ - ١٢

ويقابلها فى سفر الأمثال :

" لقمة يابسة مع سلامة خير من بيت

ملآن ذبائح مع خصام "

جزء ٧ : ١

● وينصح الحكيم المصرى الشاب من مصاحبة أهل النزق والتهور ؛ فيقول :

" لا تؤاخ غاضبا ولا تضغط عليه فى حديث "

جزء ١١ : ١٣ - ١٤

ويقابلها فى سفر الأمثال :

لا تستصحب غضوبا ، ومع رجل

ساخط لا تجئ " .

جزء ٢٢ : ٢٤

● ويحذر الحكيم المصرى من الرغبة فى الانتقام ؛ فيقول :

" لا تقل إنى وجدت حاميا فأستطيع

الآن أن أهاجم من أبغض

اترك نفسك بين يدى الله حتى يهزمهم

(أى الأعداء) صمتك "

جزء ٢٢ : ١ ـ ٨

ويقابلها فى سفر الأمثال :

لا تقل إنى وجدت شرا ،

انتظر الرب فيخلصك "

جزء ٢٠ : ٢٢

● أما عبارة : " انتظر الرب فيخصك " (سفر الأمثال ٢٠ : ٢٢) فتقابلها العبارة المصرية : " الله يعرف كيف يجيبه " (جزء ٥ : ١٠ ـ ١٧)

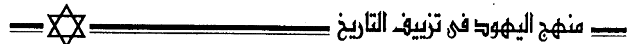
● ولما تحضَّرَ أيام مَلَكِيَّتِهم فإنهم نقلوا آداب المجاملات عن المصريين ومن ذلك :

" لا تتناول طعاما إذا جلست إلى عظيم

ولا تكن شرها فى حضرته ، وإذا أتخمت

نفسك بطعام غير مباح ففمك هو الذى يستطيبه

أنظر فقط إلى الطبق الذى أمامك



وأشبع حاجتك منه "

جزء ٢٣ :١٣ - ١٨

وهذه الحكمة مأخوذة من حكمة بتاح حوتب الذى عاش قبل ذلك بألفى سنة . وقد كانت حكمة بتاح حوتب :

" إذا كنت ممن يجلسون إلى طعام مع من هم أعظم منك ، فلتتناول ما يقدمه لك حين يقدمه ، ولا تنظر إلى ما هو موجود أمامه ، بل انظر فقط إلى ما هو أمامك ولا تبحلق النظر إليه . واخفض رأسك حتى يوجه إليك حديثا ولا تتكلم إلا إذا بدأك بحديث " .

ويقابل هذه الحكمة فى سفر الأمثال :

إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما هو أمامك

تأملا وضع سكينا لحنجرتك إن كنت شرها

لا نشته أطايبه أنها خيز أكاذيب "

جزء ٢٣ :١ - ٣

● وفى مجالات الأعمال نجد التقابل بيِّناً بين الحكمة المصرية والحكمة اليهودية التى أخذت منها . .

فالحكمة المصرية تقول :

" الطالب المجتهد فى عمله سيجد نفسه

خليقاً بأن يكون فى حاشية الملوك "

جزء ٢٧ :١٦ - ١٧)

يقابلها سفر الأمثال بقوله :

أرأيت رجلا مجتهدا فى عمله أمام الملوك

يقف ، لا يقف أمام الرعاع "

جزء ٢٢ : ٢٩

وفيما يتعلق بهذه المشابهة يقول المؤرخ برستد : " إن الأمثلة [١] المتشابهة لا حصر لها وهى جميعا تشير إلى أن سفر الأمثال العبرانى قد احتوى على جانب كبير من : " كتاب الحكمة " المصرى وقد تم الاقتباس دون الإشارة إلى المصدر كالمألوف فى تلك العصور . وإن كان السفر قد آشار إلى نحو لاشبهة فيه إلى الكتاب : "آمن إينوب " حتى وإن لم يذكر اسمه صراحة . فقد جاء فى مقدمة كلمات الحكيم هذه العبارة التى وردت فى سفر التوراة : " ألم أكتب لك أموراً شريفة من جهة مؤامرة (مشورة) ومعرفة؟" (أمثا ل ٢٢ : ٢٠) وقد كانت هذه العبارة فى النص العبرانى المبكر : "ألم كتب لك ثلاثين أملا من جهة مؤامرة ومعرفة ؟" ولكن هذا التغير التافه فى النص يصبح ذا دلالة إذا ذكرنا أن كتاب : " آمن إينوب" كان يتكون من ثلاثين فصلا" . . وفى تقدير برستد : " أن عنوان الكتاب الذى وصل إلى العبرانيين كان أقرب إلى عبارة : " ثلاثون فصلافى الحكم " . فاختصر النص المبكر لهذه الفقرة من التوراة إلى كلمة واحدة هى : " ثلاثين "وبذا تصبح المقابلة بين النصين على المنحو الآتى :

- فالنص المصرى يقول :

" تامل لنفسك هذه الثلاثين فصلا

التى تنطوى على الرضا والتثقيف "

جزء ٢٧ : ٧ ـ ٨

ويقابله فى سفر الأمثال :

---

(١) كتاب : التراث اليهودى والفكر أفرويدى ، تأليف : د / صبرى جرجس ، الناشر : عالم الكتب ، سنة ١٩٦٩ ، صـ ٨٢

" ألم أكتب إليك ثلاثين أمرا من جهة مؤامرة ومعرفة"

جزء ٢٢ : ٢٠

وينتهى برستد إلى أن : كاتب (١) سفر الأمثال فى التوراة كانت لديه نسخة كاملة (أى تتضمن الثلاثين نصا) من الأصل المصري لكتاب آمن إينوب . وعلى الرغم من أنه لم يترجم محتويات الكتاب كله فإنه ضمَّن ترجمته المختصرة ثلاثين مثالا بالضبط (أمثال ٢٢ :٢٧ ، ٢٤ :٢٠) كما أنه تصرف فى الترجمة على نحو يجعلها أكثر ملاءمة للحياة فى فلسطين . ومن ذلك أن الكاتب المصرى ذكر :" أجنحة الأوز " مثلاً لأن وفرة الماء بمصر تتيح للأوز أن يعيش فيها ، بينما استبدله فى فلسطين بأجنحة " النسر " . وفى مصر كان " الكاتب " مثال رجل الأعما الناجح بينما كان المرادف لهذا الشخص عند العبرانيين هو :" الرجل المجتهد فى عمله " كيفما كان هذا العمل .

ولم يكن سفر الأمثال وحده هو الذى حفله بالحكمة المصرية القديمة فكثير مما أورده نشيد الإنشاد مقتبس من فعل الحب المصرى . وكذلك فإن أسفار أيوب ، وصموئيل ، وأرميا ، والمزامير ، والتثنية بل إن الشريعة اليهودية ذاتها فيما يقرر برستد قد نقلت الكثير من حكمة " آمن إينوب ؛ فقد زودتها بالافكار والاشخاص والمبادئ الاخلاقية فضلا عن روح التراحم الإنسانى الذى تنطوى عليه .

وها هو ذا بعض مما ورد فى سفر أرميا وأصله فى حكمة " آمن إينوب " .

● آمن إينوب :

" الأحمق الذى يخدم فى الهيكل مثله

مثل شجرة فى البادية فى لحظة تفقد

فروعها وتجد نهايتها فى مخزن الأعشاب

وهو يبعد عن مكانه كثيرا وتكون النار

مثواه .

أما الرجل الذكى حقا الذى يعرف نفسه

جيدا فمثله مثل شجرة فى حديقة تزدهر

وتثمر ويظل فى حضرة الله

ثمره حلو وظله لطيف يجد نهايته فى الحديقة"

جزء ٦ : ١ - ١٢

ونجد هذه الحكمة فى سفر أرميا علي النحو الآتى :

" ملعون الرجل الذى يتكل على الإنسان ويجعل البشر

ذراعه وعن الرب يحيد قلبه ويكون مثل العرعر

فى البادية ولا يرى إذا جاء الخير بل يسكن الحرة

فى البرية أرضا سبخة وغير مسكونة .

مبارك الرجل الذى يتكل على الرب وكان الرب متكله

فإنه يكن كشجرة مغروسة على مياه وعلى نهر

تمتد أصولها ولا ترى إذا جاء الحر ويكون ورقها أخضر

وفى سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الإثمار :

جزء١٧ : ٥ - ٨

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

فإن كان المثل الأعلى للإنسان عند آمن إينوب هو من يعتمد على الله فى صبر ويقين بأن الله هو خير نصير له فإن برستد يتساءل : أهى مجرد مصادفة أن نجد فى التراث اليهودى المتأخر وصفا لموسى يقول : "وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض "(سفر اعدد ١٢ :٣) . .

وتلك صورة مخالفة تماما للصورة التى أوردتها التوراة المزعومة فى بواكير تاريخها فقد صورته بأنه : " رجل عمل جم النشاط شديد البأس عظيم الثقة بنفسه ذا شراسة عدوانية لا تغتفر خطأ لا من صاحبها ولا من غيره " . .

فأين هذه الصورة من صورته الجديدة : موسى الوديع المتواضع الرقيق الحاشية الدمث الشمائل الزاهد فى حطام الدينا . بل أين هذه الصورة من صور موسى الخادم البائس الذى : " لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته "(سفر إشعياء ٣٢ :٢) . والذى : " ظلم ، أما هو فتذلل ولم يفتح فاه "(سفر إشيعاء ٥٣ :٧) . . ولقد كان المثل الأعلى عند أمن إينوب هو الرجل " الصامت " .

ترى ما السبب فى هذا التحو ومثله كثير فى التوراة؟ هل هو رقى أخلاقى ؟ أم أن اليهود وجدوا أنفسهم فى موقف سياسى يقتضى التقية والمصانعة ؟

وفضلا عن هذا يقرر برستد : " أن اليهود [1] كانوا يعرفون ترانيم اخناتون اتى امتدت فيها سيادة العدالة من مجال خلقى قومى إلى مجال عالمى تحت إمرة إله واحد والتى أنشدها قبل ظهور المزامير وبالأخص المزمور الرابع بعد المائة بزمن طويل " . . كما يرى أيضا أنه : " كان لهذه الترانيم أثر كبير فى الانبثاق التدريجى لمفهوم التوحيد فى تطور فكرة " يهوه ؛ القبلى المحلى إلى مفهوم الإله الواحد "

ثم يورد برستد نماذج من تلك الترانيم وما يقابلها من مزامير ولا سيما المزمور ١٠٤ . .

---

(١) المرجع السابق صـ ٨٥

عن الليل والنهار

● ترانيم إخناتون :

حين تغربين فى الأفق الغربى من

السماء يكتنف الظلام الأرض فتشبه الموت

وينام الناس فى مخادعهم ويلفون رؤوسهم

وتتوقف أنوفهم ولا أحدهم يعرف الآخر

ويسرق ما تحت رؤوسهم دون أن يشعروا

= يقابها من المزامير :

تجعل ظلمة فيصير ليل

فيه يدب كل حيوان الوعر

مزمور ١٠٤ :٢

● ترانيم اخناتون :

يخرج الأسد من عرينه وتلدغ الثعابين

ويسود الظلام ويكتنف العالم السكون

إنه (أى الإله) جعلهم يستريحون فى سمائه

= يقابلها من المزامير :

الأشبال تزمجر لتخطف

ولتلتمس من الله طعامها

مزمور ١٠٤ :٢١

عن النهار والإنسان

● ترانيم اخناتون :

مشرقة هى الأرض حين ترتفع (أى الشمس)

فى الأفق وحين تتألق يا آتون أثناء النهار

إنك تطرد الظلام حين ترسل أشعتك

ويصبح القطران (مصر) فى احتفال يومى

ويستيقظ الناس ويهبون واقفين

حين توقظهم أنت فيغتسلون ويرتدون ملابسهم

ويرفعون أذرعتهم تمهيدا لبدء

النهار ثم ينصرفون إلى أعمالهم

= يقابلها من المزامير :

تشرق فتجتمع وفى مآويها تربص

الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء

مزمور ١٠٤ :٢٢:٢٣

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

وهكذا فى الدين والعقيدة والأخلاق والسلوكيات الحضارية ، كان اليهود عالة على مصر القديمة .. ومع هذا فليس لهم من عدو يمقتونه غاية المقت ، ويبغضونه غاية البغض سوى مصر ..وإذا قلت مصر فإنما أقول الأمة العربية قاطبة ..

والغاية إقامة حضارة صهيونية عالمية ينضوى العالم كه تحت لوائها .

ليس هذا افتراء نفتريه أو افتراضا ندعيه ، ولكنها الحقيقة التاريخية فى ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها .

خرافة السامية

هل اليهود هم وحدهم الساميون ؟

وإذا كانوا وحدهم الساميون فماذا نقول فى الفروع الأخرى لأبناء سام ؟

ماذا نقو عن إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام ؟

يبدو أن سامية إسماعيل ليست على درجة سواء مع سامية أبناء إبراهيم الآخرين أو أنها ليست من صنف ساميتهم .. وإلا فلماذا هذا الإغفال المتعمد لإسماعيل بكونه الإبن الأول لإبراهيم ﷺ ؟ الإغفال مقصود لكى يفوز اليهود بأنهم وحدهم الساميون المحتفظون بالخصائص الجسمية والنفسية والأخلاقية والدينية التى لا يشاركهم فيها أحد من العالمين بل التى يسمون بها على الناس أجمعين وكأنها النفحة الإلهية التى خصمهم بها الإله .

ومن هنا استطاع اليهود أن يختلسوا السامية لهم وحدهم .. هذا إذا كانت هناك ثمة سامية خالصة فى تأصيلها وأن يزرعوها فى أوروبا على اعتبار السمسرة وعلى اعتبار أن أوروبا لا تعرف شيئا عن السامية ولوفى خطوطها التاريخية العريضة .. أليس كتاب العهد القديم هو كتاب اليهود وأن ما جاء به هو الصدق كل الصدق ؟ هذا فى الوقت الذى ما كان لليهود أن يظاهروا بتلك الخرافة لولا انعدام الوعى التاريخى العربى الذى لم يستطيع أن يجعل من السامية التى يدعيها اليهود قضية خطيرة كان عليه أن يظهرها تاريخيا ويثبت تهافتها تاريخيا وفكريا ويحلل بواعثها النفسية والأخلاقية والاجتماعية فى إطار من تصورات اليهود للماضى والحاضر والمستقبل شريطة أن تكون الدراسات متصلة

لم يحدث شئ من هذا للحسرة الشديدة حتى أصبح العرب أنفسهم وهم يخشون أن يتهموا بالعداء للسامية لدى أية حادثة أو حديث .. فنراهم يسارعون بتبرئه أنفسهم من تهمة السامية .

ومن هنا فإننا نزيد قضية السامية تأكيدا وإيضاحا وكشفا عن مخادعات تلك الخرافة اليهودية .

فنقول ، أن ليس اليهود هم وحدهم الساميون لكنهم كانوا قبيلة كسائر القبائل السامية التى ماجت بها شبة الجزيرة العربية من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال .. وإن أصح الآراء وأرجحها عن الوطن الأصلى للساميين لهو الرأى القائل بأنه الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية .. ولقد حدث أنه قبل التاريخ وفى العصور التاريخية كانت القبائل السامية تتجه صوب الشمال والشرق . فهناك قبائل هاجرت إلى جنوب العراق وغلبوا السومريين على أمرهم وأنشأوا دولة بابل والحضارة البابلية ثم الآشورية .

وهناك قبائل هاجرت إلى الشمال كانت أصلا لما تفرع منها من الشعوب التى عرفت بالكنعانية . ومن هذا الجانب أيضا هاجرت بعض قبائل الإسماعيلية (نسل إسماعيل عليه السلام ، وكان موطنهم الأصلى بلاد لحجاز) ..

ومن أشهر هذه القبائل : بنو قيدار وبنو نابت . أما بنو قيدار فقد انتقلوا من الحجاز إلى يثرب ومنهاإلى مدائن صالح . ثم واصلوا ترحلهم شمالا إلى خليج العقبة ومنه إلى وادى موسى .. وكذلك فعل بنو نابت فاستقروا فى منطقة خليج العقبة .

وفى مستهل التاريخ هاجرت بعض القبائل المعدية اتى كان موطنها من الحجاز إلى الشام وبعض القبائل القحطانية التى كان موطنها من اليمن إلى الشمال والشرق فنزلت منها خزاعة بمكة والأوس والخزرج بيثرب ، وغسان بالشام ولخم بالعراق .

ولكى نقدر موقف اليهود من سائر القبائل السامية فإننا نمثل لهم بصورة اجتماعية معروفة لدينا .. فمن الأحوال الاجتماعية التى نشهدها وتمر بنا أن أبناء الأسرة الكبيرة سواء أكانوا أخوة أو أبناء عمومة لا يكونون دائما على درجة

واحدةفى بسطة الرزق وعزة الجاه ولا على طبيعة واحدة فى الخلق والخصائص النفسية والسلوكيات والتطلعات المستقبلية . فإن منهم من يشعر بضعفه وقلة حيلته فلا يجرؤ على منافسة إخوته أو أبناء عمومته أو مسايرتهم أو محاذاتهم على الأقل ..ومن ثم فهو يعتزلهم ما وجد إلى الإعتزال سبيلا ولا يحاورهم إلا وهو على تقية وحذر .

ومثل هذا الضعيف المخذول والذى فرض على نفسه العزلة لضعفه وقلة حيلته ، فهو أبدا يتحاشاهم أو يتحاماهم وإن كان فى نفس الوقت يلتمس منهم الرفد والعون .. مثل هذا الضعيف المخذول يعيش أبدا وهو مضرس النفس على إخوته أو أبناء عمومته يحسدهم وينقم عليهم ويتحرك حقدا على الإنتقام منهم إن أمكنته الفرصة .. مصورا لنفسه بما يشبه اليقين أنه أحق بما هم فيه وأنه أسمى منهم وأعظم ، ولكنه الزمان الخوان ..وهو فى ذحله المتجدد هذا يثير الريبة فى نفوس بنى عمومته ويرى الحقد فى نفوس أبنائه فيورثهموه وكأنه أعز ما يتركه لهم وينصحهم به .

هكذا كان شأن قبيلة إبراهيم فى مستهل وجودها بين أبناء عمومتها فى الجنوب الغربى من شبة الجزيرة العربية . فقد اتخذت جانب الإعتزال المقصود من سائر القبائل السامية فلا تأنس إلى واحدة منها ..

واتخذت سبيلها إلى الهجرة ـ كسائر القبائل ـ إلى جنوب وادى النهرين وهى على حال من المعيشة البدوية والحضرية قانعة بأعمال الوساطة والسمسرة وهى الأعمال التى لا تحتم على أصحابها ضروة المخاطرة فى التعامل مع أهل امدن وأهل الصحراء .

وهكذا احفظت هذه القبيلة ، قبيلة إبراهيم ، فيما بعد بسلوكياتها وأخلاقها فيما بينها ، وكذلك بأسرارها فى العبادة والتنظيم والأهداف .

كما احتفظت بهجتها السامية الغوغائية التى عرفت فيما بعد بالعبرية والتى أصيبت هى الأخرى بالتحجر فلم تتطور بفضل التدافع الاجتماعى والحضارى

مع سائر اللغات السامية التي تطورت إلى التهذيب والإرتقاء يقول فولتير في المعجم الفلسفي تحت مادة " آدم " " إنه من المحقق أن اليهود كتبوا قليلا جدا ، وكانوا على جهل شديد بعلوم الفلسفة والهندسة والجغرافيا فلم يعرفوا شيئا من تواريخ الأمم ولم يأخذوا في التعلم إلا بعد اتصالهم بالإسكندرية حيث شرعوا في اقتباس المعرفة وكانت لغتهم البربرية مزيجا من الفينقية القديمة والكلدانية المشوهة وبلغ من فقرها أنها لا تحتوى كثيرا من الأزمنة في أفعالها " . .

وهكذا اكتمل لهذه القبيلة السامية مقومات العزلة : العزلة القبلية والنفسية والدينية واللغوية . وبهذا التحجر المتكامل أصبحت لدى هذه القبيلة - قبيلة إبراهيم عليه السلام - القناعة الكامة أنها هي أسمى القبائل ، وأخلاقها هي أكمل الأخلاق . وعلى هذا فهي ترفض كل تعامل مع الغير على سنة الإخاء والتعاطف الإنساني الكريم .

ورغم هذا فقد كانت وطأة الشعور بالضعف تحتم على هذه القبيلة أمرين هما :التماس الحماية من القبائل السامية القوية بالمصاهرة ، أو باصطناع لغتها لغة لها .

ففي سفر التكوين أنها انتسبت إلى الأصل الآرامي حين أرسل إبراهيم عليه السلام رسوله لخطبة : رفقة بنت بتوئيل الآرامي فقال له :" تذهب إلى أرضي وعشيرتي وتأخذ زوجة لأبني " . ولما نزل جماعات من هذه القبية أرض كنعان جعلوا لغتهم لغة كنعانية . . وقال أشعيا وهو يتنبأ بغلبة قومه على أرض مصر إنه :" في ذلك اليوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان " .

أما تسمية لغتهم بالعبرية - كما سُمي اليهود بالعبريين - فهو أنه حين كانوا يخشون الاندماج مع القبائل السامية القوية فإنهم كانوا يتعاملون معها وهم على مشارفها حيث يعبرون من مدينة إلى أخري . ومن ثم فإن أهل هذه اقبيلة سموا بالعبريين

ولم يمتنع الأمر أنهم كانوا يلتقطون وهم يتعاملون مع أهل المدن بعض

الألفاظ والتراكيب اللغوية . ولعل أكبر حركة عبور فى تاريخ هذه القبيلة وغيرها من القبائل السامية - وهى التى وضعت البصمة الأولى لتسمية - كانت حين عبروا نهر الفرات ليصلوا إلى فلسطين .. هذا من ناحية .، ومن ناحية آخرى فإن هذه القبيلة كانت كثيرة العبور من وإلى نهر الأردن .. جاء فى سفر التثنية الإصحاح ٣١ : " قال لى لا تعبر هذا الأردن ، والرب إلهك هو عابر قدامك ، يشوع عابر قدامك " .. وجاء فى الإصحاح التاسع من سفر التثنية : " إسمع يا إسرائيل أنت اليوم عابر الأردن لكي تدخل وتمتلك شعوبا أكبر وأعظم منك ومدنا عظيمة ومحصنة إلى السماء " ..

ومن هنا فقد كان للغة عند اليهود قداسة خاصة كما أن التشتت فى ذاته أكسبهم قداسة حتى الأرض التى يمموا وجوههم شطرها كانت لها قداستها .فهل يمكننا أن نقول إن اليهود يجعلون من كل ما يلمسونه أو ينظرون إليه أو يتفكرون فيه مقدسا ؟ فالشتات مقدس .. واللغة التى نشأت بالشتات مقدسة ، والقوم الذين نشأوا فى الشتات مقدسون .

وإن من طبيعة هذه النفسية العبرية وهى على هذه اشاكة أن تنكر الحق على صاحبه ، وتحقد عليه وتتربص به علها تصيب منه مغنما ..

هكذا كان شأن اليهود فى غابرهم القديم - حين لم يكونوا قد عرفوا باسمهم هذا بعد حيث كانوا مجرد قبيلة سامية تحت قيادة إبراهيم عليه السلام - أجل ، حين علمهم المصريون الزراعة والصناعة والصحة وآداب السلوك وتنظيم حمل السلاح فضلا عن أناشيد الصلوات وترانيم الدعوات .. وحين علمتهم الحضارة الإسلامية الفلسفة والمنطق والصرف وعلوم اللغة والطبيعيات والرياضيات والطب .

وفى الحالين لم يحمد اليهود للحضارة المصرية القديمة يداً، ولم يحمدوا للحضارة الإسلامية فضلا ..

وإذا سأل بعض الآحاد فقال : ألا يمكن أن يكون لليهود دور ثقافى أو حضارى قديم ؟

ونقول : إذا ضرب اليهود على أنفسهم مثل هذه العزلة العنصرية التى لم يكن لها مثيل فى تاريخ الوجود الإنساني ، فهل يمكن أن يكون لهم دور ثقافى فى القديم فضلا عن الحديث ؟.. كان للحضارة الآشورية والبابلية والآرامية والآكادية والكنعانية واليمنية دورها فى مسيرة التاريخ الحضارى للإنسانية ، إن فى الفكر أو الفن أو اللغة أو العقائد والأخلاق أو العلوم والصناعات ، فما هو دور اليهود فى بداوتهم وأيام مملكتهم ، ثم أيام الشتات إلى اليوم ؟ لا شئ.

ذلك أن اللباب الأولى والضرورى للنهوض بالدور الحضارى هو الإحساس بالآصرة الإنسانية التى تربط بين إنسان حضارة وإنسان حضارة أخري ..

ومثل هذه الحضارة كانت معدومة بالنسبة لليهود .. ومن هنا ظلوا عالة على أمم الحضارة فى المشرق والمغرب ، فى القديم والحديث .

ومما أحرص على الإشارة إليه وتأكيد ضرورته أن نعى جيدا أنه إذا أصبح الحقد على الغير عقيدة دينية لها مبادئها وشعائرها ، وأن الغاية الأرلى والأخيرة لذلك الحقد هو القضاء على ذلك الغير فإنه لمن البديهى أن يدعى ذلك الحاقد لنفسه المرية العليا والمقدسة فى كل الخصائص الإنسانية . فهو من ثم قطب الوجود الإنسانى وخالقه ومبدعه ومحركه.. وكذلك كانت دعوى السامية عند اليهود ، وَهمِو بدافع الحقد حتى أصبح الوهم عقيدة دينية .. وتلك هى الخرافة الكبرى التى ابتليت بها الإنسانية فى ماضيها وحاضرها .

وقبل أن نتناول الجهود التى بذلتها الصهيونية اليهودية والصهيونية غير اليهودية لترويج خرافة السامية فإننا ننبه إلى خمس مبادئ اصطنعتها الصهيونية لتأصيل الخرافة فى الفكر الغربى كحقيقة تعلو على النقد والتفنيد وهى :

أولا : محو الوجود العربى من التصور الأوروبى اعتماداً على المترسبات القديمة التى يحتفظ بها الأوروبيون عن العرب والإسلام

ثانيا : محو الوجود الفكرى لحضارة الإسلامية من الفكر الأوروبى وكأن

لم يكن هناك شئ اسمه الحضارة الإسلامية .

ثالثا : جعل الكتاب المقدس لليهود بكل ما يحويه هو المدخل الطبيعى الوعى الأوروبى وذلك من جانب الأخلاق ولسلوك والتربية والتعليم وافكر والثقافة والفن

رابعا : أن تكون فلسطين هى الوطن القومى والروحى لليهود فى كل أنحاء العالم .

خامسا : تصبح فسطين اليهودية هى القاعدة الرئيسية لسيطرة الصهيونية على العالم وإخضاعه لمخططها .

فإذا أردنا بعد هذا أن نحدد بداية تقريبية لجهود الصهيونية غير اليهودية لتحقيق هذه المبادئ قلنا إنها منذ قب نهاية القرن السادس عشر اميلادى . فلقد كان بعض زعماء الإصلاح الدينى الأوروبى ممن ناودا بالاستنارة من العوامل الفعالة فى تغيير النظرة إلى اليهود ولا سيما أن فكرة عودة اليهود إلى فلسطين كمقدمة لعودة المسيح المنتظر متغلغلة فى الوعى الأوروبى بصورة كبيرة . فلقد كان مارتن لوثر كمؤسس وزعيم لحركة الإصلاح البروتستانتى مسؤلا إلى حد بعيد عن ظهر مناخ القرن السادس عشر الروحى والدينى الجديد الذى أوجد أرضا خصبة للأفكار الصهيونية الأولى . . قال فى أحد مؤلفاته : "شاءت الروح المقدسة أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس للعالم عن طريقهم وحدهم . إنهم الأطفال ونحن الضيوف والغرباء وعلينا ان نرضى بان نكون كالكلاب التى تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادها تماما كالمرأة الكنعانية " .

ومن هنا راجت اللغة العبرية لا كوعاء للعقيدة اليهودية فحسب بل كمنهل ثقافى عام افتتن به الأوربيون إلى حد الهوس والجنون ؛ وكان العالم كله لم يبدع من الآثار الفكرية والثقافية سوى التوراة وبذلك تسربت هذه الروح العبرية الجديدة إلى الفنون والآداب .

وإذا كانت البيوريتانية الإنجليزية هى أحدي أدوات الغزو العبرى للفكر الإنجليزى رالأوروبى فما ذلك إلا لأنها وجدت التوراة : " مثالاً سماويا للحكومة الواحدة ودلالة واضحة للقوانين اتى يجب على البشر اتباعها وإذا عصوها فالعقوبة ماثلة للعيان وآتية " . .

وبفضل هذا القول وما شابهه من حديث الروح والشكل أصبحت أفكار التوراة وصورها وأحداثها وأيامها المغنى والمنهل للفنانين والشعراء لا فى انجلترا وحدها بل فى أنحاء القارة الأوروبية بأسرها ؛ فكتب ملتون قصيدته المشهورة :" الفردوس المستعاد " ، وفيها تحدث عن عودة اليهود إلى فلسطين فقال :" لعل الله الذى سيذكر إبراهيم وسيعيدهم نادمين وصادقين وسيشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين جذلين إلى وطنهم " . .

وبنفس هذه الروح كتب الشعراء الإنجليز : اللورد بيرون . وورد زورث . ورو بروى بروننج وغيرهم . فقد كتب بيرون فى قصيدته :" إيك من أجل هؤلاء " :

" أيتها القبيلة الكثيرة التجوال ذات الصدر المرهق كيف

ستستقرين وتشعرين بالراحة

إن لليمامة عشها وللثعلب وكره

وللبشرية وطنها - أما إسرئيل فليس لها إلا القبر "

كما كتب الشاعر الفرنسى راسين مسرحية :" إيستر " سنة ١٦٨٩، والتى يعدها النقاد إحدى روائع الدرامى الفرنسية .

وكذلك كان شأن الفلسفة فقد كان هناك إيمان باليهودية عقيدة وفكرا وأخلاقا نتبين ذلك فيما كتبه كبار فلاسفة القرنين السابع عشر واثامن عشر ، كجون لوك ، وإسحق نيوتن ، وجوهان هردر ، ورسو، وباسكال ، وكنت . . وكذلك عمل الأدباء والشعراء والعلماء والفلاسفة الأوربيون على تأصيل حب

السامية واحترامها وتحقيق أمنية اليهود فيها بالعودة إلى فلسطين .. ومما له دلالته على عمق هذا الحب وأبعاده هو قول السياسي الإنجليزى :" لويد جورج " عن نفسه :" نشأت فى مدرسة تعلمت فيها تاريخ اليهود أكثر من تاريخ بلادى ، وبمقدورى أن أذكر أسماء جميع ملوك إسرائيل ولكنى أشك إن كنت أستطيع ذكر بضعة ملوك من ملوك انجلترا أو مثل ذلك العدد من ملوك ويلز ..لقد أشربنا بتاريخ جنسكم فى أعظم أيام مجده عندما أقام أدبه العظيم الذى سيتردد صداه حتى أخر أيام هذا العالم القديم والذى سيؤثر فى الأخلاق الإنسانية كلها ويشكلها ".

فإذا كان الوجود ، كل الوجود ، لليهود وحضارتهم التى لم يعرفها سوى الوهم الأوروبى أو التعصب الأوروبى من خلال التعصب الصهيونى فلا وجود للعرب على الإطلاق .. وهذا ما أصر عليه اللورد مانرحين قال " إذا ذهب العرب بعيدا فى ادعائهم أن فلسيطن واحدة من بلدانهم تماما كما هى بلاد ما بين النهرين أو الجزيرة العربية فإننى أعتقد أنهم يتحدون الحقائق التاريخية والمبادئ والروابط ذات الطبيعة الأهم وهى الطبيعة المقدسة . ليس من الممكن أبد اعتبار فلسطين بلدا على قدم المساواة مع البلدان العربية الأخرى . إن مستقبل فلسطين لا يمكن أن تقرره الانفعالات المؤقتة ومشاعر غالبية عرب الوقت الحاضر ".

وهكذا تضافرت الصهيونية غير اليهودية مع أهداف الاستعمار الغربى على ترسيخ خرافة السامية واستغلالاً لهذا المناخ الجديد فإن الصهيونية اليهودية عملت على تحقيق ثلاث مهام نجحت فيها إلى حد بعيد :

أولاً : غرس السامية فى الوعى الأوروبى على اعتبار أن الساميين هم

أصل روح الحضارة الأوروبية بل الحضارة الإنسانية .

ثانيا : إرهاب كل من يجهر بالعداء لهذ الحب بقول مباشر أو غير مباشر وبعمل مباشر أو غير مباشر ولو كان إحقاقا لحق أو تأييداً لكلمة عدل

ثالثا : تزييف الحقائق التاريخية ومحوها تماما بالنسبة للعرب ، ومن ثم فلا سامية إلا السامية اليهودية . وكخصلة نفسية مريضة فإن الحقد الصهيونى يعمل دائما على النزوع للسامية بطريقتين إرهابيتين :

الأولى : تحدى كل القيم والمبادئ الأخلاقية والأعراف الدولية مما يخلق معارضة اليهود واحتجاجا عليهم فيكون ذلك ذريعة لهم لإرهاب من يندون ويحتجون .

الثانية : إيقاع الأذى الإرهابى بأنفسهم حتي لو سقط منهم ضحايا كثيرون . وبذلك يستطيعون أن يقولوا إنه مازا فى العالم من يكره السامية .

وقد انتهزت الصهيونية اليهودية فرصة ظهور شعار :" معاداة السامية ؛ الذى صاغة فى السبعينات من القرن التاسع عشر كل من :" فلهلم مار "،" وإرنست رينان الفرنسى وجعلت منه سلاحها الرئيسى فى الإرهاب السياسى والفكرى والاجتماعى .

ولو سألنا العهد القديم للصهيونية اليهودية لوجدناه ميلئا بخزايا اليهود وأحقادهم على أنفسهم وعلى العالم وعلى الناس أجمعين .. فكيف غفل الفكر الأوروبى عن هذا كله ؟

هل هو الافتتان بكل ما هو شاذ غريب ؟

هل هو الافتتان للشرق وما يبعثه فى الذهن الأوروبى من أوهام وأحلام ؟

هل هو الكره الأوروبى لشرق العربى والحضارة الإسلامية ؟ وكأن الأوربيين

قد وجدوا أنفسهم وقد خرجوا تلقائياً من ظلمات الجهالة إلى نور الحضارة الحديثة بخفقة خرافية من جناح " يهواه " ، فلم يعرفوا من ثم علما عربيا ولافكرا عربيا ولا تصوفا عربيا ؟

هل هى جسارة المخاطرة الاستعمارية التى لا تزال إلى اليوم تبعث عبثها الإرهابى التآمرى بمصير الأمة العربية ومستقبلها ؟

نعم ، هو كل ذلك ويزيد . . .

ولقد سبق أن قلنا إن الصهيونية اليهودية قد تلقفت شعار :" معاداة السامية "، واصطنعته سلاحا ترهب به عدوها أو من تجد فى قوله أو فعلة منا وأة لها ولو من باب حسن النية أو يقظة الضمير . . فهى لم تتخذ شعارها من عقيدتها الدينية فتقول :" معاداة اليهودية " أو معاداة الإسرائيلية " ، مثلا ، لأن الشعارين معا لا يصلحان أنهما يفجران كوامن العداء التاريخى القديم ويجسدان الصورة الممقوتة التى عرف الناس بها اليهود .

أما شعار :" معاداة السامية" فهو تأكيد على الاتهام بالعنصرية . . وهذا هو التناقص الخرافى الذى تعيشه الصهيونية اليهودية . فهى تكره الناس أجمعين باسم السامية ثم تتهمهم بالعنصرية باسم السامية ، فأية غرابة بل أية خرافة هذه ؟

وأمام هذه النتيجة فإننا نفند " خرافة السامية " من أربع جبهات متكاملة :

الأولى : السامية فى طبيعتها النفسية والاجتماعية

الثانية : السامية والنقاء العنصرى

الثالثة : فلسفة السامية

الرابعة : السامية إرهاب وابتزاز

السامية فى طبيعتها النفسية والاجتماعية

إن تعليل الصهاينة لعداء الناس لليهود هو قمة التحريف وقمة اتخريف معا : قمة التحريف لأنهم أرادوا أن يصطنعوا من علم النفس التحليلى بينات علمية يحللون بها بواعث ذلك العداء وأسبابه فانحرفوا بالتحليل والتعليل عن منطق العقل ومنطق العلم فى آن راحد .. فما من حجة أتوا بها إلا وهى متهافتة فى شكلها ومضمونها .. وقمة التخريف لأنهم أراوا أن يجعلوا من شعار :" معاداة السامية " خطيئة البشرية فى أزلها وأبدها وأن على الأحفاد وأحفاد الأحفاد أن يتحملوا أوزارها ويدفعوا ضريبتها جسما ونفسا ، لأوهام المخططات الصهيونية .

ولتفسير ما نقوله فإننا نعرض نظريتين تقومان على أساس التحليل النفسى المبنى على نظرية فرويد اليهودى الصهيونى ..

فالنظرية الأولى هى نظرية :" كبش الفداء " التى وضعها عالم النفس اليهودى :" أوتو فينيكل " .

فهو يرى أن مضطهدى اليهودى كثيرا ما ينسبون إليهم نزعات العدوان

(القتل) والجنس (السلوك الجنسى المنحل) ، وذلك من صنع الخيال . ومعنى ذلك فى مفاهيمهم التحليل النفسى " أن هذه التزعات مختفية فى نفوس من يوجهون إلى اليهود تهمتها وأن اليهود فى ذلك ليسوا إلا مجرد كبش فداء " .. ففى تصور فينيكل أن مضطهدى اليهود يكبتون هذه النزعات الموجودة أساساً فى نفوسهم ، يكبتونها فى اللاشعور . ولما كانت أحدى وسائل الدفاع ضد إدراك ما فى اللاشعور هى العملية النفسية المعروفة باسم الإسقاط أى رؤية الصفات التى لا يود المرء أن يراها فى نفسه فيراها فى غيره فإن مضطهدى اليهود بإسقاطهم هذه الصفات الموجودة فيهم أصلا على اليهود يرون كأنها موجودة فيهم فينطلقون إلى اتهامهم بها على هذا الأساس وبذا يصبح للاتهام مبرر يقبله الشعور .

ثم يتقدم فينيكل خطوة فى تعليل العداء للسامية ؛ فيقول ك" إن لنزعة

اضطهاد اليهود خصائص متفردة لأن اليهود عند أصحاب هذه النزعة لا يمثلون السلطات التى لا يجرأون على مهاجمتها فحسب ولكنهم يمثلون أيضا ما فى نفوسهم من غرائز مكبوتة يبغضونها وتحرمها نفس السلطات التى وجهت ضدها . أى أن معاداة السامية تصبح ذلك تكثيفا لنزعات متعارضة تجمع بين الثورة الغريزية الموجهة ضد السلطة والكظم القاسى لهذه الثورة وإنزال العقاب بصاحبها .. ،معنى هذا أن يصبح اليهودى بالنسبة لمن يضطهده الشخص الذى يود أن يثور عليه ونزعات التمرد داخ نفسه فى آن معا . ومما يساعد على تحقيق ذلك أن اليهود يشتركون مع اللا شعور فى صفة الغرابة " .

فكأن فينيكل بنظرته هذه يتهم الشعوب من البواكير الأولى للتاريخ إلى اليوم بالانحراف الجنسى والأخلاقى والرغبة المحمومة فى تدمير كل نظام اجتماعى .

والنظرية الثانية هى نظرية " : الهذاء الجمعى " ، وصاحبها هو عالم النفس اليهودى الصهيونى :" إرنست سيمل " .. وهى نظرية غاية فى الغرابة واختلاط المنطق وتفاهته ؛ فخلاصة رأيه :" أن معاداة السامية مرض عقلى يصيب الشخص ويبدو فى صورة نكوص أو ارتداد إلى المرحلة التى كان فيها البغض السابق للقدرة على الحب هو المتحكم فى العلاقات البيئية .ولب هذا المرض العقلى يتمثل فى " باثولوجيا الكراهية " ، وهو على هذا النحو يمثل نزعة عدوانية هدامة غير قابة الضبط ومنطلقة من مُعتقد هُذائى مضاد لكل مقتضيات الواقع أى أنه اضطراب هُذائى يصيب العقل الجمعى بينما يظل عقل الأفراد الذين يكونون الجماعة سليما " ..

ويُفهم هذ الكلام على وجه واحد لا يتجاوزه ، وهو أن الفرد الذى يعادى السامية يظل بعقله طالما كان بعيدا عن الجماعة التى تعادى السامية ، فإذا انضم إيها أصابة مس من جنونها .. وتعليل هذا المنطق الجنونى عند " إرنست سيمل " هو أن الفرد ـ وهو بطبيعته مجنون ـ يهرب من جنونه الفردى إلى الجنون

الجمعى ليحمل الجماعة تبعة جنونه . .

ويستعين " سيمل " بمصطلح الإسقاط لتفسير " معاداة السامية " ؛ فيقول : "إن اتهام اليهود بالشرور التى تعزى إليهم هوإسقاط لهذه الشرور الموجود أصلا فى نفوس من يوجهون اتهام إسقاطها على اليهود .

وآية ذلك أن اتهام الغير بدلا من إتهام الذات يريح المرء من الشعور الذاتى بالإثم وهو إجراء دفاعى يقى المرء دون إدراك إثمه ، ثم ما يسببه له ذلك من متاعب نفسية " .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

هل العداوة التى أوجدها اليهود بينهم وبين العرب ، وبينهم وبين سائر الناس أو الجوييم كما يسمونهم - هل العداوة تلك لها تأثير نفسى على الفكر والشعور والسلوك والعلاقات الاجتماعية بين الناس - هل تلك العداوة هى عداوة الأزل والأبد لا يمكن الشفاء منها أو التخفيف من وطأتها ؟

إن اليهود يخافون الناس بدافع من التعصب العقائدى الحقود . وهم بهذا الخوف يدبرون ويتآمرون وينفثون سموم أفكارهم .

والناس يخافون اليهود فقد خبروهم وعرفوهم من سيرتهم طوال عصورهم وهم مع خوفهم والتوقى منهم يسمحون لهم بالاختلاط بهم ومشاركتهم فى أعمالهم . . وبدافع من الإنسانية كإحساس فطرى يعطفون عليهم ويفسحون لهم فى مجالس العلم فيأخذون حظهم منه . . ويفسحون لهم فى ميادين المال والاقتصاد فيتخيرون منها ما يريدون وما يصلح لطبيعتهم . بيد أن الناس كما قلت يخافون اليهود ، واليهود يعلمون أن الناس أو الأمميين يخافونهم . . فبم يعلل كل من هؤلاء وهؤلاء بواعث هذا الخوف وأسبابه؟ ويمكننا من سياق ما عرضناه حتى الآن أن نستخلص بواعث الخوف وموجباته ومواطنه فى النفس والفكر والعمل الظاهر أمام الأبصار . ولكن لكى يكون عرضنا محَدَّداً فى قسماته فإننا نقدمه كاتهام له أركانه التى تؤكده، وكدفاع له أركانه المضادة . .

إذن ، فلم يكره الناسُ اليهودَ ؟

يذكر الفيلسوف الرياضى " برتراند رسل " أسباب الكراهية فى كتابه :" آمال جديدة فى عالم متغير " ؛ فيقول :" ...يبد أن هناك أيضا أسباب غريزية أكثر لكراهية اليهود ، وتلقى هذه الأسباب ضوءاً أكثر على الكراهيات العنصرية الأخرى . إن جماعة؛ الأصدقاء " (Quagers)لإيقلون نجاحا عن اليهود ولكنهم ليسوا مكروهين مثلهم . فالجذور الغريزية لكراهية العنصرية هى الخوف مما هو غريب . فالنمل يقتل النملة التى تنتمى إلى عش أخر . والحمام المأسور ينقص على الحمامة الدخيلة ويظل ينقرها حتى تموت . فالشئ الغريب لا يمكن فهمه ، وما لا يمكن فهمه خطر . وهذا هو السبب الذى دفع الناس إلى السعى وراء القوانين العلمية . إن أعداء السامية يعتبرون اليهود نوعا من الجمعيات السرية يتبادل أعضاؤها فيما بينهم لونا من المعرفة والخطط الشريرة التى لا يبوحون بها مطلقا لغير اليهودى ".

والذى نعرفه أن " برتراند رسل " كان رياضيا عظيما ، وكان فيلسوفا عظيما ، وكان داعيه من دعاة السلام .. لا ينكر أحد وقفاته ولا ينكر أحد كلماته ؛ ومن هنا فنحن لا نشك فى نية االرجل نحو العرب كما لا نشك أيضا فى أنه لم يكن من المحابين ليهود لأنه كان عالما صادقا وفيلسوفاً أصيلا ..ومع ذلك فقد أورد لنا أسبابا لكراهية اليهود وهي مما تحسب عليه ولا تحسب له فى ميزان التقدير والتقويم .

فالقول بأن كراهية اليهود ترجع فى أصلها إلى غريزة الخوف مما هو غريب ، ثم يمثل لذلك بما يجرى فى مجتمع النمل والحمام - هو قول ينطوى على خطأ كبير وذلك لما يلى : إن المجتمع الحيوانى بأنواعه وأجناسه قائم على الغرائز ، وغرائز الأجناس المختلفة فى الطباع وصفات الاجتماع مما ينشأ عنه تنافر لا يفضه غير الحرب والعراك .. أما المجتمعات الإنسانية فمهما كان بعضها غريبا عن بعض

فإن بينها عناصر فطرية تلتقى عليها وأولها التعاطف البشرى .. أمر آخر ، أنه مهما كان العداء بين شعب وشعب فإنه يأتى أوان يلتقى فيه الشعبان على أساس من التعارف الحضارى والتقارب الفكرى والاقتصادى . فتنشأ من ثم العلاقات وتتوشج الأواصر الإنسانية .

ولقد قا فيلسوفنا العظيم : " إن ما هو غريب لا يمكن فهمه ، وما لا يمكن فهمه فهو خطر ، " . وإذا كان الأمر كذلك لكان معناه أن ما هو غريب لا يمكن أن تنشأ بيننا وبينه علاقة تعارف وتعاطف ومشاركة حيوية فى شئون المعاش .. ثم ما هى العلاقة بين عدم فهم الشئ الغريب والقوانين العلمية ؟ .. إن الشئ الغريب لا يمكن فهمه ، فَلِمَ إذن نسعى إلى قوانين علمية من ورائه ؟ الأقرب إلى الصواب أن نقول : إن الشى الغريب يثير التساؤل ، والتساول فى ذاته مفتاح العلم وسبيله .

واقول بأن أعداء السامية يعتبرون اليهود نوعا من الجمعيات السرية .

فيه شئ من الحقيقة . فقد يكون العداء السامية ناشئا من العداء العنصرى للشرق .. وقد يكون ناشئا من نجاح اليهود فى الأعمال المالية القائمة على الربا والسمسرة .. أما أن هناك عداء فطرى للسامية فهؤاء الأعداء يعلمون أن المسيحية سامية .. فهل هم يكرهون السامية أى يكرهون أنفسهم ؟

رننتقل من عالم فيلسوف إلى مؤرخ فيلسوف هو المؤرخ اليهودى " ول ديورنت " الذى مالأ اليهود فجعل لهم حضارة متناسيا مقاييس الحضارة وشروط قيامها ، وشروط دوامها . .لقدجعل لهم حضارة ذات رساة عالمية يجاهد أهلها بطريقتهم الخاصة فى التبشير بها بين الناس .. لقد تساءل " ول ديورنت " :

" ترى، ما هو منشأ العداء القائم بين غير اليهود واليهود ؟" .. ثم يجيب على تساؤله بإجابة لا نجد فيها شيئا من العمق الفلسفى أو الوعى الحصيف الذى تعودنا أن نجده عند مؤرخنا الفيلسوف .. إنها إجابة سطحية لا نعدمها عند

عامة الناس الذين لم يطلعوا على وقائع التاريخ فى مسيرته، ولم يجربوا شيئا من التفكر المجرد العميق .. إنه يقول : " لقد كانت الأسباب الباعثة على هذا العداء أسبابا اقتصادية ، لكن الخلافات الدينية كانت على الدوام سببا فى زيادة المنافسات الإقتصادية وستاراً لها فالمسلمون المؤمنون برسالة " محمد " يغضبهم من اليهود عدم إيمانهم بهذه الرسالة . والمسيحيون الذين يؤمنون بألوهية المسيح يؤلمهم أن يجدوا شعبه نفسه لا يؤمن بهذه الألوهية " .

إن إرجاع أسباب العداء إلى الاقتصاد وحده لهو تزييف مقصود لحقائق التاريخ الإنسانى بأجمعه . إذ أن ذلك معناه الارتفاع بمقدرة اليهود فى شئون المال والاقتصاد إلى حد الأعجاز وأن شعور الأمم الأخرى بأنها دون اليهود فى هذه المجالات وأنها عاجزة عن منافستهم قد فجر مشاعر العداء والكراهية . وذلك هو الإفك الذى تنقضه حقائق التاريخ التى يعرفها " ول ديورنت " جيدا .

فالأساس كله أساس عقائدى .. تناقض تام بين الذين يعبدون الله وحده إلها منزها عن الأشباه وانظراء ويسيرون على شريعته كرسالة الناس أجمعين ، رسالة لا تعرف الحقد ولا التعصب ، ولا التآمر، إنما الناس فيها سواء .

الإصلاح عملها والعدل شريعتها ، وعبادة الله غايتها ، وذلك كله تحت ظلال من الحب والتآلف والتعارف ،، تناقض بين التوحيد وبين الشرك ..

وذلك هو منشأ العداء .. عداء بين الذين يؤمنون بالله ، وبين الذين يؤمنون بإله يحضهم على المقت والضغينة .

وتظهر ممالأة "ول ديورنت " لليهود حين يذكر خلائقهم النفسية فى معرض تفخيم ومديح يكيله لهم بغير حساب . وقد جمع " ديورنت " فى ممالأته لهم بين المغالطة والاقتراب من الحقيقة. ولعله فى هذا كان يغالب الإحساس بضرورة الإنصاف الذى يجب أن يصدر منه كمؤرخ يدرك الحقيقة جيدا ، ولكن غلبته الممالأة . لقد قال عنهم : " وكان اعتقادهم أنهم شعب الله المختار سببا فى ازدياد

الكبرياء الطبيعى فى أمة تشعر بمالها من مواهب متفوقة ، كما كان سببا فى تقوية مالديهم من نزعة إلى اعتزال غيرهم من الشعوب من الوجهتين العقلية والروحية .

وفى حرمانهم من أن ينظروا إلى الأمور نظرة أممية كان أبناؤهم جديرين بأن يصلوا إليه لكنهم مع ذلك بلغوا درجة عظيمة من الفضائل المتصلة بصفاتهم أنفسهم . وكان منشأ عنفهم هوما كانوا يتصفون به من حيوية عارمة جامحة . وكانت عزلتهم ناشئة من تقواهم كما كان ميلهم إلى الخصام والتذمر ناشئا من حساسيتهم القوية التى أمكنتهم من إنتاج أعظم أداب الشرق الأدنى وكان كبرياؤهم العنصرى أقوى سند لشجاعتهم فى خلال قرون التعذيب الطوال . ذلك أن الناس يكونون كما تضطرهم الظروف أن يكونوا " .

إن "ول ديورنت " قد بدأبالأساس الأول الذى عليه تقوم العلاقة بين اليهود وغيرهم وهو أساس يخلق العداوة أو يثير الخوف فى نفوس غير اليهود ضرورة ، ويجعل منه خوفا ثائراً حانقا . فعقيدة " الشعب المختار " ، التى يؤمن بها اليهود جعلتهم يعتزلون من حولهم جسميا وعقليا وروحيا فى كبرياء وجعلتهم يميلون إلى الخصام والتذمر فى عنف وجموح . فهل ، مع هذه الصفات التى ذكرها " ديرونت " على أنها من طبيعة اليهود . يمكن أن تنشأ روابط تحاب وتعارف ، أم أنه الخوف والتوجس وإساءة الظن هو ما ينشأ نتيجة لتلك الطبيعة المنحرفة ؟

ومع تغاضى "ول ديورنت " عن هذه البيانات التى توضح مدى ما عليه غير اليهود من حق فى كرههم لليهود فإننا نراه كما قلنا يكيل لهم المديح ؛ فيقول : " إن لهم مواهب متعددة وإن تقواهم لا تقارن وإن فضائلهم العظيمة لا توجد فى غيرهم وأنهم أنتجوا أعظم الآداب " .

ولكن التقوى لا تعرف التعصب ، والفضائل لا تعرف الخصام والتآمر .. وأعظم الآداب الا ينتجها الاعتزال العقلى والروحى .. وما كانت أعظم الآداب عظيمة إلا لكونها تعبيرا عن المشاعر الإنسانية والآمال الإنسانية ، وتعبيرا عن الحب الذى يجمع الناس ويطهر دخائلهم .

وبعد أن علمنا عل الخوف من اليهود عند كل من " رسل " " وديورنت " ، نعرض الكيفية التى علل بها النفسانى اليهودى " سيجموند فرويد الخوف من اليهود " . وقد بدأ بتفنيذ الرأى القائل بأن سبب الخوف من اليهود هو كونهم غرباء فى البلاد التى تؤويهم فقال :" وأكثر هذه الأسباب كذبا فى المجموعة الأولى هو الرأى الذى يقول بأن اليهود أجانب ، وهو كاذب طالما أن اليهود اليوم فى كثير من الأماكن التى يسيطر عليها الأعداء للسامية كانوا أقدم عناصر السكان وأنهم جاءوا قبل السكان الحاليين . وهذا ما حدث فى مدينة كولون اتى وفد إليها اليهود مع الرومان قبل أن تستعمرها القبائل الألمانية " .

ثم يذكر أولى الأسباب المثيرة للخوف من اليهود ؛ فيقول :" وهناك أسباب أقوى من ذلك للعداء للسامية ، مثلا كون اليهود يعيشون فى الغالب كأقلية بين الشعوب الأخرى . طالما أن الإحساس بالتضامن بين الجماهير لكى يكون إحساساً كاملا يحتاج إلى كراهية أقلية خارجية ويستثير الضعف العددى لأقلية جماهيرية من الأغلبية إلى اضطهادها " .

" وفرويد ؛ ، لم يعلل سبب كون اليهود أقلية تثير اعداء ولو فعل ذك لرجع إلى مانفاه أولا فيؤيده ويقرره ضمن أسباب العداء . ونعنى بذلك كونهم أجانب فى البلاد التى يلجأون إليها . وليس من اللازم أبدا أن ينشب العداء أو تفور نزعة الإصطهاد ضد الأقلية . فكم من أقليات موجودة بين الشعوب بغير أن ينتابها خوف أو قلق على مصيرها . . وبعد ذلك يأتى بسببين آخرين ؛ فيقول :" وهناك مع ذلك خاصتان أخريان لليهود لا يمكن اغتفارهما لهم ، الأولى أنهم يختلفون فى نواح كثيرة عن " مضيفيهم " .

وهم ليسوا كذك طالما أنهم ليسوا جنسا آسيويا أجنبيا كما يقول أعداؤهم ولكنهم يتكونون فى الأغلب من بقايا شعوب البحر الأبيض ويرثون ثقافتهم . ومع ذلك فهم مختلفون ولو أنه من الصعب أحيانا أن نحدد أوجه هذا

الأختلاف ـ وخاصة اختلافهم عن الشعوب الشمالية . ولكن التعصب العنصرى يهول من أمر الاختلافات الصغيرة دون الاختلافات الجوهرية وهوشئ نجده غريبا ؟ .

التعصب العنصرى يهول من أمر الاختلافات الصغيرة !!

هكذا لا يرضى " فرويد " عن التعصب فينقده ويعيبه لقصور فى التصور وكلال نظره عن الرؤية الصادقة . إن التعصب فى عمومه يهوِّل من كل أمر ولا يعبأ بما يُدَّعى سواء كان جليلا أو ضئيلا . ولكن هناك ما يجب التنبية إليه ونحن أمام مسألة التهويل . فقد يعظم امرؤ من صفة ثانوية يتصف بها ويراه اناس عليها . آنئذ لايسمى إعظامه تهويلا ، وكنه يسمى مبالغة .. فالمبالغه إذن هى التكبير من أمر الشئ وإعطائه أكثر مما يستحق . أما التهويل فهو على غير ذلك ، إنه اختلاق وإعظام لهذا الاختلاف . إنه خطوط ورسوم وأوهام ؛ ولعل الغة فى هذا تعطينا طابع التهويل ؛ قال بشار وقد ذكر الظعائن :

عليها أمثال الخُدارىِّ خلقة من الريط والرَّقم والتهاويل كالدمى

ومن ثم فلا يكون عمل اليهود وادعائهم ما يدعون غير تهويل هر الكذب الصراح .. ذلك لأن ما يعتقدونه فى الله هو الوثنية بعينها ، وما يعتقدونه فى أنفسهم هو الجهل الذى يعمى ويضل . ثم يأتى " فرويد " بخاصية أخرى يقول عنها :" والخاصية الثانية لها تأثير معترف به أكثر وتقول إن اليهود ينحدَّون الاضطهاد بل إن أقسى أنواع اضطهاد لم تنجح فى إبادتهم . وهم يظهرون على العكس قدرة على إدارة أعمالهم فى الحياة العملية .

وحيثما تفتح أمامهم المجالات فإنهم يسهمون إسهامات لها قيمتها فى المدن التى يعيشون بين ظهرانيها " ..

وفى هذه الخاصية الثانية يتقدم " فرويد " بميزتين يدعى أن اليهود يتفردون بهما دون غيرهم . أولها ، القدرة على البقاء رغم اضطهادات الإبادة التى تعرضوا لها . لكن القدره على البقاء رغم الاضطهاد مع عكوفهم على ما هم

عليه من أنانية وتعصب وتحجر عقائدى لا تعنى ميزة لهم يفاخرون بها ويتباهون .

ذلك أن الاستمرار فى البقاء مكفوله لكافة الأحياء مهما كان تخلفها ومهما كانت درجتها فى سلم الكائنات . . بذلك قال " دارون " الذى اتخذه حجة له فيما يدعيه راتخذ من نتائجه حقائق علمية لا يرقى إلهيا الشك . .

يقول دارون : " بمقتضى نظريتى لا يترتب [1] أية صعوبة على استمرار بقاء الصور المنحطة من العنصريات . ذلك بأن الإنتخاب الطبيعى وبالحرى بقاء الأصلح لا ينطوى ضرورة على تحول ارتقائى بل يقتصر على الانتفاع بالتحولات إذا وجدت وكانت ذات فائدة لكل كائن حى فى ظل علاقاته الكثيرة المعقدة فى الحياة " . . ثم يقول : " وإذا لم يكن هناك من مصلحة [2] فإن هذه الصور لابد من أن يخلفها الانتخاب الطبيعى غير متحوله بعض الشئ . وقد تظل عصورا لانهاية لها محتفظة بمكانتها الدنيا حيث هى . .وقد ينبئنا علم الجيولوجيا أن بعضا من أحط صور الحياة كانقعيات وارذبوديات قد بقيت عصورا متطاولة على حالتها الحاضرة لم تتغير " . .

وفضلا عن هذا فإنه بالقياس يمكن اعتبار اليهود العضو الأثرى للمجتمع البشرى على شاكلة الأعضاء الأثرُية الموجودة فى الجسم الحيوانى . وقد فسر دارون طبيعة الأعضاء الأثرية هذه بقوله : " إنى أعتقد [3] أن عدم الإستعمال كان العامل الأساسى وأنه أدى فى الأجيال المتعاقبة إلى الاختزال التدريجى للأعضاء المختلفة حتى صارت أثرية ـ كما فى حالة الأعين فى الحيوانات التى تقطن الكهوف المظلمة وحالة أجنحة الطيور التى تقطن الجزر المحيطة والتى ندر أن اضطرت إلى الطيران ففقدت القدرة عليه فى آخر الأمر . .وقد يصير عضو نافع تحت ظروف معينة غير نافع تحت ظروف أخرى ، كما فى حالة أجنحة الخنافس

(١) ، (٢) ، (٣) كتاب : أصل الأنواع تأليف : تشالس دارون ، ترجمة : إسماعيل مظهر ، والناشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، جـ ٢ ، صـ ٣٥٤

التى تعيش فى جزر صغيرة مكشوفة . وفى هذه الحالة يستمر الانتخاب الطبيعى ببطء فى أختزال ذلك العضو حتى يصير غير ضار وأثريا " ..ثم يقول :" وإذا أدى عدم [1] الاستعمال أو الانتخاب إلى أختزال عضوما فى أية مرحلة من مراحل الحياة ، وهذا يحدث عموما عندما يكون الكائن قد بلغ مرحلة النضج وكامل قدرته على العمل، فإن قاعدة الوراثة فى مراحل متناظرة تستعيد ذلك العضو فى حالته المختزلة فى نفس المرحلة من العمر . وبالتالى فمن النادر أن تؤثر عيه أو تختزه فى الحنين " .

ويقول " إسحق أسيموف " ، عن الأعضاء الأثرية :" فى كثير من [2] الحيوانات نجد بقايا أنسجة لا فائدة منها بل لعلها ضارة ، ولكنها قد تكون بقايا أعضاء كانت فيما مضى مفيدة لجد من أجدادها وعلى سبيل المجاز يمكن اعتبار الأعضاء الأثرية " كآثار الأقدام " لما مضى من حوادث " .

والعناصر التى يتألف منها الانحطاط اليهودى والتى استطاعت أن تحفظ بقاء اليهود إلى اليوم هى : التحجر والجمود والتعصب لهما مع ميل ضئيل إلى الإستفادة من الارتقاء إذا سنحت السوانح مع التكالب على عناصر الانحطاط . فكأن " فرويد " لم يخرج بذلك عما قاله " دارون " ، من قبول الكائنات المنحطة للانتفاع بالتحولات التى تجرى بها البيئة . فهو إذن انتفاع وليس ترقيا ، وتلك طبيعة اليهود .

فهم ينتفعون بالأحول التى يمرون بها ويجيدون وسائل الانتفاع . وشتان بين الانتفاع والترقى : الإنتفاع " ظاهر " يبدو على السطوح مع بقاء الباطن كما هو ، أما الترقى فهو تغيير يتناول العناصر التى يتألف منها الباطن ، به تصبح الذات خلقاً جديدا له سلوك جديد وظاهر ننعته بأن راق .

---

(١) المرجع السابق صـ ٣٥٥ ، (٢) كتاب : ينابيع الحياة ، تأليف : إسحق أسيمون ، ترجمة د / ثابت جرجس قصبجى ، مكتبة منيمنة . بيروت . سنة ١٩٦٣ ، صـ ٥٧

ثم ينتقل بنا " فرويد " إلى ميدان علم النفس لكى يعلل أسباب العداء لليهود من وجهة نظر التحليل النفسى الذى أجاده وأجاد التزييف عن طريقه؛ فهو يقول :" وتكمن جذور الدوافع العميقة للعداء للسامية فى الأزمان التى عفى عليها من قديم ، وهى دوافع تنبع من اللاشعور . وإنى لمستعد لسماع أن ما سأقول سيبدد لأول وهلة شيئا لا يصدقه العقل . وإنى لأجرؤ على أن أؤكد أن الغيرة التى استثارها ايهود لدى الشعوب الأخرى بإصرارهم على القول بأنهم المولود الأول المحبب للإله الأب لم تتغلب عليها الشعوب الأخرى ، كما أن هذه الشعوب قد صادقت على هذه الدعوى " .

وفى هذا التفسير النفسانى تصل الأباطيل التى يستند إليها ذلك اليهودى المنحل ذروة تخبطها . فهو يعتسف الحقائق التاريخية ويقسرها علي الدخول حجة فى تأييد ضلاله وبهتانه . إنه يزعم أن العداء للسامية ـ وكأن ايهود هم وحدهم الساميون ـ ينبع من اللاشعور . فهو إذن دفين فى صميم الكيان النفسى للإنسان ؛ وقبل أن يصبح العداء لاشعوريا فقد كان شعورا طافحا هو الغيرة اتى أظهرها غير اليهود فى فترة تاريخية عندما علموا ـ كما يرى فرويد ـ أن الإله قد أختار اليهود دون غيرهم شعبا له . وهذا الزعم يحاول أن يرجع مصدر التدين إلى العبادة الطوطمية التى كانت تجعل من الأب إلها حلت روحه فى حيوان أثير لدى القبيلة . .وإنه لغاية فى السخف أن يقول إن الشعوب كلها :" قد صادقت على هذه الدعوى " . . فكأنها قد اعترفت بحظوة اليهود ـ دونهم ـ عند الإله .

وبأى شئ اعترفت ؟

على أن الوثنية هى مصدر الدين ؟

وأن الإحساس الوثنى مازال موجودا فى " لاشعور " الإنسانية إلى اليوم ؟

إنه إذا كانت الشعوب قد صادقت إنما هى قد صادقت على إنكار الإدعاء إنكارا ممتزجا بالمرارة على غرور الكفر وتبجحه . وباستمرار هذا الإنكار طوال

عصور متوالية عمل اليهود على تثبيته وزيادة حدته بأفعالهم ، وبذلك قد أصبح فى حكم اللاشعور المصاقب لطبيعة الإنسانية فلا يفارقها أبدا .

ومن حجة نفسية يبرر بها " فرويد " العداء ليهود إلى حجة تاريخية يقول فيها : " وأكثر من ذلك فإن اليهود أكدوا عزلتهم عن الآخرين بعادات على رأسها عادة الختان التى كان لها انطباع منفر شديد . وربما كان تفسير هذا الانطباع أن الختان يذكر هذه الشعوب بفكرة الإخصاء المرهوبة وبأشياء ترجع إلى ماضيهم البدائى الذى يسرهم أن ينسوه " .

وهذا الزعم يتهافت أمام أبسط المعايير التاريخية وأمام حقائق التاريخ التى تلفظ التأول وتستعصى على المغالطة والتزييف . فعادة الختان لم تكن من عوائد اليهود فحسب لكنها على التحقيق كانت مصرية الأصل ؛ درج عليها المصريون الأقدمون منذ ماقبل الدولة القديمة وظوا عيها حتى آواخر أيام الفراعنة . .ولقد قلدً المصريون فى هذه العادة شعوب كثيرة من التى خالطت المصريين أو كانت فى دائرة نفوذهم السياسى أو الدينى . ولولا أن هذه العادة كانت مستحبة يحرص عليها آباء الذكران لما انتشرت هكذا سريعا بين تلك الشعوب . .قال " هردوت " عن تمسك المصريين بعادة الختان :" وهم يمارسون الختان حبا فى النظافة لأنهم يفضلون النظافة على حسن المنظر " . . لذلك قلدت شعوب المصريين فى هذه العادة الحسنة ؛ قال " هردوت " :" إن الفينيقيين والسوريين أنفسهم يعترفون بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين . أما السوريون الذين يقطنون على ضفاف نهرى :

" ثرومدون " ، " وباثينيوس " ، "والماكرونيون " الذين يجاورونهم فيقولون إنهم تعلموها حديثاً من الكولخيين (عساكر مصرية تخلفت فى الشام من حملة سيزوستريس) وهؤلاء هم وحدهم الذين يعرفون الختان ويظهر أنهم يمارسونه كما يمارسه المصريون تماما . وأما فيما يتعلق بالأثيوبيين والمصريين فلا أستطيع أن أقول أى الشعبين أخذ هذه العادة عن الآخر إذ الظاهر أنها عادة قديمة عندهم .

أما أن الشعوب قد تعلمتها من المصريين فبرهانى على ذلك ساطع لأن الذين يختلطون باليونانيين من الفينيقيين لا يقلدون المصريين فيما يختص بأعضاء التناسل بل يتركون ذريتهم بلا ختان " .

إذن فلم يكن ليعتز اليهود بالختان ويؤكدون عزلتهم بعادة أخذوها عن غيرهم إلا إذا كانت لهم غاية أخرى من وراء الاعتزاز والتأكيد . إن هذه العادة ليس فيها شئ من تذكير الشعوب بعادة قديمة مرهوبة وتاريخ قديم مرهوب يسرهم أن ينسوه سيما وأنها كانت تتخذها شعيرة صحية وشعيرة دينية . وإذا قيل إن " فرويد " إنما يقصد الشعوب الأوروبية فإننا نسارع إلى القول بأن العداء القائم بين اليهود وكافة الشعوب العربية لهو شيء لا يمكن إخفاؤه . .فكيف نعلل وهم أبناء أومة واحدة ؟

ثم يحاول "فرويد " أن يضرب المسيحيين بعضهم ببعض كى يفوز اليهود بمغنم . فهو يختلق حجة داحضة عن حقيقة إيمان الشعوب الأوربية المحدثة بالمسيحية ؛ فيقول :" وهناك أخيرا أحدث الدوافع وهو التسلسل فلا ينبغى أن ننسى أن كل الشعوب التي تتفوق الآن فى ممارسة العداء للسامية لم تصبح مسيحية إلا فى الأزمان الحديثة نسبيا وأنها أجبرت على اعتناقها فى بعض الأحيان بحدالسيف . وربما جاز لنا أن نقول إن إيمانها جميعا إيمان فاسد وأنها تحت قشرة المسيحية الرقيقة ظلت على إشراكها الهمجى كما كانت أسلافها ولم تتغلب بعد على حقدها على الديانة التى فرضت عليها وأنها أسقطت هذا الحقد على الصدر الذى أتته إليها منه المسيحية وسهلت المسيحية وسهلت الحكاية التى ترويها الأناجيل عن الوقائع الى جرت أحداثها بين اليهود . والحقيقة أنها رواية لاتتحدث إلا عن اليهود ، وسهلت هذا الإسقاط والنتيجة أن كراهية اليهود هى فى الصميم كراهية للمسيحيين " .

ويحاول "فرويد " فى تلك الفرية الجديدة أن يحدث فتنةبين المسحيين عامة

. فيها يسائل كل واحد منهم نفسه : أهو على الحق أم أنه على الباطل ؟

. .وبذلك؛ يصل الحقد اليهودى على المسيحية أقصاه . ولعل " جولدا مائير " ،وكانت رئيسة لوزراء إسرائيل ـ كانت مخلصة مع عقيدتها حين أطلقت شعار :" صيد المسيحيين " وذلك بالقتل والتشتيت . إن أحقاد اليهود قد تجمعت مرارتها على لسان هذه المرأة يوم أن قالت بعد مقابلتها لبابا بولس السادس عشر :" لقد جلست وفكرت لنفسى ؛ ها هو رأس الكنيسة المسيحية يجلس وجها لوجه مع يهودية من إسرائيل ويصغى لما أقوله عن الشعب اليهودى وعن إسرائيل وعن حقوق هذا الشعب . لقد مرت لحظات توتر وشعرت بأننى أقول ما أقوله لرجل الصليب الذى يرأس الكنيسة والذى اتخذ الصليب رمزا له وهو الرمز الذى قتل فى ظله اليهود منذ قرون . إننى لم أستطع التخلص من هذا الشعور الذى لازمنى . .وشعر البابا بذلك وبأن يهودية تجلس أمامه وقال :" إن هذه لحظة تاريخية " .

أولاً يحق لنا بعد هذا أن نقول إن العداء لليهود له بواعثه الحضارية والنفسية والاجتماعية . .وإنه طالما أن اليهود عاكفون على التوراة أو كتاب الحقد المقدس فلا أمل إطلاقا فى اقتلاع العداء وتسكين رعدةالخوف منهم ؟

ومن التزييف اليهودى النفسى الاجتماعى أن تزعم إسرائيل أنها لا تستحق ذلك العداء من الأمميين لأنها دولة الأخلاق والإنسانية والديموقراطية المتآخية مع الناس أجمعين ، والهدف من ذلك هو التغطية الدخانية الكثيفة على العقيدة التى يؤمن بها اليهود وهى عقيدة الشعب المختار بمواصفاته التى وردت فى التوراة ومن ثم ففضلا عن الدعاية الصهيونية التى تروجها إسرائيل فى صور وأساليب شتى فهناك كتاب يعد فى لبابه دستور الأخلاق الإنسانية الصهيونية التى يجب أن يعيها الآخرون ويؤمنوا بها بل يسلموا بها . هذا الكتاب هو " البقاء اليهودى " ، تأليف : ترود فايس ـ روزمارين ، رئيسة تحرير مجلة :" جويش سبكتاتور الصهيونية الأمريكية . . تقول [1] المؤلفة :" إن المدنية ليست السيطرة والثروة

والترف المادى ، بل ليست حتى الأدب الرفيع والتعلمي المنتشر برغم ما فى هذه الأمور جميعا من خير ، .إن المدينة ليست القشرة الخارجية للمجتمعات البشرية ولكنها فى جوهرها ينبغى أن تصل إلى قلب هذه المجتمعات ولها . وعلاماتها الحقيقية التفكير فى الفقر والأم والأهتمام الشهم بالمرأة أو احترامها والاعتراف الصحيح بأخوة الناس بعضهم لبعض بغض انظر عن الجنس واللون أو الوطن أو الدين ، وتضييق مجال القوة المجردة بوصفها العامل الرئيسى الذى يتحكم فى العالم ويحكمه والاشمئزاز من كل ما هو دنئ وقاس ووغد واتعلق الذى لا ينقطع بمقتضيات العدالة " .

ثم تثب الكاتبة فى ادعاء وتكلف لتقول : " إن اليهودية ينبغى أن تخطو خطوة أخرى لخلاص الإنسان من شر نفسه كما فعلت مرة من قبل دون نجاح كبير حين اشتركت مع ابنتها المسيحية فى الدعوة إلى المساواه والأخوة بين البشر .

ولكن المسيحية انحرفت عن غايتها ففشلت فى تحقيق السلام والحب للعالم لأنها اتجهت بجهدها إلى تحقيق الانتشار والسطوة مضحية فى سبيل ذلك شأن كل حركة استهدفت السلطة بمبادئها وكانت النتيجة أن هادنت المسيحية كل ألوان الحكم ونظم الاقتصاد وصانعت القوة أينما كانت بعكس اليهوية التى تمسكت بمبادئها المتركزة حو " أخوة الناس " ،" وكرامة الإنسان؛

مضحية بذلك بفرصتها فى الانتشار . ومن ثم فإن اليهود - كما تعلن الكاتبة - شعب فريد ويكفيهم أنهم منحوا العالم الغربى كل ما يعتز به من معتقدات دينية ومثل عليا خلقية "

ثم تحاول الكاتبة الإجابة على سؤال : هل اليهودية قومية أو دين ؟

فتقول : " إنه ظهر منذ عهد الإصلاح ودخول اليهود فى دائرة الحضارة

(١) وردت المقتطفات فى كتاب : التراث الصهيونى والفكر الفرويدى تأليف : د / صبرى جرجس ، الناشر : عالم الكتب ط ١ ، ١٩٦٩ ، صـ ١١٤

الغربية أى منذ القرن الثامن عشر ظهر بين اليهود من يدعو إلى فصل الدين عن القومية ولكن الدعوة فشلت لأن طبيعة اليهود نفسها تمزج بين العناصر القومية والعناصر الدينية في عضوية غير قابلة للإنفصام أى أن المطامح والأمال القومية جزء لا يتجزأ من التعبير الدينى اليهودى كما أن كثير من الآراء الدينية اليهودية تدخل في نطاق الأهداف اليهودية القومية " ، وفى هذا الإطار العنصرى العقيم تستطرد الكتابة فتقول لأول مرة فى تاريخ البشر تفسر القومية المتحمسة لاعلى أنها منهج ضيق محدود ولكن كأداة لتحقيق الخلاص للبشر جميعا " .. وتردد الكاتبة قول هانزكوف فى هذا الصدد من أن الله اختص اليهود بهذه الرسالة .. ثم تنتهى إلى أن فحوى التاريخ اليهودى هو :" حب صهيون مترجما إلى فعل " .

ثم تعالج الكاتبة العناصر الضرورية لتكوين الشعب فتقول :" إن أول هذه المقومات " اللغة " .. وقد ظل اليهود متمسكين باللغة العبرية على الرغم من تشتتهم فى بقاع الأرض فظلت اللغة هى عنصر الربط والتوحيد بينهم وظلت هى التى تجمعهم على الشعور بأنهم شعب واحد له قدر واحد ومصير واحد " .." المفهوم الثانى هوالولاء " .. وفى هذه النقطة تستند الكاتبة إلى :" الأساس الذى أرساه فليون وقرر فيه أن اليهود يكونون شعبا يجاوز حدورد الجنس والبشر والوطن المحلى وتصبح معه القومية مفهوما لا يستند إلى الجنس أو الحدود الجغرافية أو نوع الحكومة السياسى ولكن إلى الدين والوضع الحضارى " .

وتعتقد الكاتبة ان اليهودية فى نُضَارها :" حركة احتجاج فإن من أهم دوافع الشرائع والآداب اليهودية الاحتجاج على ما هو غير يهودى من وسائل وأخلاق . ومنذ فجر التاريخ حتى اليوم اتبع اليهو تقاليد قومهم فاحتقروا الحضارة المادية التى بلغت ذروتها فى التكنولوجيا المعاصرة فنتج عن ذلك أن عبقريتهم االإبداعية التى اكتشفت كل الحقائق الاجتماعية والخلقية التى عرفها الإنسان والتى سيعرفها هى التى أدركت أن الجمال الذى يوجد فى المادة غرور وفى كثير

من الأحيان شر " .. ثم تستطرد قائلة : " إن اليهود اكتشفوا الحقيقة الخالدة التى تقضى بأن الله يريد الإنسان أن يمارس العدالة وأن يحب الرحمة وأن يتمشى فى تواضع مع الله " .. ثم تحليل الكتابة هذا الرأى فتقول " : إن المقصود بالمساهمة اليهودية لا مجرد ما ساهم به اليهود كأفراد ولكنها فى المقام الأول تعنى الآداب والأخلاق المميزة للحضارة اليهودية كما نادى بها الأنبياء هى تحرير الأخلاق ، هى الثورة على المعتقدات القديمة التى كانت تعد العظمة والمجد وجمال الشكل وكماله هى ما يرضى الله . إن اليهود هم الذين اكتشفوا أنه ليس الجمال ، وهو الضرورة زائل فإنه مالا يريده الله . ولكنه يريد الطيبة والشفقة والعدالة والسلام ! إن اليهود يعتقدون أن فردا واحداً ، إنسانا واحد له من القيمة ما يوازى الخليقة كلها .فجاءت الثورة الصناعية لتعرض فى صورة مضخمة الفكرة القائلة بأن تمثالا واحدا يساوى شقاء ملايين من العبيد " .. ثم تتساء الكاتبة فى لهجة استنكارية : " أكان هذا الانحراف بمفهوم العدالة ممكنا لو ان اعالم اتبع تقاليد موسى وعبدها " ؟

وتعلل الكاتبة قلة ما أسهم به اليهود فى الفنون فتقول : " إن هذا طبيعى لأنهم سموا بانفسهم فوق مستوى الجمال إلى مستوى الأخلاق .. وتحتج لقوها هذا بأن فيد ياس خلق تماثيل ولكن موسى خلق أناسا . وأن أفلاطون كتب فلسفة لا يفهمها إلا القليلون ولا تغنى شيئا لجماهير الناس . أما أنبياء اليهود فقد دعوا إلى حب الناس بعضهم كإخوة وإلى حب الله للإنسان ومن هنا كانت التوراة هى كتاب البشرية كلها " .

وتستنكر الكاتبة قول برستد : " إن اليهود نقلوا الدستور الذى ضمنوه التوراة عن المصريين القدماء " .. فتقول " : لو كان المصريون هم مبتدعو الضمير لبقوا ولم يبقى اليهود ولكن العكس هو الصحيح لأن الضمير هو مساهمة اليهود للبشرية ، والمساهمة المميزة الوحيدة لهم " .. ثم يتطرق بها الخيال

الصهيونى الجحود فتقول : " إن موسى خلق من أسرة فقيرة من رعاة الأغنام شعبا يصح أن يكون نموذجا لكل الشعوب " .

ونجد الكاتبة نفسها مرغمة على التسليم بالعنصرية اليهودية غير أنها عنصرية من نوع خاص . فهى ليست مرتبطة ماديا بالموروثات إنها تصدر عما أسمته " الجو ايهودى الروحى " .. هذا الجو الذى أنبت حكماء التلمود والذى جعل من أسلوب الأنبياء والربانيين أسلوبا يمارس فى الحياة .. ثم تنتقل الكاتبة إلى القول بأن " اليهودية كانت تعنى دائما بداخل الإنسان بينما ركزت حضارة القرن العشرين فى شرورها على خارج الإنسان ودنيا الحواس ومدركاتها وتقبل المادة وتنكر على الإنسان أن يحرم نفسه من اللذات البدنية المشروعة . ولكن اليهودية التى تنادى بسيادة " داخل الإنسان تخالف بذلك كل من الحضارة اليونانية والرومانية ووريثتها الحضارة الغربية التى تركزت على خارج الإنسان والمسيحية التى تنكر المادة . واليهودية فى نظرتها الواقعية ترى أنه بدون إغراء " الميل الشرير " فإنه لم يكن ليتسنى للناس أن يتزوجوا ويقيموا البيوت ويساهموا فى النشاط النافع . فغريزة الشر فى الإنسان الخارجى هى شرط لازم البقاء البشرى ولكنها تؤدى إلى الدمار بغير الضبط والتوجيه الهادف لميول الخير فى الإنسان الداخلى " .

ولا تنسى الكاتبة أن تهاجم المسيحية وتحط من شأنها .. كدأب جميع الكتاب اليهود - فهى تقول : " إن اليهودية عُنيت بالأهداف أكثر مما عنيت بالوسائل .

فلما ظهرت الحضارة الرومانية كانت حضارة وسائل فى الوقت الذى زعمت فيه أنها حضارة غايات . ذلك لأنها حضارة قوة تمجد الإنسان الخارجى وتعربد فى إراقة الدماء وتتهالك على الملذات الحية .عند هذه النقطة ظهرت المسيحية فاستعاضت عن لذة انتهاز الوسائل كغايات زهد الغايات التى جعلت منها بالإضافة إلى ذلك وسائل . وبذا انتصرت المسيحية ولكن هذا الانتصار ينبغى أن

يعزى إلى اليهودية لأن الأخلاقيات المسيحية هى أساساً أخلاقيات يهودية أعيدت صياغتها وتفسيرها على نحو أقل دقة وإحكاما مما فى أقوال الأنبياء اليهود وحكمائهم " . .

وتصطنع الكاتبة أسلوب التسامح المنزه عن التعصب ولكنها كانت تمهد للتجريح ؛ فقالت : " إن اليهودية تنظر إلى المسيحية عى أنها ابنتها ، وصحيح أنه ابنة عنية مشاكسة ولكنها ابنتها على أية حال . . وهى ترى فى المسيح تراثا يهودياً لا شك فيه وترى أنها مهما يدخل عليها من تعديلات وتغييرات فلن يغير ذلك من صفتها اليهودية الأساسية ، كما ترى أن النازيين لم يكونوا على صواب قدر ما كانوا حين نددوا بالمسيحية ونبذوها بوصفها محاولة يهودية لسيادة العالم . . ثم تستطرد الكاتبة قائلة : " إن اليهودية أصبحت القوة الرئيسية فى درامة الرجل الغربى لأنها أعطته لا إراديا دينه . وعى الرغم من أن المسيحية هى العامل الروحى الرئيسى فى عالم الغرب ، فإن الفنون والآداب الغربية فى العصر الوسيط والحديث والمسرح والفلسفة والحكومة والقانون بدت وكأنها استمدت شعلتها من المسيحية . ولكن الواقع أن ترجمة التوراة هى التى قدمت لكل ما ظهر فى الغرب من أدب وأشخاص التوراة هم الذين نبهوا الآداب والفنون الغربية . . كما أن أفكار التوراة ومثلها العليا عن الحكومة هى الأساس الذى قامت عليه كل الدساتير الديموقراطية . وبذا يمكن القول بأن كل ما فى الحضارة الغربية من أفكار ومثل عليا ، كرامة البشر والمساواة بين الناس والاهتمام بالضعفاء والمحرومين والعدالة والسلام والحرية كلها دخلت عالم الغرب من التوراة العبرية . وهى لذلك تعد معالم بارزة فى المساهمات اليهودية الخالدة للحضارة ومن ثم يصبح النصر اليهودى على حضارة الغرب نصرا باقيا ويكون الطابع اليهودى عيها قد تخلل كل نسيج الحياة الغربية بحيث لا يمكن فصله عنها " .

ثم تتصدى الكاتبة إلى ما أسمته " : ظاهرة إسرائيل الأبدية ؛ .أى انتصار

الشعب الإسرائيلى على المخاطر التى أحدقت به طوال تاريخه فتقول :" إن الكنيسة قد حلت هذا الغز بنظريتها المتضمنة اللعنة التى أصابت إسرائيل عقابا لها على رفضها المخلص الإسرائيلى فحرمتها الوطن وجعلت من الإنسان اليهودى " المتجول الأبدى " ، بيد أن هذا المتجول اليهودى نفسه لا يعد حياته ولم يعدها قط لعنة لأنه يعرف أن حياته بدأت أولا بالعهد الدائم الذى أقامه الله مع إبراهيم ولأنه كان ينظر إلى الشدائد التى صادفته لا بوصفها غضبا من الله ولكن عقاباً من الأب الحانى على ابنه لكى يرده إلى سواء السبيل . وقد تردد هذا اليقين فى أقوال حكماء التلمود مؤمنين بالقدرة الباقية لليهود وفى أقوال الربانيين استناداً إلى ما ورد بالتوراة :" كل الشعوب تزول وتبقى إسرائيل " .

وتعود الكاتبة لتردد مقولة أن اليهود هم مكتشفو وحدانية الإله ووحدانية البشرية ، ووحدانية العدالة وأن بقاءهم لإتمام رسالتهم فى تعليم الناس هذه المبادئ " .. ثم تناقش الكاتبة ما يقال من أن السر فى بقاء اليهود صادر عن خارجهم مثل :" معاداة السامية "، والحاجز الاجتماعى الناتج عن الشريعة اليهودية "، والخلق الخاص باليهود والنزعة الانفصالية الناتجة عنه " .. غير أن كل هذا هو فى نظر الكاتبة عوامل سلبية إذ من الضرورى توافر عامل إيجابى يحيا من أجله اليهود وأنه الدعوة لتراثهم القومى الدينى الحضارى . وتتصور الكاتبة أن :" المأساة الحقيقية للحياة اليهودية ليست معاداة السامية . ذلك أنها لازمت باستمرار التاريخ اليهودى دون أن تنال من القوة البقائية لليهود ولكنها نزوع بعض اليهود إلى الانسياق فى تيار الأفكار التحررية والانسلاخ من يهوديتهم أى ضياع الإحساس بالقيمة من كون المرء يهوديا " ..وترى الكاتبة :" ألا سبيل إلى

تجنب ذلك إلا بتقوية التصميم على البقاء اليهودى بقراءة التوراة ودراسة التلمود والتزود من ذلك بالإيمان بأن إسرائيل شعب مقدس اصطفاه الله " . .

ثم تزيف الكاتبة حقائق التوراة وحقائق التاريخ وحقائق الواقع المعاصر ، فتتحدث باستفاضة عما أسمته " بإنسانية الخلق اليهودى " ؛ فتقول :" إنه لا يوجد جانب واحد فى العلاقات الإنسانية لم يمجده التفسير اليهودى للإنسان ويضفى عليه رقة وسموا وروحانية . والعالم الآن أكثر من أى وقت مضى بحاجة إلى هذا المفهوم عن الإنسان بوصفه القيمة المطلقة وغير المحدود ة فى الكون بعد الله وإلى جانبه - هذا إلى أنه لا سبيل إلى سلام عادل باق إلا أن تقوم أسسه على احترام الكرامة الإنسانية ومراعاة الأخوة البشرية " . . وهنا تدعى الكاتبة :" أن اليهودية تجد مجالها مرة أخرى لتقدم مساهمة باقية للبشرية بينما تظل وفية لذاتها ولجوهر بقائها " . .

وفجأة ترتد الكاتبة الصهيونية إلى النزعة اليهودية المتأصلة فيها فتقول فى إدعاء إنسانى عالمى فى مزاج من النعنصرية العاتبة :" إن الإندماج الكامل بين العناصر القومية والعالمية فى المسيادية (عقيدة المسيح المنتظر فى اليهودية) اليهودية جعل من الممكن التعبير عنه بالقول بأن إسرائيل ستكسب حق معرفة اله وممارسة الحياة الطبيعية بغرض هدى العالم إلى نفس المستوى من الكمال . بذا تصبح المسيادية اليهودية أبعد ما تكون عن الضيق أو الجمود ، لأنها بذلك لن تقنع بالقانون الذى وضع فى صهيون وبالاستماع إلي كلمة الله فى أورشليم ولكنها سترنو إلى مطمح أسمى : " لأنه من صهيون ستخرج الشريعة ومن أورشليم ستنبعث كمة " الرب ٤ . . (سفر أشعياء ٢ :٣) . .

السامية والنقاء العنصرى

جاء فى التوراة كلمتان تشقان فى رضوخ صارم الطبيعية النفسية والأخلاقية لليهود . فهذه الطبيعة النفسية الأخلاقية أفصحت عن دخيلتها وما تضمر وذلك عن جبلَّةٍ أصيلة يصعب التخلص منها والخروج عليها ـ فالكلمتان دنياهم وحياهم ووجودهم . .

اكلمة الأولى إحساس ذاتى بحقد عميق لصيق بالشعور والتصور ، على مصر بوصفها أعظم دول العالم آنذاك وأغناها وأعزها . . جاء تجسيد ذلك الحقد بمالا مثيل له أو شبيه فيما جاءت به التوراة المزعومة . . فقد ورد فى سفر الخروج (الإصحاح الأول) : " ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا " ، . . أى أن شعب إسرائيل الذى كان موجودا فى نفاياته أعظم من شعب مصر وأكثر منه . .فماذا يمكن أن يقال عن ذلك الحقد إلا أنه إحساس بالدونية تخيل إلى صاحبها أنه أعظم وأكرم ممن ليسوا منه . فالحقد إذن قديم على مصر وعلى شعب مصر وعلى أرض مصر .

أما الكلمة الثانية فهى تربو على الغاية فى الحقد الجسد لأنها تحقد على العالمين من غير اليهود ، فهم يحقدون على جميع شعوب الأرض . فجاء فى للإصحاح الرابع عشر من سفر التثنية : " وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض " . . ومن هنا جاءت عقيدة الشعب المختار التى آمن بها اليهود ويؤمنون بها إلى اليوم وروجوا حولها الأساطير التى تتفق وذلك الاختيار المزعوم والذى أصبح المادة الأولى فى الدستور اليهودى .

وما كان هذا الشعب المختار سوى شظية سامية لم يبين لنا اليهود أى سامية ينتهون إليها . ولكن هكذا على الأطلاق . . فكأنهم ضربوا على سائر الساميين فليس لهم من ثم وجود ولو كانت السامية اعربية . . هكذا على الإطاق نادوا بساميتهم المختارة لغير مزية أخلاقية . .

ولكن لا ينبغى لنا أن نذعن لتلك الأباطيل اليهودية التى لا تتفق واستقامة الفكر فى نزاهته ورغبته فى إحقاق الحق .. نعم لا ينبغى لنا أن نستسلم .

إذن فما دام اليهود قد زعموا وهم كثيرو الزعم والاختلاف - فإن علينا أن نناقشهم فى مزاعمهم فمن خلال المناقشة سوف تسفر لنا حقائق طمسها الزاعمون فقد أعماهم الحقد عن الحق والبيان .

إذن فهل سامية اليهود خالصة النقاء فى دمها وكأن لم يشارك اليهود أحد فى ساميتهم .. وهنا نقطة هامشية تستحق التنوية بل توجب التوقف للاعتبار والحسرة على ما كان عليه الوعى السياسى والتاريخى عند الزعامة العربية آنذاك .

هذه النقطة هى القول بأن العرب واليهود تربطهم قرابة الدم .. هذا ما جاء على لسان الملك فيصل الذى كان ملكا للعراق ؛ فقد قال : " إن العرب واليهود أبناء عم من الناحية العنصرية ؛.. ثم يقول : " إن ثمة تشابه فيما تحمله العرب واليهود من اضطهادات ومظالم . وفيما تمكنوا من القيام به فى طريق تحقيق أهدافهم القومية " .

وينتهى به هذا التمهيد إلى نتيجة سياسية تتفق فيما كان يسعى إلى أن يحققه من القوة الاستعمارية المناصرة ليهود . فقال فى استحياء يدرك اليهود معناه ويعلمون بواعثه : " إننا سنرحب باليهود ترحيبا قلبيا فى عودتهم إلى البلاد ..وهناك مجال فى سوريا يتسع لنا جميعا " .. حتى إذا كان مؤتمر الصلح بباريس (سنة ١٩١٩) فإن الملك قال أمام المؤتمر : " إن هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود كما أنه ليس ثمة تعارض واضح فى الصفات المميزة للشعبين .. ثم نأتى إلى الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، فقد قال فى زيارة له إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦٩ : " إنه لا يكن شيئا ضد ايهود لأننا أبناء عمومة فى الدم " ..

ولم يكن حسين ملك الأردن بعيدا عن ذلك الاستجداء فقد قال لأمريكا : "

إن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة فى التاريخ جنبا إلى جنب وفى صداقة وتعاون كأقارب وجيران " ..

فإذا جئنا إلى أهم خصائص الصفات الاجتماعية لليهود فإننا نجد أنهم يلازمون المدن ولا سيما المدن الكبرى كما أنهم يفضلون سكنى العواصم .

ولم تتخل عن اليهود منذ أيامهم الأولى صنعة السمسرة والربا فكان أن أصبحت كلمة " تاجر ؛ وكأنها " الماركة المسجلة " ، لكل يهودى .. وفى عصرنا الحديث وحيث يتواجد اليهود فى كشافات اجتماعية مختلفة فإنهم أضافوا إلى السمسرة والربا ما هو قريب منهما وهذا ما يمثل فى الأعمال الحرة مثل الطب ، والمحاماة والصيدلة والمضاربات المالية والصحافة والاستثمار فى السينما ..وهكذا تتركز حياة اليهود كما كانت دائما فى الأعمال التجارية والوظائف الطفيلية ..

وإذا كان احتكاك الناس فى معاملاتهم المالية والتجارية يخلق أنواعاً من التنازع والشقاق ..وإذا كان أغلب التجارة اليهودية سمسرة وربا فلابد أن يولد ذلك فى النفوس كراهية لليهود تفوق كراهية التعصب الدينى ولذلك فقد أصبح لليهود مركب اقتصادى اجتماعى يضرب به المثل بين الناس وكأن اليهودى لا يبارى فى شئون المال والتجارة ..فمثلاً يطلق على الجاليات الصينية المتاجرة خارج الصين :" يهود جنوب شرق آسيا " .

وكذلك يوصف الهنود فى مدن ساحل إفريقية الشرقية بـ:" يهود شرق إفريقيا " .

إذن فتجارة المال بالربا والسمسرة والوظائف الاجتماعية القريبة منها هى كل أعمال اليهود .. ومن هنا جاء حرصهم على ألا يتمركزوا إلا فى المدن والعواصم. ومثل هذا الاسلوب الاجتماعى فى المعيشة خليق بأن يولد العداء بين اليهود ومن يعيشون بينهم يزيده ويؤجج منه النفور الدينى .

وإذ توجس الناس خفية من اليهود وشعروا هم بذلك العداء كان عليهم أن يتوخو الحذر فتكون لهم مساكن خاصة تضمهم فى حظير واحد ..فكأن

اليهود هم الذين فرضوا على أنفسهم العزلة فى مبدأ الأمر وذلك خوفا ممن حولهم وحماية لعقيدتهم وطقوسهم ..بل أموالهم قبل كل شئ .. ويرجع الاعتزال اليهودى إلى العهد الفرعونى حيث كان ايهود يقيمون فى أماكن خاصة بهم وحدهم حيث كانوا ينأون عن الأتصال بغيرهم من أهل المدينة إلا لضرورات المعاش واستعلاء عليهم ..وقد وجدت أحياء خاصة بهم فى الإسكندرية وكذلك بمدينة إدفوا فى صعيد مصر حيث أولواحَيَّهم بعناية خاصة فقد أحاطوه بسور كبير يفصل بينه وبين سائر بيوت المدينة فكان احى اليهودى الذى ابتدعه اليهود آنذاك والذى عرف باسم " الجيتو " قد سبق نظيره الذى ظهر فى أوروبا بخمسة عشر قرنا ..

وقد اصطنع اليهود من ذلك الجيتو وسيلة دعائية على أنهم يتعرضون للاضطهاد . هذا فضلاً عن أن حكومات المدن تلجأ إلى عزلهم خوفاً من شرورهم وإلى قذارتهم وسوء مسلكهم واشتغالهم بالربا الفاحش ..

ومن شذوذ التفكير أن اليهود كانوا يدعون أنهم الأعلون فهم أبناء الله وأحباؤه ومن ثم فهم أنقى دما وأخلص جنسا من سائر الشعوب أو " الجوييم " كما أسماهم اليهود .. وهنا استغلت الصهيونية دعوى النقاء الجنسى فى تحقيق أطماعها السياسية فى فلسطين ..وذاعت فرية النقاء الجنسى وشاعت فى المحافل العلمية الأوربية حتى أصبحت من المسلمات التى اقتنع بها كثيرون من عماء أوروبا المخدوعين بالصهيونية ..

فهل صحيح أن الصفات الجسدية لليهود مبرأة من الاختلاط ؟

يقول الكتور جمال حمدان فى نزاهة علمية مبرأة من التحامل :" الشئ [1] المحقق أن ما قد يختص به اليهود من " طابع " ، أو " سحنة " مميزة هو أمر لا ينكره العلم تماما ولكنه ظاهرة جزئية ليست بجامعة أو بمانعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنها برمتها ظاهرة حضارية من صنع اليهود أنفسهم ونتيجة

لإحساسهم الملتهب بذاتهم طائفياً وشعورهم المتضخم بكيانهم الديني .
وليست صفة جنسية دالة ولا تعني البتة وحدة الأصل أو نقاوة السلالة ، بل على العكس من هذا تماما ، يمتاز اليهود بمناقضة فذة وحقيقية جدا : شبة تجانس أو شبة وحده جزئية في السحنة والنظرة العامة وتنافر مطلق في الأصل الجنسي " ..

وحين نستطلع الدراسات السيرولوجية وما وصلت إليه فإنها تثبت أن اليهود يظهرون تخالفاً ملحوظا جدا في دمائهم مما يؤكد أنهم ليسوا على أصل جنسي واحد .. هذا فضلا عن أنه لا يوجد ثمة علاقة جنسية أو دموية بن اليهود في جملتهم ..فكأن الوحدة الجنسية مجرد خرافة لا أكثر ولا أقل ، وذلك على حد تعبير " ريلي " .

ومن هنا فالقضية فقدت أهميتها عند العلماء . لقد قال رينان : " إن المغزى الأثنولوجي لكلمة " يهود " ـ على الأقل في شرق ووسط أوروبا ـ قد انتهى منذ أمد طويل " .. وعلى هذا التصور يقرر دالبي : " أنه ليس ثمة بعد أي شئ كقضية جنس يهودي على الإطلاق " .. ثم جاء ريلي فقال : " ليس اليهود جنسا بل مجرد ناس بكل بساطة " ..

وقد جاء في كتاب : " نحن الأوربيين " والذي ألفة جويان هكسي ، وهادون ، وكارسوندرز ، بما يعد الكلمة الفاصلة في قضية ادعاء اليهود بأنهم يتمتعون بجنس نقي لا تخالطة قطرة من دماء الغرباء .. لقد قالت هذه النخبة من العلماء : " إن اليهود لا يمكن أن يصنفوا كأمة ولا حتى كوحدة اثنولوجية بل هم بالأخرى مجموعة اجتماعية ـ دينية تحوي قدرا كبيراً من عنصر البحر المتوسط والأرمني وغيرهما كثير ، وتتفاوت تفاوتا عظيما في الصفات الجسمية " .. ثم قالوا : " إن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمينيين في الأعم الأغلب فإنهم بالتأكيد يبدون من الصفات الأرمينية أكثر مما يبدون من الصفات السامية ..

(١) كتاب : اليهود .. أنثروبولوجيا ، تأليف : د / جمال حمدان ، المكتبة الثقافية ، صـ ٧٠

وأن النمط الجنسى الذى يميز طائفة السامريين ، وإن كنا نلقاه بين اليهود المحدثين إلا أنه بالتأكيد نادر بينهم " .

وإذا كان هوتون قد قال :"حقيقة هى ولا شك أن اليهود مختلطون جنسيا ومن أصول طبيعية متنوعة " . . فإن هذا يدعونا إى التساؤل : كيف ثم اختلاط أو تخليط اليهود ؟ وما هى الشواهد التاريخية التى يمكن أن ندعم بها أو نثبت وقوع الاختلاط ؟ . .

من المبررات اتى ساقها اليهود لإثبات نقائهم العنصرى العزلة التى فُرِضَت عليهم كما فرضوها على أنفسهم . . كما أنهم يُرْجعون نقاءهم إى أن بعض اليهود قد سموا بأسماء يهودية قديمة . ومن تلك الأسماء كوهن أو كوهين . .

ففيها الإثبات الكافى على امتداد النسل إلى الكوهانيم ، أو الكوهانيين أبناء هارون وكهنة المعبد القدامى وهؤلاء ممن لم يسمح لهم بالزواج من غير اليهود . .

لكن ما القول إذن فى أن هذا الأسم قد تسمى به كثيرون جدا ؟ وما القول إذن فى أن هناك أسماء يهودية خالصة يتسمى بها الملايين من المسحيين فى أوروبا ؟ فهل يمكن أن يتم ذلك بغير التزواج والتحول ؟

والحق أن الذاهبين مذهب الاقتناع بالنقاء الجنسى لليهود ليسوا على صواب ومن هنا فلإثبات خطل النظرة اليهودية نقول : إن اليهود أيام اضطهاد النازيين لهم كانوا يقدمون ما يثبت أنهم ليسوا من اليهود بل هم من الجنس النوردى والأصل الآرى وذلك لينجوا بأنفسهم من العقوبة التى تحيق باليهود واللعنة على السامية . .وقد قال هوتون بشأن اضطهاد أمانيا النازية لليهود :" إن اليهود ربما كانوا يمتلكون من الدم النوردى مثلما يمتلك الألمان أنفسهم " .

وفى سياق الاختلاط نذكر بعض الأدلة التاريخية التى تثبته وتؤكده فيهود فسطين التوراة اختلطوا مع جيرانهم من الفلسطينيين : فهذه قصة الحب التى نشأت بين شمشمون اليهودى ودليلة الفلسطينية . .واختلط اليهود أيضا مع

جيرانهم العموريين والحيثيين . . ولماذا وها هو النبى سليمان تزوج من أبنة فرعون مصر ؟ . . وكان على اليهود الذين يتزوجون من وثنيات أجنبيات أن يغادروا أرض تزوجهم إلى سهول مجاورة . . وإذا كان اليهود قد استمروا فى أسرهم البابلى مائة وأربعين سنة فكيف لا يتزاوج اليهود من البابليات ؟

هذا فضلا عن تخلى الكثيرين عن يهوديتهم إلى الديانات البابلية .

ولقد نشط اختلاط اليهود بجيرانهم قبل العصر المسيحى فى قرونه الأولى ومن ثم فحين أصاب التشتت اليهود فى عالم البحر المتوسط فإنهم واجهوا موقفين كان عليهم أن يقبلوا أحدهما فإما أن يصيروا وثنيين كجيرانهم الجدد وإما أن يظلوا عاكفين على ملتهم اليهودية ، وهناك كما يقو بيرجل : " أصبح الكثيرون ، وربما الأغلبية وثنيين وذلك أن من بين القبائل الإثنتى عشرة عشرا مفقودة كما تحدثنا الروايات " . . فإذا كان على اليهود أن ينتحلوا الوثنية دينا لهم فإنهم فى هذه الحالة يكونون قد تنازلوا عن جنسيتهم ودينهم ، وأصبحوا من عامة الأمة التى يقيمون بينها . أما حين يتمسكون بيهوديتهم فإنهم آنئذ يكونون قد كتبوا على أنفسهم العزلة الاجتماعية ، فلا اندماج بالزواج بينهم وبين الوثنيين إلا إذا تهود الوثنيون . . وكذلك تمكن اليهود من أن يحولوا الكثيرين من الوثنيين إلى اليهودية . . وظلوا يمارسون هذا العمل إلى قرون طويلة بنجاح مثير . . وهكذا تباين اليهود وتخالفوا فى صفاتهم الجنسية بل العقلية . . ثم انقلب الأمر رأساً على عقب بعد أن تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية إذ أصبح التحول إلى اليهودية عسيرا هذا فى الوقت الذى ظل فيه التزواج الفردى والعلاقات غير السوية سائدة .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى أمريكا الوسطى والجنوبية فإن الكثيرين من الهنود الحمر وكذلك الزنوج تهودوا، وإن لم تكن هناك ثمة علاقة جنسية أو دموية باليهود .

وأمام التطور العلمى والصناعى وتواصل العلاقات الإنسانية والثقافية بين الهيئات والجماعات والدول . .ومع اختفاء التعصب الدينى أصبح مما يمقته الناس ولا يودونه . .هذا فى الوقت الذى انهالت فيه جماعات يهودية كبيرة على الولايات المتحدة الأمريكية . . فأمام تلك العوامل الإيجابية الفعالة انهارت السدود أمام زواج اليهود من الأمميين (الشعوب الغير اليهودية)،

هذا فضلا عن الزيجات التى كانت تتم بين الأفراد وكذلك الزيجات غير المشروعة .

وهكذا حدث اختلاط واسع فى محيطه عميق فى أبعاده بين اليهود وغيرهم ممن هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية على اختلاف الشعوب والجنسيات ، بما يكون قد أحدث تحولات أصولية جذرية فى جنسية اليهود . .ولا يفوتنا أن ندلل على انصهار اليهود بالغير بما يعد امتداداً لهذا الواقع ، ما أسفرت عنه التجربة النازية فى ألمانيا . فعندما كان يطلب ممن يريد أن يثبت أنه " آرى " الدم أن يقدم تقريراً يثبت فيه أن دمه يتمتع بالدم الآرى لعدة أجيال بمعنى أنه ليس يهوديا . وكم كانت المفاجأة مذهلة للنازيين عندما اكتشفوا أن أجداد الكثيرين من الألمان وأجداد وأجداهم كانت تجرى فى عروقهم الدماء اليهودية . . ألم يكن الموسيقار العبقرى الألمانى ريتشاد فاجر من هؤلاء الذين كانت أجدادهم وأجداد أجدادهم من اليهود ؟

إذن يمكن القول - وكما ذكرنا من قبل - أن قد حدثت لليهود بعد كل تلك المراحل المتلاحقة من الاختلاط والتحول سواء أكان جماعيا أو فرديا أن قد اختلطت أنساب اليهود وانصهرت خصائصهم الحسدية وتميعت دماؤهم بين شعوب العالمين .

كل ذلك قد أصاب الصهيونية بالذعر الشديد فلم تجد سوي أن تتصدى

للكارثة بعلاج سياسى له فاعليته اتى تحدث دوياً عالميا لا يهدأ . .ولذلك فهى تحاول أن تجعل من اليهودية شعبا وقومية وأمة وجتو مستقلا وليس مجرد طائفة دينية . . لكن كيف السبيل إلى ذلك فقد أصبح الذوبان الإنصهارى يهدد الوجود اليهودى ذاته بسبب ما نشأ فى العالم من تطور فى الوعى السياسى والتعاطف الإنسانى بما فيه من تسامح دينى .

كل ذلك أهاج الصهيونية خشية سقوطها واليهودية والسامية . .فكان أن اصطنعت سياسية الابتزاز والإرهاب السياسى فى علاقاتها بالدول الأوربية وإلا فالاتهام بمعاداة السامية هو العقاب المعد سلفا . .وفضلا عن هذا فهى تعلن دوما أن اليهود معرضون للإضطهاد وفى سبيل ذلك تذكى مشاعر العطف على اليهود وتذكر بما تعرضوا له من تعذيب . .وكأنها - أى الصهيونية - تريد أن تجعل العالم مسئولا عما تعرض له اليهود من محن . .فكان الصهيونية تتاجر باليهودية . .وتتاجر فى اليهود .

وهنا يقول الدكتور جمال حمدان ، عن نقاء الدم اليهودى من أى دم دخيل :" والخلاصة الموضوعية [1] أن يهود العالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطا بعد بهم عن أى أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة حتى لم تعد هذه تمثل فى تكوينهم إلا قطرة فى محيط . وإذا كان ثمة تحفظ ما ، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط . فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان أقل تهجنا وتخلطا والبعض أكثر كالأشكنازيم . غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هى أن الأقل تخليطاً إنما يمثلون عدديا نسبة بالغة الضآة من مجموع اليهودية العالمية . .بينما أن المخلطين تماما والذين ابتعدوا جداً أو كلية عن الأصول الأولى يشكلون الأغلبية الساحقة منهم . .ومن هنا فلا جناح علينا إذا نحن قررنا فى النهاية أن اليهود اليوم ليسوا من بنى إسرائيل وأن هؤلاء شئ وأولئك شئ آخر

(١) المرجع السابق صـ ٨٥

انثر يولوجيا ، وألا رابطة بين الطرفين إلا الدين والدين فقط " .

أما عن سقوط الصهيونية بأحلامها وأوهامها وافتراءاتها هو ما يكشف عنه ما صاروا إليه فى أوروبا وأمريكا .. يقول د/ جمال حمدان :" إن اليهود[1] اليوم إنما هم أقارب الأوربيين والأمريكيين ، بل هم فى الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة لحما ودما وإن اختلف الدين ، ومن هنا فإن اليهود فى أوروبا وأمريكا ليسوا كما يدَّعون غرباء أو اجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلامة لا يفرقهم عنهم سوى الدين . أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء فى منفى ودخلاء بلاجذور فذلك فى بيت العرب وحده ، فى فسطين حيث لا يمكن لوجودهم إلا أن يكون استعماراً واغتصابا بالقهر والإبتزاز .

وغير هذا قلب بشع لحقائق التاريخ انثروبولوجيا وغير انثروبولوجى " .

لقد تنبأ جمال حمدان يزوال إسرائيل وله فى ذلك الحجة الداحضة فقال :" إن الفكرة الجذرية فى خلق إسرائيل ليست فى النهاية إلا فكرة الجيتو يحذافيرها وإنما على مقياس مجمع كبير . فهى وعاء موحد لإستبقاء إنعزالية اليهود على الجوييم ..لكن كما ذاب ويذوب الجيتو فى الخارج ، لن يمضى وقت طويل حتى يذوب ويزول جيتو إسرائيل إلى الأبد " .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

(١) المرجع السابق صـ ٩٢

(٢) عدد ٣٠ ديسمبر سنة ٢٠٠٢ ، كتب التقرير الصحفى : محمود بكرى

فهل ما صارت إليه أحوال إسرائيل اليوم ما يبشر بتلك الخاتمة ؟

أجل ،

جاء فى تقرير صهيونى رسمى ما يؤكد تلك الخاتمة نشر فى صحيفة " الأسبوع [٢]" ، تحت عنوان : " الواقع فى إسرائيل :

عاما " ... ومما ورد فيه :

● " إن إسرائيل سوف تنهار سياسيا واجتماعيا فى العقدين القادمين إذا لم يتم إنقاذها ..

يعترف التقرير : " بأن الانتفاضة الفلسطينية أدت إلى نشوء حقائق جديدة فى إسرائيل وأنشأت أوضاعاً معقدة وغيرت كثيرا من أوجه الآمال والتفاؤل . بل إن الأطفال الفلسطينيين الذين يصفهم التقرير بالعابثين نجحوا فى أن يؤثروا على مجتمعنا إلى الحد الذى نقبل فيه بتغيير خططنا وأوضاعنا السياسية والإقتصادية وأصبح هؤلاء الأطفال مسئولين بدرجة أكبر عن تغيير مفهوم الأمن القومى الإسرائيلى ..

● ثم يقول التقرير : " لقد اعتقدنا لعقود طوية أن حدود أمننا القومى تنتهى بالجغرافيا . وأن يكون لإسرائيل أذرع جغرافية طويلة ، طويلة ، ولم يدر بذهننا أن كل جغرافيا تحتاج إلى دعم اقتصادى .. إن الإقتصاد أصبح لا يقل أهمية عن الجغرافيا . كما أن الانتفاضة الفلسطينية أنشأت شعوراً متزايدا بالخوف والتوجس .وأدت إلى عدم الشعور بالأمان السياسى والاجتماعى . وأن أكثر من ٣٠٪ من المواطنين الإسرائيليين أصبحت لديهم رغبة أكيدة فى ترك إسرائيل والعودة من جديد إلى دولهم التى كانوا يقيمون فيها قبل ذلك .. إن إسرائيل تمر بأسوأ مراحل تاريخها السياسى والاجتماعى إن هذه الفترة تعد محك اختبار حقيقيا للقدرة الإسرائيلية على مواجهة التحديات " .

●ثم أورد التقرير : " يبدو أننا تصورنا فى كل مراحل نضالنا الماضية وحياتنا

---

(٢) عدد ٣٠ ديسمبر سنة ٢٠٠٢ ، كتب التقرير الصحفى : محمود بكرى

أننا الأعلى ، وبيدنا القرار النهائى فى التحكم فى مصائر الفلسطينيين ، إلا أننا لابد أن نتنبه إلى أن الفلسطينيين قد يتحكمون فى مصير إسرائيل فى السنوات القادمة . إن الفلسطينيين أصبحوا يتحركون بلا نظام ، وبلا سيطرة فعلية من السلطة . ويوجد بالمجتمع الفلسطينى حاليا العديد من الحكومات وأصحاب القدرة على اتخاذ القرارات . وأننا فوجئنا فى العامين الأخيرين بأننا علينا أن نواجه كل هؤلاء مرة واحدة مما أدى إلى غياب الشعور بالأمن الأجتماعى . وهذا الشعور سيطر على الإسرائيليين لفترات قليلة من حياتهم قبل ذلك . إلا أنه الآن أصبح هو المسيطر الأساسى على تكييف العلاقات الاجتماعية وأن أولادنا وزوجاتنا وأمهاتنا يخشون الآن النزول إلى الشارع ، أو التسوق ويحذروننا دائما نحن الرجال أصحاب المصالح من أن نتعرض للعمليات الإرهابية الفلسطينية . .

إننا أصبحنا الآن نمر باختبارات حقيقية حول تدعيم أمننا القومى من جانب وحول قدرتنا عى التكيف مع الأوضاع الإقليمية الجديدة من جانب آخر . . وأن هذا التحدى للقدرة على التكيف هو تحد للوجود الإسرائيلى من عدمه .فأصبح وجودنا حاليا مقنرنا بعدة مخاطر علينا أن نسعى لتداركها سريعا . . وأن نعيد ترتيب الأوضاع فى إسرائيل لصالح بناء المجتمع الإسرائيلى " .

● وهناك ثمة مجموعة من الحقائق الرعيبة ذكر التقرير منها :

" انخفاض عدد المواليد فى إسرائيل بنسبة ٢,٥٪ عن الأعوام الماضية ، وذكر بهذا الصدد أن معدلات المواليد فى إسرائيل تسجل نسبة منخفضة خاصة إذا ما قورنت بالفلسطينيين إلا أن هذه المعدلات سجلت انخفاضا آخر أكثر أهمية وهو نسبة ٢,٥ ٪ "

● ويذكر التقرير أن من الأسباب الرئيسية لهذا الانخفاض هو " معدلات الموت والخوف التى سيطرت على الإسرائيليين من جراء أفعال ما يصفه بالإرهاب الفلسطينى . وأن حوالى ١٣٪ من الأسر الإسرائيلية التى جرت معها لقاءات

واستطلاعات ليس لديهم أية رغبة فى الإنجاب فى الوقت الحالى ، حتى لو توافرت كل مقوماتهم الشخصية اللازمة للإنجاب وبرروا ذلك بعدم الأمان حيث إنهم لا يدرون إذا ما كان لديهم أطفال هل يعودون إليهم بعد انتهاء أعمالهم أم لا . . ويرى هؤلاء أن الحكومات الإسرائيلية أخطأت كثيرا فى حق الفلسطينيين وأن الفسطينيين أصبحوا لا يبالون بحياتهم ويموتون من أجل إصابة عدد محدود من الإسرائيليين . وأن هذا الشعور تولد لدى الفسطينيين نتيجة يأسهم من الحياة ورغبتهم فى تغيير الوضع إلى الأفضل . إن حوالى ١٨٪ من مواطنى إسرائيل يرون ضرورة أن تبادر إسرائيل بحل انفرادى وتقم دولة للفلسطينيين .

● ويمضى التقرير ليوضح أن الميزانيات الإسرائيلية جندت كل إمكاناتها الإضافية من أجل بند الموازنات العسكرية الذى أصبح يطغى بشكل رئيسى على مجمل عائدات الدخل القومى الإسرائيلى . . فالميزانية العسكرية وحدها تستهلك ٦٠٪ من عائدات إسرائيل القومية أو المبالغ التى تحصل عليها من جهات أجنبية وأنه فى ضوء الواقع والأحداث التى مرت بها إسرائيل فى السنوات الثلاث الماضية (فترة الإنتفاضة الفلسطينية) زادت الميزانيات العسكرية الإسرائيلية لتصل إلى ٧٠٪ تقريبا . وهذا أدى بدوره إلى تعقد مجالات ما هو مخصص للخدمات والنفقات العامة . . وكذلك كل الأوجه الأخرى للميزانية الإسرائيلية .

ولعل تخصيص ٣٠٪ فقط من الدخل القومى - محسوبا كذلك بالمعونات والمساعدات الخارجية - لتسيير أوجه الحياة الإسرئيلية . وكذلك ما يتعلق بكل نواحى الاقتصاد والثقافة والاجتماع والخدمات العامة فى إسرائيل أدى إلى تراجع خطير فى معدلات النمو الاقتصادى . ويعد هذا العام من المرات القليلة التى يهبط فيها الأداء الاقتصادى ومعدلات النمو الناتج القومى الإسرائيلى إلى أكثر من ٣٨٪ ويصل أحيانا إلى ٤٢٪ من تقديرات أخرى .

وأن هذا الهبوط الحاد لم تصل إليه إسرائيل إلا

فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، واقتربت منه فى عام ١٩٦٧ . فى حين أن أقصى معدل لانخفاض الناتج القومى الإسرائيلى كان فى عام ١٩٨٣ ، وصل إلى ٢٢٪

● ويؤكد التقرير أن هذا الانهيار الحاد لمعدلات نمو الناتج القومى أدى إلى عجز خطير فى الميزانية العامة الإسرائيلية وأن هذا العجز بدأ يتزايد بصفة عامة عن معدلات مسموح بها كانت تصل إلى حوالى ٣أو ٤ ٪ إلى معدلات غير مسموح بها وصلت إلى ما بين ٢٥ - ٣٠ ٪ خلال العامين الآخرين . وأن هذا التراكم لعجز الموازنة على مدار السنوات القادمة سيؤدى إلى انكشاف الاقتصاد الإسرائيلى . وأن قيمة العجز فى هذا العام زادت على ٤٤ مليار شيكل فى مقابل ٢٩ ملياراً فى الاشهر الماضية مما يعنى أن معدلات العجز المتزايدة ستؤدى إلى استدانة إسرائيل من العالم الخارجى بنسبة من ٤٠ - ٤٥ ٪من موازنتها . وأن هذه الاستدانة إذا ما استمرت فى معدلاتها فإن الإقتصاد الإسرائيلى سيكون الأسوأ بين دول العالم .

● ويرى اتقرير الإسرائيلى أن هناك متغيرا آخر وأساسيا ، وهو أن الأطفال الفلسطينيين وبما قاموا به من أعمال واستمرار الانتفاضة أدى ذلك إلى هبوط معدلات الاستثمارات الأجنبية فى إسرائيل وأن نسبة الإستثمارات الأجنبية العاملة فى إسرائيل لا تتعدى ٧٪ وأن أكثر من ٧٠٪ من الاستثمارات الأجنبية قررت الهروب والرحيل من إسرائيل فى العامين الأخيرين وأن هذا أدى إلى هزة قوية لإستثمارات بصفة عامة كما حرم السوق الإسرائيلية من تداول رأسمال يقدر به ٥ مليارات دولار ،أن هذا التداول كان يؤدى لإنعاش الأسواق الداخلية والتأثير فى ضبط الموازنة الإسرائيلية . .

وهذا يعنى أن الإنتفاضة - كما يقول التقرير - أحدثت آثاراً اقتصادية أعمق بكثير من الحروب التى خاضتها إسرائيل خارج " أراضيها " .

وأشار إلى أن الحروب الخارجية أدت إلى ضعف الإستثمارات الأجنبية

بنسب لم تتجاوز ٢٥ - ٣٠ ٪، فى حين أن تأثير الانتفاضة تجاوز ٦٠ - ٧٠ ٪ ، حيث أجبر الأطفال الفلسطينيون المستثمرين الأجانب على ألا يتدولوا رأسماليا فى إسرائيل أكثر من مئات الملايين فقط من الدولارات حتى أن جزء كبيرا من هذه الاستثمارات هو بدوره أيضا فى طريقه لأن يقف وينتقل إلى دول العالم الخارجى .

● ويؤكد التقرير أن اختفاء التداول الرأسمالى من الأسواق الإسرائيلية أدى إلى صعوبة حقيقية للشركات الإسرائيلية الإقتصادية لأن تستمر فى العمل ، لقد أصبح الوضع حرجا ، خاصة أننا أمام إفلاس ١٠٠٩ شركات ومؤسسات إسرائيلية خلال مدة زمنية قصيرة لا تتعدى عاما مع أن هذه الشركات والمؤسسات تعد من كبريات الشركات الإسرا ئيلية التى جنت أرباحا طائلة فى السنوات الماضية والتى كان لها تأثيرها الإقتصادى الواسع فى داخل إسرائيل .

إن أكثر من ٣٠٪ من الشركات أصبحت الآن مهددة بإشهار إفلاسها ، وأن حوالى ٢٠٪ منها مازالت تحاول الخروج من نطاق أزمتها الاقتصادية عبر الإستدانة من جهات أجنبية ودولية . وأن ٣٠٪ فى طريقهم للتوقف النهائى بعدما عجزوا عن تحويل إنتاجهم أو مصادر أموالهم إلى مصادر أخرى تتيح لهم الاستمرار فى الأسواق الدولية ، وفى حين أن ١٠٪ فقط من الشركات الإسرائيلية هى التى مازالت تحقق أرباحا ولكنها ضعيفة إذا قورنت بالأعوام الماضية ، وأن هذه الشركات استمرت فى أدائها نظراً لإقدامها على إنتاج سلع أخرى لا تحتاج إلى التوصيف فى مكونات الإستيراد والتصدير .

وإزاء ذلك فإن هذه الأوضاع الإقتصادية تعنى أن المناخ الإقتصادى الداخلى فى إسرائيل غير مهيأ لأن يتكيف مع بيئته الدولية والإقليمية وأن هذه المؤسسات الإسرائيلية المعرضة للإغلاق والإفلاس تمثل واجهة حقيقية لإفلاس الإقتصاد الإسرائيلى .. إلا أن إفلاس هذا الجزء الأكبر من الشركات والمؤسسات الإسرائيلية أدى إلى مشاكل هائلة فى البنوك التى قلت اعتماداتها المالية بدرجة كبيرة كما

أن هذه المؤسسات فشلت فى أن تحصل على قروض جديدة من البنوك إزاء الهزات الإقتصادية الكبرى وهذا بدوره أدى إلى ضعف حجم الإدخار فى إسرائيل إلى نسبة لا تقل عن ٩٪، وهذا مؤشر خطر على الإحتياطيات النقدية الإسرائيلية .

● ويحذر التقرير من أن هناك أكثر من ٨٠٠ شركة إسرائيلية إذا لم يتم حاليا ضخ أموال جديدة لديها ، وفى وقت ممكن فسوف تكون معرضة للتوقف كليا عن ممارسة أنشطتها ، وأن بعض رجال الأعمال البارزين فى إسرائيل قرروا تجميد العديد من أنشتطتهم،والاحتفاظ بأموالهم فى البنوك الأمريكية والأوروبية .

● ويقول التقرير إن هذه الظاهرة لم تعد فردية كما كنا نتصور فى العامين السابقين ولكنها أصبحت جزءا من السياسة الإقتصاذية لرجال الأعمال الإسرائيليين حيث اعتبر أكثر من ٥٠٪ من رجال الأعما الإسرائيليين الذين قرروا تصفية أنشطتهم الإقتصادية فى داخل إسرائيل أنهم قرروا ذلك بسبب الشعور العام بعدم الأمان وعدم الثقة فى بناء اقتصاد قوى لأنه طالما ظلت أوضاع الفلسطينيين على هذا النحو فإن هؤلاء لابد أن يثوروا بين الحين والآخر ويرون أن المشكلة الحقيقية بالنسبة لهم قد تبدو أكثر سهولة ، إذ أنهم سيحتفظون بأموالهم أو يقيمون مشروعاتهم خارج إسرائيل . ولكن المشكلة الأساسية تكمن فى أن هؤلاء الذين يتزايدون بأعداد كبيرة فيما تنظر إليهم الحكومة بعدم اكترات وتلك قضية هامة أكدها التقرير موضحا أن إسرائيل أصبحت فى ذيل الدول ذات التقدم الإجتماعى . وأن عدد الفقراء يتزايدون من شهر إلى شهر بنسبة تبلغ ٥ر١٪ ، وهذا يعنى أنه فى العام الواحد ينضم إلى طابور الفقراء فى إسرائيل ١٨٪ وأن هذه انسبة آخذة فى التزايد والنمو ، مما أدى لأن يصل عدد الأسر الفقيرة فى إسرائيل إلى أكثر من ٥٧ ٪ مع الأخذ فى الإعتبار أن هذه النسبة أصبحت تحت خط الفقر وأنه مع نهاية عام ٢٠٠٢ ستصل هذه النسبة إلى أكثر من ٦٠٪ فى حين أنه وعلى مدار الـ١٥ عاما الماضية كان عدد الأسر الفقيرة فى

إسرائيل ٤٠٪ وزاد فى التسعينات إلى نسبة ٤٣٪، كما أن عدد الأسر الفقيرة فى إسرائيل يزيد سنوياً وفقاً لهذه المعدلات بنسبة ٨٠٠ ألف شخص إلى قائمة الفقراء ، وأن حكومة شارون فشلت تماما فى حل هذه المعضلة ، وأبقت على الوضع المتازم الذى يتجه نحو كارثة حقيقية للمجتمع الإسرائيلى، حيث ترتب على زيادة عدد الفقراء أن المجتمع أصبح غير قادر على استيعاب

المهاجرين الجدد ، وأن أية حكومة إسرائيلية يجب أن تتخذ قراراً فوريا بوقف أية موجات للهجرة إليها إزاء هذا الإضطراب الإقتصادى البالغ التعقيد .

كما ترتب على ذلك أيضا أن عدد كبيرا من المهاجرين لم يعد لديهم أى أمل فى الحياة وأن عدداً كبيرا منهم تحولوا إلى مجرمين فى داخل المجتمع الإسرائيلى . ولقد دلت استطلاعات الرأى على أن أكثر من ٥٣٪ من المهاجرين الذين لس لديهم عمل يمارسون أنواعا من الجرائم تتعدد خطورتها من السرقات البسيطة فى الشوارع إلى سرقة المحلات والمتاجر ، إلى سرقة السيارات وقتل الأشخاص من أجل السرقة ، إلى السطو على المنازل وممارسة الجنس بالنسبة للفتيات .

وفى هذا الشأن تشير الإحصاءات إلى أن نسبة البغاء ارتفعت فى المجتمع الإسرائيلى فى هذا العام وحده (٢٠٠٢) وسجلت أعلى معدل لها ، حيث بلغت نسبة ٤٢٪ ، وأصبح أبناء المهاجرين سلعا رئيسية فى البغاء مما ترتب عليه زيادة فى انتشار مرض الإيدز بلغت ١٤ ٪ فى هذا العالم وأنه منذ شهر يونيو الماضى وحتى أكتوبر فإن (٥١٦) حالة إيدز جديدة تم اكتشافها ، وهى نسبة مخيفة لأنها تعني أنه فى العالم الواحد يمكن أن يزيد عدد المصابين على (١٠٠٠) وهؤلاء محكوم عليهم بالموت بعد سنوات محدودة .

● ويشير التقرير إلى أن طبيعة الجرائم فى إسرائيل أصبحت مختلفة لأنها تبالغ فى القسوة والشراسة ولم يعد مهماً ذلك التراث الهائل الذى حاول الأجداد غرسه لدى الشباب . خاصة فيما يتعلق بالوطنية والدفاع عن أمن إسرائيل . .

فالفقر وزيادة أعداد المهاجرين جعلا مَنْ فى إسرائيل على استعداد للتعاون

مع الفلسطينيين أو أى من البلاد العربية فى مقابل إمدادهم بالمال . وأن انهيار إسرائيل سيكون من الداخل وبأفعال الخيانة والدسيسة . وأن الحكومات مهما تكن كفاءتها أو قدرتها فإنها لن تستطيع أن تسيطر على هذه الأوضاع غير الطبيعية . .فعدد الشباب المتعطلين يزيدبأعداد كبيرة وأصبح لدى هؤلاء الشباب سخط اجتماعى على كل الأوضاع المحيطة به فى إسرائيل .

● ثم يقول التقرير :" لقد أصبح الشباب يعايش تناقضات المجتمع الإسرائيلى فى التفاوتات الإقتصادية الصارخة . .ففى الوقت الذى لا يجد فيه معظم الشباب الحد الادنى من الكفاف الإقتصادى وهؤلاء يمثلون أكثر من ٥٣٪ من المجتمع الإسرائيلى ، فإن الباقين وهم قلة من السباب المتعطل عن العمل إلا أن لديهم موارد اقتصادية جيدة . ولكن ليست لديهم فكرة عن كيفية التأقلم مع هذا المجتمع الذى فقدوا فيه الهوية الحقيقية .

● ثم يستطر التقرير فيقول :" إن شعا ر" أنا إسرائيلى . . أبنى دولتى بدمى " لم بعد قائما . . فمجموعة من الشباب يرأسهم ـ عميرام لوفانى ـ عندما طرحنا ،عليه هذا الشعار قا ل :" أنا إنسان أريد أن أعيش ولا يهم أن الجيش فى إسرائيل أو فى فلسطين . أما الشباب زينوفار مكدولى فكان ساخطا لأن الحكومة تعجز عن أن توفر له أية فرصة اقتصادية جيدة يتعايش منها هو وأسرته . .وفى نفس الوقت فإنه غير آمن ويعتقد أن عمره سيضيع فى لحظة على الحركة داخل إسرائيل .

بل أن العديد من المؤسسات الحكومية الإسرائيلية التى يعتبر موظفوها من أفض الطبقات فى إسرائيل مهددة هى الأخرى بأن يفقد موظفوها أعمالهم نظراً لإستمرار حالة الركود الإقتصادى ، وأن الحكومة فشلت فى أن تفتح أية

مجالات جديدة للعمل على مدار السنوات الماضية .

● ويقول التقرير :" إنه على الرغم من أن شارون كرس اهتمامه وكل وقته من أجل زيادة الموازنة العسكرية إلا أن الجيش لم يعد ذلك القادر على حماية أرض إسرائيل وذلك لانعدام الحماس والثقة .. لقد قام الفلسطينيون بأعمال فردية هائلة دون تدريب أو أموال ، ونجحوا فى أن يبثوا الرعب فى صفوف الجنود والضباط الإسرائيليين حتى أن عدداً كبيراً يقدر بامئات وربما يمتد إلى الآلاف ، يرفضون الخدمة فى الأراضى الفلسطينية ، وأعلنوا تمردهم ولم تردعهم الحكومة الإسرائيلية عندما قررت محاكمتهم وحبسهم . إن الشعور بالخوف من الفلسيطينيين يتزايد .. وهذه قمة المأساة الحقيقية للجيش الإسرائيلى حاليا وإن الفلسطينيين إذا تملكتهم الثقة والجرأة فى المستقبل فإنهم باستطاعتهم القيام بأعمال أكثر دقة وخطورة من الأعمال السابقة .

● وأخيرا يقول التقرير :" إن هذه دعوة جادة من أجل تفحص أحوال المجتمع الإسرائيلى وأن يفيق الإسرائيليون قبل أن تأتى الكارثة الاجتماعية الكبرى وأن الحكومة الإسرائيلية القادمة عليها أن تعيد النظر تماما فى قرارها السياسى بحيث يكون هذا القرار تابعا للقرار الإقتصادى .. وأن هذه القرارات السياسية لابد أن تترك آثارها المباشرة على المواطن الإسرائيلى .. وأن أكثر المسائل إحاحا هى التى تتعلق بإعادة النظر فى الموازنات العسكرية لأن هذه الموازنات إذا لم يتم تخفيضها إلى أكثر من النصف ابتداء من العام القادم (٢٠٠٣) فإن الزلزال الإجتماعى فى إسرائيل سيكون قد بدأ فى الظهور فى عام ٢٠٠٣ .

فلسفة السامية

هل هناك ثمة فلسفة للسامية ؟

نعم ، هناك فلسفة بغير شك . .

وهى فى تصورنا وتقديرنا حقوق على الفكر الصهيونى فيما أوجده من مبادئ فكرية يقوم بها ويستند عليها . . فإذا شئنا أن يكون لنا تصور فلسفى صحيح بالسامية ، وإذا شئنا أن تكون لنا معرفة محيطة بالسامية فإنه لمن اللازم أن تكون لنا معرفة محيطة بالصهيونية فى بواعث نشأتها وأهدافها وغايتها . .وعلينا أيضا أن نوضح بأدلة من الوقائع الإجتماعية للصهيونية فى أهدافها وأطماعها ، من الوقائع الأسطورية للأساطير اليهودية التى تطفح بها التوراة .

فقد تطورت أطماع اليهود وتطلعاتهم فى أن يصبح لهم كيان سياسى يقربهم من العالم ولاسيما القوى الدولية المهيمنة على شئون الشعوب .

ومن هنا فقد عملت الصهيونية على أن يكون لها منهاجاً سياسيا قائما على قاعدة فكرية تأخذ مددها من أصول الأساطير اليهودية بحيث تكون تلك الأصول هى دعامتها بل هى رؤاها المستقبلية التى تنشد تحقيقها فكأنها بذلك تطمع فى أن تحقق من وراء الصهيونية عمقاً تاريخياً يهودياً ذا صبغة معاصرة حديثة وفى نفس الوقت تعطى لليهود النزعة الإنسانية التى يتقبلها العالم فى تعاطف إنسانى بين اليهودية والمسيحية .

ولكن الصهيونية تعجز عن تحقيق ذلك بغير أن تختلط اختلاطا منظما مقصودا بالعلم الحديث من حيث أنواعه ومناهجه وذلك لتحقيق هدفين فى آن واحد . .الأول ، مسايرة العلم الحديث والمشاركة فيه مشاركة محسوبة من الغير وفى نفس الوقت يفيد اليهود منه فى مجالات العلوم الإنسانية والإجتماعية والسياسية والتاريخية . .

فكأن الفكر الصهيونى إذ يحاول مدارسة العلم الحديث والدخول فى نطاقة فإنما كان ذلك من أجل تأكيد الفكر المطلقة عن الشعب المختار بدعوى التحرر العلمى من العهود والقيود الأسطورية ..وذلك هو التزييف :" ومن هنا كانت دائرية الفكر الصهيودنى فى جدله الزائف .. وكل جدل زائف يأخذ شكل دائرة مغلقة على نفسها على عكس الجدل الحقيقى الناتج عن التفاعل مع واقع محسوس الذى يمكن القول أنه يأخذ [1] شكل حركة حلزونية متقدمة إلى الأمام " .

لقد نشأت فى أوروبا حركة فكرية علمية كانت ذات شأن كبير فى تطور العلم ولما كان عمادها العقل فإنها سميت بحركة الاستنارة .. وقد غمرت أوروبا فى نهايات القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ..ولم يتوان اليهود عن الإسهام فى هذه الحركة العلمية المعرفية إذا اشترك فيها مفكرو الصهاينة تحت أسم " الهسكلاه " (أى حركة الإستنارة اليهودية)..وجاء اشتراكهم فى مستهل القرن التاسع عشر .

وكان شعارهم ضرورة أن يهجر اليهود العزلة التى ضربوها على أنفسهم منذ قرون وأن يسهموا فى الفكر الحديث الذى حققه الغرب بما يحقق لهم قيما أخلاقية وآدابا إنسانية جديدة . ولذلك فإن " المسكليم " وهم مفكرو اليهود الذين أخذوا بالمعرفة العقلية الحديث كانوا على وفاق مع الذين ناهضوا السامية أو عادوا اليهود الثابتين على عقيدتهم ، وهم أولئك الذين كانوا يؤمنون بأن اليهود كانوا محسودين من الغير لأنهم " شعب الله المختار " .. ومن هنا فقد حاول " المسكليم " أن يثبتوا خطل هذه الأسطورة وبهتانها فنادوا بأن يرجع اليهودى إلى آدميته وإنسانيته ..ومن ثم فإنهم عمدوا إلى إغفال أسطورة العودة وجعلوا منها معنى أخلاقيا هو الخلاص من عذابات المنفى ولذا أصبح لجبل صهيون معنى روحيا .

---

(١) كتاب . نهاية التاريخ ، تأليف : د / عبد الوهاب المسيرى ، صـ ٩

ولعل أكبر فلاسفة الصهاينة الذين تمتعوا بعقل صائب التفكير صحيح التقدير موسى مندلسون الفيلسوف الألماني اليهودى الذى يعد فيلسوف الهسكلاه .. فقد رفض من اليهودية كل مالا يتفق مع العقل وكذلك فإنه لم يجعل للكتاب المقدس (التوراة) بأساطيره منزلا من الله سبحانه ولكنه لا يزيد عن كونه عهدا صنعه الإنسان لحياته استخلصة من تقديره لأحوال الزمان وأطوار اتارالتاريخ إذن فما صنع الكتاب المقدس إلا الوعى التاريخى عند الإنسان .

وكان هناك كثيرون من مفكرى الصهاينة من ساروا على منهاج موسى مندلسون واستناروا بما أشار به ونصح ..ولكن كان إلى جانبهم فئة تدين بالصهيونية سموا بالإصلاحيين اليهود لم يخرجوا على اليهودية فى روحها وأهم أساطيرها ولكهم نبذوا بعض الأساطير نبذاً قصدوا منه معانى أخرى .. ومن هؤاء الإصلاحيين اليهود : إبراهام جايجر ، ودافيد فرايدلندر .

ومن الرموز اليهودية التى أغفلها الإصلاحيون أنهم :" عدلوا فى الصلوات والعبادات ، وجعلوا لغة الصلاة بالألمانية لا العبرية ، كما أنهم حذفوا جميع الإشارات إلى خصوصية الشعب اليهودى من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه وأدبه " ..

ولئن ظل أولئك الإصلاحيون على إيمانهم بعقيدة " الشعب المختار "، إلا أنهم أعطوها منحاً أخلاقيا جديداً ..فاليهود شعب مختار لأنه مكلف من ربه برسالة أخلاقية إنسانية عليه أن يبشر بها بين الناس أجمعين لهدايتهم إلى الخير ..فكان الإصلاحيين قد خالفوا الإيمان التقليدى فى عقيدة ؛" الشعب المختار " التى ترى أن هكذا اختير اليهود ، لا لامتياز أخلاقى ولكنه قضاء إلهى ليس من حق البشر أن يبحثوا فيه .. وكذلك هجر الإصلاحيون الإعتقاد فى العودة والاعتقاد فى المسيح المخلص الذى سوف يأتى فى آخر الزمان ليخلص اليهود من عذابهم ويبلغهم أرض الميعاد ..كما آمن الإصلاحيون بأن الشتات الذى ابتلى به

اليهود كان مقصودا من الله وذلك لبنشروا بين الناس الهداية والرشاد فعليهم من ثم ألا يعتزلوهم ويعتكفوا فى معازل خاصة بهم . .وبذلك يكون فى الشتات تقربا إلى الله .

إلا أن الهسكلاه (أو الاستنارة اليهودية)لم تدم طويلاإذ سرعان ما انهارت نزعتهم اعقلية وعادوا إلى سيرتهم الأولى فى العقيدة والطقوس .

فكان من ثم أن نشأت مذاهب دينية حديثة دعت فى إصرار إلى يهودية الآباء والأجداد . .فكان مذهب اليهودية الأرثوذكسية الذى جهر به الحاخام سَمسون رَفائيل هرش (١٨٠٨ - ١٨٨٨) . . وقد فند هرش اليهودية الإصلاحية وزبان تهافتها حسبما رأى فقا ل : " إن اليهودية الإصلاحية تأخذ نقطة ارتكازها خارج اليهودية فى مبادئ مستعارة من غير اليهود تطبقها على غاية الإنسان وحريته . . إن التوارة هى كلام الله ، ولولا التوراة لما تحقق وجود إسرائيل كشعب . وعلى الشعب اليهودى اتباع العقل المقدس . ولأن عقل الإنسان الضعيف لا يمكنه أن يخلق من الحكمة ما يفوق حمكة الله . نادى هرش بعدم التغيير أو التبديل أو التطوير " .

وكان ذلك مما حفز زكريا فرانكل أن يعلن أنه إذا شاء اليهود أن يحدثوا تحولا أو تطورا فى اليهودية فإن عليهم أن يلتمسوا التطوير من صميم الروح اليهودية ذاتها . وإذا كان أولئك الرجعيون يذهبون إلى أن التراث الدينى اليهودى لم يصدر مباشرة عن الله . . غير أنهم لم يضعوا التوراة أوالتراث اليهودي على محك انلقد والتقويم وما ذلك إلا لاعتقادهم أن الاثنين معا انبثقا عن روح الشعب اليهودى وقدرته الذاتية . وإذا كان اليهود الأرثوذكس يؤكدون على : " أن الدين اليهودى هو القومية ، وأن القومية هى الدين " ، فإن الإصلاحيين المحافظين لا يغالون إلى هذا الحد ولكنهم يخففون من الغلو . فهم يرجعون القداسة إلى روح الشعب فهو نبعها الأصلى أما الله فله قداسة خاصة .

وهكذا تجلت اليهودية المحافظة فى خصائصها التقليدية وقد اتشحت بوشاح العلم الحديث . . وذلك هو لباب الصهيونية .

بذلك ارتدت الهسكلاه عند أغلب المفكرين الصهاينة عن المفاهيم الرئيسية لاستنارة ولاسيما مفهوم العقل أو الفكر - إرتدت إلى العاطفة فالعاطفة قوام الإنسان فى وجوده وحياته . . وكان ثيودور هرتزل (١٨٤٢ - ١٨٨٥) . .

مؤسس الصهيونية ممن اقتفوا ذلك المنهاج . فقد بدأ علمانيا لا يمنع من التآخى مع العلمانيين المحدثين . ولكنه سرعان ما ارتد فصارقوميا صهيونيا أى مؤمنا بقوميته اليهودية وبصهيونيته السياسية التي تعين على تحقيق مبادئ القومية . . وفى هذا الإطار يقول بنسكر فى كتابه : " الإنعتاق الذاتى " : " يجب ألا نقنع أنفسنا بأن الإنسانية وحركة التنوير سيكونان أبداً دواء جوهريا لشفاء شعبنا من مرضه " . . وقد أنحى المفكر الصهيونى سمولنسكين على حركة التنوير باللوم الشديد ، فاليهود لم يجنوا شيئا من ورائها ؛ فقال : " . . . كذلك أكدوا لنا بأننا بهذا " التنوير " سنستطيع تأسيس بيوت لنا حيثما تصادف وجودنا ونادوا بأنه يجب علينا أن نتخلى عن كل بارقة أمل فى العودة إلى أرضنا والعيش هناك بعزة مثل سائر الشعوب . . ولقد رأينا أن كل هذا لم يثمر شيئا ولم يحقق لنا الحب الذى نطلبه لذلك نقول : إن الكلب وحده هو الذى لا يملك ولا يريد أن يملك بيتا والإنسان المتنقل طيلة حياته والذى لا يفكر أبدا فى أن يؤسس بيتا لأبنائه سيعتبر كالكلب : .

وعلى هذا السياق سار موسى هس المفكر الإجتماعي الألمانى والذى وضع اللبنات الفلسفية للصهيونية . فقد استهل حياته بأن كان اشتراكيا متطرفا حتى كان هو وكارل ماركس على موده حميمة . فقد استهل تفكيره بأن كان عقلانيا حادا فى عقلانيته . . ولكنه بعد أن عرف أبعاد العقل وما يمكن أن يصير إليه فى يهوديته فإنه أعلن توبته عن خطيئته تلك ؛ فيقول فى كتابه : " روما

والقدس " : " عدت إلى شعبى بعد عشرين سنة من الاغتراب وهأنذا أشارك شعبى مرة أخرى فى أعياد أفراحه وفى أيام أتراحه ، فى آماله وذكرياته " . . . ثم قال : " أما اليهودى عديم الشرف فهو ليس ذلك النموذج القديم الذى يفضل قطع لسانه على أن يتفوه بكلمة ينكر فيها قوميته . .

إنما هو اليهودى العصرى الذى يخجل من قوميته لأن يد القدر تضغط بقسوة على شعبه " .

ومن أعجب السلوكيات السياسية عند المجاهرين بأن اليهودية قومية أنهم كانوا فائرى الشعور فى نزعتهم تلك وأكثر من هذا فإنهم وعلى أساس فلسفى أسطورى كانوا يروجون البيانات متلفعة بالغموض مثل : " روح الشعب "، " ورسالة الأمة الخالدة " . . إذن يمكن القول أن قد كان ثمة صنفين من اليهود أو صنفين من الصهيونية : صهيونية متمسكة بيهوديتها التقليدية القديمة ولا تنفك تتمثل بها قولا وعملا ونظرة علمية إلى العالم من حولها والذى تختلط به .

وصهيونيه قومية استنارت بالعلم الحديث والفكر الحديث ولكنها تصطنعه غاية سياسية عليا هى تحقيق اليهودية السياسية فى كيان اجتماعى صهيونى يتجسد فى أرض الميعاد .تحركها نزعة حيوية ذات وجدانية مشبوبه هى الوجدانية الحادة التى تتناسب تماما مع ما أخذته عن الغرب أو تعلمته من الغرب من مناهج عقلية . .ويمثل هذه النزعة الصهيونية " حاييم وايزمان " (١٨٧٤ - ١٩٥٢) ، أول رئيس لإسرائيل ، فى قوله : " إن الغرب بالنسبة للصهيونية كان ينتهى عند نهر الراين ، وخلف هذه الحدود توجد أرض مجهوله بالنسبة للصهاينة فالإستنارة لم تحدث والاندماج إن هو إلا سراب على الرغم من أنه هو الحقيقة الأساسية فى حياة اليهود فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة . . ولهذا كان هتلر بنازيته اللاعقلانية هو خير معين للصهاينةلأنه أثبت لهم أن اللاعقل قد انتصر وأن بلداً مستنيرا نسبيا مثل المانيا يمكن أن ينتكس فى أى لحظة ليلقى باليهود فى أفران الغاز " . .

فإذا كان من اليهود من أصبحوا صهاينة ، ولكنهم تمسكوا باليهودية على درجة من التأجج الديني الذى لا يعرف التعقل فإنهم فى هذا يكونون قد شاركوا النازية فى تلك النزعة . فا لغرابة فى أن يتفق الإثنان معا على أن يزجوا باليهود الذين استناروا بالفكر الأوروبى كغرماء للصهيونية القومية ، فى أفران الغاز تخلصا منهم من جانب وإيجالاً لليهود القوميين من جانب آخر كى يندفعوا إما بالرعب وإما بالعاطفة الدينينة المستعرة للهجرة إلى أرض الميعاد أو فلسطين .

وهكذا فإن الصهاينة كانوا من الآخذين بالاستنارة يأخذون من علمها ما يقربهم أو يحقق لهم من المآرب العلمية المعيشية ما يحتاجونه ويقربهم ممن حولهم من الغير . .وفى نفس الوقت لا يمنع هذا من أن يكونوا مصممين فى رغبة عارمة على تحقيق اليهودية القومية . .

فكأننا هنا أمام تركيبة نفسية شاذة عقيمة . هى فى لبابها السمسرة التى لا تقيم أدنى وزن لغاية قومية أو مقصد قويم . . وأمام هذه الطبيعة انفسية العوجاء الشوهاء فى مقاصدها فإنها عملت على إزكاء ما تكنه وتضمره فاستعارت من الفكر الحدث ما يدعمها فى عقيدتها وسياستها من أفكار ذاعت وشاعت لشذوذها وغرابتها . .وكم فى الفكر الحديث من شذوذ وغرائب . . فكان أن أخذت الصهيونية من " مطلق : هيجل ما يؤيد الألوهية اليهودية فى مطلقها المجهول الذى حسبها أن تؤمن به إيمان الاستسلام . .

فالجزء قيمته فيما يصنع بتكليف من المطلق لكن لا قيمة له فى ذاته إنما المطلق هو الوجود الكلى للوجود بأسره ولا وجود للفرد وا قيمة للفرد . . حتى ذلك الكل يستحيل إدراك كنهه أو الافتراب منه فكأننا إذن ندور فى حلقة من الغيب . .فلا وجود للفرد ولا قيمه ه وكذلك لا وجود لمطلق الإلهى عند اليهود . . فماذا يمكن إلا أن يكون الغيب مقدسا وغير مقدس فى آن واحد . . وكذلك أخذت الصهيونية من مذاهب العودة التاريخية عند فلاسفة التاريخ المؤمنين بها

من أمثال اشبنجلر ، وتوينبى ولكن العودة هنا إنما هى العودة إلى أرض الميعاد ..ولكن اليهود لا يؤمنون بنسبية التطور التاريخى فى تطور مراحله لكن التاريخ عندهم فى طوره الاول والآخير ومن ثم فاليهودية كاملة فى أوصافها وخصائصها إنما عودتها ذهاب جيل ومجئ جيل جديد والعودة إنما لأرض اليعاد .. وكذلك تمثل اليهود من الداروينية فكرة أنهم بلغوا الكمال فى أطوارهم الإنسانية والفكرية والعلمية فلا ينقصم شئ ..كما تأثرت الصهيونية بمناهج العلم الطبيعى فطبقته على تصوير التاريخ اليهودى وما سيكون من مستقبل ..

أما أكبر الفلسفات الأوربية الحديثة تأثيرا فى الصهيونية وأعمقها بعدا فى الوجدان اليهودى حتى أنها جعلتها دينها وديدنها ، هى فلسفة نيتشه بكل رموزها ..فاليهود لا يؤمنون بغير قوة الحرب والفتك بالغير ..فالقوة عندهم هى الخير وهى السلام وذلك هو التناقض الشاذ الذى لا تعرف الصهيونية سواه..

كذلك قال نيتشه [1] .. قال فى تغنيه بإرادة القوة :

● " ما الخير ؟

.. كل ما يعلوا فى الإنسان بشعور القوة وإرادة القوة والقوة نفسها

● ما الشر ؟

كل ما يصدر عن الضعف

● ما السعادة ؟

الشعور بأن القوة تنمو وتزيد ، وبأن مقاومة ما قد قضى عليها .

● لا رضى ، بل قوة أكثر وأكثر ، لا سلام مطلقا ، بل حربا ، لا فضيلة بل مهارة

● الضعفاء والعجزة يجب أن يفنوا : هذا أول مبدأ من مباىء حبنا للإنسانية ويجب أيضا أن يساعدوا على الفناء

---

(١) أناشيد : هكذا قال زراد شت

●أى الرذائل أشد ضررا ؟

الشفقة على الضعفاء العاجزين

● إن إرادة القوةتنزع نحو المقاومات ونحو الالم وفى جوهر كل حياة عضوية إرادة ألم

وأمل الوجود الإنسانى فى الإنسان الأعلى الذى هو الله عند اليهود ..

قال نيتشه مخاطبا بنى آدم يدعوهم إلى الا ينشدوا سوى الإنسان الأعلى :

إننى أدعوكم بدعوة " الإنسان الأعلى " ، فإن الإنسان شى يجب أن يُعْلَى عليه . فماذا عملتم من أجل العلا ء عليه ؟

● كل الكائنات حتى الآن قدخلقت شيئا أعلى منها : فهل تريدون أنتم أن تكونوا جزراً لهذا المد العظيم وتفضلون الرجوع إلى الحيوانية على العلاء على لاإنسانية ؟

● ما القرد بالنسبة إلى الإنسان ؟ أضحوكة وعار مؤلم .. وهكذا يجب أيضا أن يكون الإنسان بالنسبة إلى الإنسان الأعلى : أضحوكة وعاراً مؤلم ..

● إن الإنسان الأعلى معنى الأرض .. وعلى إرادتكم أن تقول

ليكن الإنسان الأعلى معنى الأرض ..

● الحق أن الإنسان نهر نجس ولابد للمرء أن يكون محيطا

كى يستطيع أن يضم فى جوفه نهراً نجسا دون أن يتدنس

فانا أدعوكم بدعوة الإنسان الأعلى فإنه هذا المحيط

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

قال زراد شت ناصحا هؤلاء الرجال الممتازين :

" ستبحثون سعيا وراء عدوكم وستناضلون نضالكم وتجاهدون من أجل أفكاركم ، فإذا هزمت أفكاركم فإن على إخلاصكم أن يسر لهزيمته . .

" وستعشقون السلام كوسيلة لحروب جديدة ، وستفضلون السلام القصير على السلام الطويل . .

" ولست انصحكم بمزاولة الأعمال ولست أوصيكم بالسلام

ولكن بالظفر والانتصار . . فليكن عملكم إذاً نضالا وسلامكم انتصارا . .

" أنتم تقولون إن القضية الجيدة تقدس الحرب ؛ أما أنا فاقول لكم :

إنها الحرب الجيدة هى التى تقدس كل قضية "

● " إن الشفقة فضيلة المومس . . .

" الا إن الشفقة لمناقضة للقوى الحيوية التى ترتفع بقوة الشعور بالحياة . .فهى إذاً تؤثر تأثير انحلال وإضعاف . . فإن الإنسان بفقد قواه حين يشعر بالشفقة (نحو الآخرين أو نحو نفسه) وعن طريق الشفقة يزداد فقدان القوة الذى سببه الألم فى الحياة من قبل ويصبح الألم معديا " . .

● " يجب عليك القسوة فعن هذا الطريق وحده يرتفع الإنسان إلى أعلي حيث يقابله البرق . . ويحطمه ، فلترتفع إلى البرق إرتفاعا كافيا "

العود الأبدى . . .

" آه ! يعود الإنسان من جديد إلى الأبد

الرجل الحقير يعود من جديد إلى الأبد

إن هذا يحملنى على اليأس من الوجود "

ثم قال زراد شت

" أهذه هى الحياة ؟ إذاً هاتها مرة أخرى "

"آه ، كيف لا أكون ولهانا بالخلود . . كلفا بخاتم الخطبة . . خاتم الخواتم . . خاتم الصيرورة والعودة

من كل ما سبق يمكن أن نقول إن الصهيونية أياً كانت وجهتها وكيفما كان وجهها فإن المحور الرئيسى الذى تدور عليه وتتحرك بموجبه ، الغلو العاطفى سواء فى التفكير أو السلوك أو المواجهة مع الغير . .وتلك كانت عقيدة جميع زعماء الصهيونية على اختلاف مواقعهم . . وكذلك فنحن إذ نجد أنفسنا أمام الفلسفة الصهيونية فإننا نكشف التوراة فيما سطرت وادعت . .

وعلى هذا فنحن لانجانب الصواب إذا قنا إن فلسفة الصهيونية فى نضارها هى فلسفة المعاداة للسامية . . ذلك لأن الصهيونية إذ بكونها بهذه الخصائص الفكرية والإجتماعية والنفسية التى تضمرها للأمميين كفيلة بأن تخلق العداء خلقا لليهود . فها هو ذا اليعازر بن يهودا - من الصهاينة المحدثين - يتحدث عن قيمة العاطفة فيقول : " يتحرك قلب الإنسان بالعاطفة وليس بالعقل - حتى قلوب المسكيليم - هى قلوب رقيقة يمكن التغلب عليها بمثل هذه العاطفة " . .

ولم يصبر المفكر اليهودى موسى هس على المنهاج العلمى إذ سرعان ما عاوده الحنين إلى العاطفة أو عاوده الحنين إلي ملته اليهودية وكأنه قد أخذ من العلم الحديث ما به يمكن مهاجمته إذا لزم الأمر ؛ فهو يقول بشأن العودة إلى العاطفة : " لقد تبين لى أن العاطفة التى ظننت أنى قد كبتها قد عادت إلى الحياة من جديد . . تأججت هذه العاطفة المخنوقة فى صدرى محاولة التعبير عن نفسها " . . ثم يصف ما هيه هذه العاطفة فيقول عنها إنها صوفية والصوفية هنا خاصة بموضوع محدد فيقول : " إنها التفكير فى قوميتى التى ترتبط برباط لا تنفصم عراه بتراث أسلافى وبالأرض المقدسة وبالمدينة الخالدة " . .ثم أفصح الحاخام إبراهام إسحاق كوك عن أن للعواطف مجال فلا تظهر على حقيقتها إلاعند ما هو أعز شئ عند الإنسان اليهودى . إنهما أرض إسرائيل والوحى المقدس . . فقال كوك : " لا يستطيع اليهودى أن يكون مخلصا وصادقا فى أفكاره وعواطفه وخيالاته فى أرض الشتات كما يكون فى أرض إسرائيل . فالوحى المقدس بأى درجة كان

، يكون نقيا فقط فى أرض إسرائيل. أما فى خارجها فإنه يكون مشوشاً ملونا وغير نقى " . .

وحتى تكون العاطفة معبرة فى عطفها وتعاطفها فإنه لابد أن يكون الآلم هو الباعث والمحرك فبغير الآلم وبغير العذاب يستحيل أن نصدق العاطفة أو نصدق الشعور والإحساس . .هكذا كان موشيه ليلينبلوم فى يهوديته ؛ فهو يقول " :إنى لمسرور إذ تعذبت فأتيحت لى الفرصةعلى الأقل كى أشعر بما كان يشعر به أجدادى كل يوم فى حياتهم . كانت حياتهم كلها عبارة عن رعب طويل . فلِمَ إذن لا أمارس الشعور بذلك الخوف الذى ملأ حياتهم " . والصهيونية ـ أو اليهود بعامة لا يعرفون للألوهية معنى منزها فهم فى تاريخهم يعشقون الوثنية وكأنهم مفطورون على الانحراف . حدث هذا مع كل أنبيائهم الذين حاولوا هدايتهم فلم يفلحوا رغم كثرتهم . . ونستبين تلك الوثنية من إدراك اليهود لبعض رموز الاجتماع الإنسانى : كالشعب والأرض والنبى والإنسان فهذه الرموز قد حلت فيها روح الله فلا غرابة فى أن يصبح أفراد الشعب من الكهنة والقديسين والأنبياء بل المسحاء المخلصين الذين هم أمل الإنسانية كلها . . ومن هنا وصف العهد القديم الشعب بأنه " خادم الله " ، وكنز الله " . .وفضلاً عن هذا فالشعب ـ كالأنبياء ـ يلتمس وجوده من الله الذى أنقذه من أرض مصر فأخرجه منها سالما كما أنه أعانه على التغلب على الكنعانيين . . فها هو ذا بياليك يمجد أنبياء اليهود ؛ فيقول :" إنهم الذين يحملون عاصفة روح الله فى قلوبهم وزلازله ورعوده فى أفواههم " . . إن لهم وجودهم المبرأ من الوجود الإنسانى ، وفى نفس الوقت وهبوا الوجود الإنسانى إنسانيته . .

فهم قد :" حولوا أنظارهم إلى الأزلية إلى السموات والأرض وكانوا فى نهاية المطاف هم الذين أقاموا أسس الثقافات الدينية والأخلاقية فى العالم " . .ثم يبلغ التجديف فى حق الألوهية أقصاه حين يقول الحاخام كوك :" إن اليهود كشعب

يحاول كشف طبيعة الله للعالم ورفع رأس الإنسان عاليا باسم الله من أجل تمجيد عظمته" . .

وهكذا إسرائيل إنها وحدها التى تقدست عن الحيوانية التى يعرفها أبناء آدم . . لقد جاء اصطفاء إسرائيل بتلك القداسة " لتتمكن " ، كما قال بوبر : " من الأرتفاع فى تفكيرها عن القوة البيولوجية التى تمجدها الشعوب إلى دائرة الحقيقة والاستقامة " .

ومما يلاحظ فى كتاب العهد القديم وكأنه يؤيد تلك القداسة التى لا سبب لها ولا علة ، أن الشعائر المقدسة عند اليهود لا تنطوى على أية مسحة أخلاقية أو آداب تزكو بها الحياة الإنسانية فهى لا تزيد عن كونها سلوكيات قبلية غايتها الإعتداء على لغير طمعا فيه حتى الأرض التى وُعدَ بها إبرهيم ﷺ له ولأولادها وأحفاده ، لم تمنح لهم لتقوى أو استقامة ولكن هكذا منحوها .

ماذا نقول وكأن ما كتب للشعب اليهودى لم يكتب لغيره ؟ يقول كوك : " إن كل ممتلكات إسرائيل القومية العزيزة على قلوب اليهود ـ الأرض واللغة والتاريخ والعادات إن هى إلا أوعية لروح الرب " .

وبتأثر واسع عميق بالمطلق عند هيجل فإن بوبر اليهودى الوجودى ألغى الذات اليهودية الفردية وزج بها فى غمار مجموع الشعب اليهودى ، فهو لا يزيد عن كونه جزء فى الكل لا يعرفة الكل ولا يأبه لوجوده ومن هنا فليست هناك ثمة علاقة بين الفرد وربه، وليست هناك ثمة تحاور بين العبد وخالقه .

إنما الحوار يكون بين الخالق والشعب . . ذلك أن الله يذوب فى الشعب والشعب يذوب فى اللة ، والإثنان معا يكونان المطلق المقدس . . وعلى هذا فللتاريخ عند اليهود معنى خاصا بهم وحدهم إنه تاريخ التقاء الرب مع الشعب ولا شئ غير ذلك . وهذا التصور هو عين العلاقة بين الله والإنسان . وهكذا زيف اليهود على أنفسهم بحركة هى السكون بعينه . ولذلك ففى

تصوير بوبر تكون العقيدة المقدسة إنما هى من حظ اليهود وحدهم فهو يقول : " إنما حينما يتحول الوحى إلى أفكار تفهمها الجماهير وتؤمن بها فإنها تصبح عقائد . ولكن هذا الوضع بالنسبة لسائر الأمم . . أما بالنسبة لإسرائيل فالأمر مختلف إذ أنه ثمة تطابق كامل بين الوحى والعقيدة والتاريخ . .

إن إسرائيل تتلقى تجربتها الدينية الحاسمة كشعب ، ليس النبى وحده هو الذى تشمله عملية الوحى بل المجتمع ككل . فمجتمع إسرائيل يعيش التاريخ والوحى كظاهرة واحدة : التاريخ كوحى والوحى كتاريخ " .

وتلك هى العنصرية اليهودية فى ادعاء القداسة . .أليس كذلك ؟

إذن فالخطر على البشرية كل الخطر أن يتعرض اليهود أدنى إيذاء لأنهم فى قداسة خارج الدائرة البشرية ؛ يقول المفكر اليهودى سيريكين الذى كان اشتراكيا : " إن الإنتحار القومى اليهودى يشكل مأساة رهيبة لليهود أنفسهم، كما ستكون الحقبة التى تقع فيها هذه الواقعة أفجع ما سيعرفه تاريخ البشرية لأن القضاء على اليهود يعنى القضاء على البشرية " .

وتلك هى العنصرية اليهودية فى ادعاء القداسة . . أليس كذلك ؟

لقد أشرنا من قبل - إن لم نكن قد قررناه - أن اليهود دعموا مطلقهم المقدس بمطلق هيجل فى نظامه، فنحمان كرمكال بنى فلسفته فى التاريخ اليهودى على نظرية هيجل فقد ذكر فى كتابه : " دليل للحائرين هذه الأيام " ؛ : أن الأمة اليهودية ليست مثل بقية الأمم فكل الأمم تمر بدورة نمو ثم نضوج ثم اضمحلال ثم موت . أما اليهود فلا يمرون بمثل هذه الدورة إذ أن الحياة تدب فيهم مرة أخرى ويبدأون دورة أخرى " .

فكأن اليهود ينكرون تماما طبيعة التطور الحيوى للكائنات الحية ومنها الإنسان ،فى تدافعها وتصارعها وتقدمها مرحلة بعد أخرى حتى تبلغ غاية

بقائها .. فالدنيا كلها تعرف ذلك الطور ولا تعرف سواه ..ولكن لليهود دورة خاصة بهم ، دورة كاملة لا تعرف المراحل إلى أن تنتهى بالموت وهى فى كمالها . وهكذا يزيف اليهود طبيعة الحياة بديالكتيك صهيونى عقيم فيه لا يصيب اليهود أعراض الموت والفناء : " فلليهود - كما يقول كرومكال - روح سر مدية تعرف سر تجدد الحياة ذاتيا ..

فبينما سيطر على الأمم الأخرى وجودها الجسدى أو أرضها القومية سيطر على اليهود " روح الجماعة " وحدها " ..وأمام ذلك التخبط الوثنى لم يجد كرومكال بدأ من أن يجعل من "مطلق " هيجل إلها ليهود - أى إلها بالسمسرة - فهو يقول : " إن روح هيجل المطلقة ليست سوى إله إسرائيل الذى يرتبط به الشعب الإسرائيلى برباط وثيق .. وتحقيق إرادة هذا الإله أو الروح المطلق هو الشعب اليهودى بمثابة المثل الأعلى بل والمصير المحتوم " .

أليس فى ذلك عجز فكرى عن فهم المطلق الهيجلى فى دلالاته ؟

أما فلسطين التى زعم اليهود أنها أرض إسرائيل فإذا كانوا قد قالوا بأن روح الشب من روح الله وروح الله من روح الشعب فليس بغريب إذن أن يقول اليهود إن أرض إسرائيل لا تنفصل عن روح الشعب الإسرائيلى فهذا هو ابراهام كوك يقول : " ليست أرض إسرائيل شيئا منفصلا عن روح الشعب اليهودى " ..

ومن ثم فالألوهية حسب تصور اليهود لا تكون خالصة إلا فى الأرض المقدسة : " فقبول الحقيقة الإلهية هناك فى تلك الأرض يكون الذهن مهيئا لإدراك معنى النبوة والاستنارة بإشعاع روح القدس " ..

وذلك هو غاية الخلط والاضطراب فى مفاهيم الألوهية ..والغاية واحدة هو جعل اليهودية مقدسة فى كل معانى التقديس مقدسة فى الكون كله وعلى كل من بالكون ..وتلك هى العنصرية المتعالية المقدسة والتى لا تختلف عن عنصرية نيتشه فيما يختص بالإنسان الأعلى ..

لكن ، هل حقيقة أن فلسطين هى أرض إسرائيل ؟ . .هل صحيح أن فلسطين هى أرض اليعاد ؟ لكن أى ميعاد ؟

طالب اليهود باسترجاع " أرض الميعاد " ، واسترجعوها " بالطول والعرض " . .

والكارثة التى لحقت بالعرب ، بل العار الذى لحق بهم ، بل الجهالة التى أصابتهم ، هى أنهم سلموا لليهود بأن أرض فلسطين أرضهم أو أن لهم حق فيها . . فإقرارنا بهذا الحق ينطوى على اللامبالاة كما ينطوى على تجاهل للتاريخ وتساهل مع المزيفين لحقائقه . . فطلائع الفلسطينيين كانوا هم الذين عمروا أرض فلسطين قبل أن يتسلل إليها العبرانيون كما كان يشاركهم فى هذا الإعمار كثير من الشعوب السامية التى كانت تموج بها منطقة الهلال الخصيب ومن ثم فلم يكن للعبرانيين ذكر سوى أنهم جماعة سامية تعيش على هامش العمران بالتجارة والسمسرة والعمل كجنود مرتزقة . . ومن هنا فإن الادعاء بأن أرض فلسطين أرضهم أو أن لهم فيها . . فإقرارنا بهذا الحق ينطوى على اللامبالاة ، كما ينطوى أيضا على تجاهل للتاريخ وتساهل مع المزيفين لحقائقه .

فطلائع الفلسطينيين كانوا هم الذين عمروا أرض فلسطين قبل أت يتسلل إليها العبرانيون . كما كان يشاركهم فى هذا الإعمار كثير من الشعوب السامية التى كانت تموج بها منطقة الهلال الخصيب ومن ثم فلم يكن للعيرانيين ذكر سوى أنهم جماعة سامية تعيش على هامش العمران بالتجارة والسمسرة والعمل كجنود مرتزقة . . ومن هنا فإن الادعاء بأن أرض فلسطين أرضهم إن هو إلا محض افتراء عمل أحبار اليهود الأول ـ ثم الصهاينة بعد ذلك ـ على إحكام تزييفه باختلاق أحداث وأسماء وأشخاص وتواريخ حركوها بتواريخ مختلفة بحيث تؤدى فى النهاية إلى اثبات ثبوت اليقين بأن العبرانيين هم " أصحاب البلد " . .

فإذا رجعنا بالتاريخ إلى الوراء قليلا فإنه يذكر لنا بأن قد كانت هناك ثمة جموع من القبائل الرحل من بدو الرعاة قطنوا أرض كنعان وكانوا من الآراميين

الذين جاءوا من شمال الفرات ومن شرق الأردن ومن شبة الجزيرة العربية .

أما العبريون ـ اليهود بعد ذلك ـ فقد جاءوا من مصر عند خروجهم منها وكانوا لا يمثلون عنصرا متميزا قوى البأس يقدر على الغزو ودحر العدو ولكنهم تسللوا إلى أرض كنعان فى فلسطين واختلطوا بأهلها وتزوجوا منهم وتأثروا بعاداتهم وثقافتهم وعبادتهم . لكن المؤرخين التوراتيين زعموا أنهم غزوا أرض كنعان وأنزلوا هزيمة دموية بالكنعانيين . وذلك ليحسبوا لأنفسهم دوراً حضاريا مركزيا فى فلسطين فكانت حربهم من ثم " حربا مقدسة " نوه بها وأشاد أحبار القرن السادس . .

ولكن الاحتمال الأقرب إلى الحقيقة أن العبريين تعاونوا مع بعض العناصر الآرامية الناقمة على الكنعانيين ، والفلسطينيين كما انضم إليهم بعض اليونانيين والحيثيين . ومن هؤلاء تكونت قوة استطاعت مباغتة الكنعانيين وإيقاع الهزيمة بهم وكان الأمر للعبرانيين الذين تمكنوا بمساندة أنصارهم من إنشاء مملكة داود ومن بعده سليمان ولم تستمر هذه الممكة التى ضمت من كل أجناس :" الهلال الخصيب " وخارج الهلال الخصيب ، مالا يزيد عن ثلاثة وسبعين عاما . وبعدها انهارت المملكة التى قامت بالغدر والغيلة والاحتلال . . ثم نُفى اليهود إلى بابل .: ثم عادوا منها . . ثم شبت ثورات يهودية عام ٦٣م بمساندة من الآشوريين ضد الرومان . .

ثم اختفى الوجود العبرى من فلسطين إلى ما يقرب من ألف سنة . . وبعد ثورة باركو شيبا (من زعماء اليهود) عام ١٥٣ م اختفى الوجود العبرى لمدة ألف سنة أخرى . . رهكذا انتهى الاحتلال اليهودى لأرض كنعان أو فلسطين . .

وبدأ عمل أحبار التوراة فى صياغة التاريخ التوراتى لليهود وتدريسه للملايين من المسيحيين فى أوروبا الذين لم يكن يخالجهم أدنى شك فى قداسته وصدقه .

وأمام هذا التزييف اليهودى المقدس لم يجد الصهاينة مناصا من إنكار الوجود الفلسطينى إنكاراً تاما فأصبحت فلسطين " أرضاً بلا شعب . .لشعب بلا أرض " حسب مقولة الكاتب الصهيونى " : إسرائيل ونجويل " . . ومن ثم أنكر ثيودر هرتزل ، مؤسس الصهيونية فى كتابه ك" الدولة اليهودية ١٨٩٦ "

وجود شعب فلسطينى بل إنه لم يشر إليه تماما فى كتاباته أو اجتماعاته وكأنها من البديهيات التى لا يجوز مناقشتها . .فآمن الصهاينة بذلك التزييف امحبوك حتى أن جولدا مائير قالت لصحيفة :" صاندى تايمز فى ١٥ يونيو ١٩٦٩ :" لا وجود للفلسطينيين ، وواقع الأمر لا يبدوا وكما لو أنه كان ثمة شعب فلسطينى فى فلسطين يعتبر نفسه شعبا فلسطينيا . .وكما لو أننا جئنا لطرده والاستيلاء على بلاده . . الواقع أنه لم يكن موجوداً أصلا . وبما أنهم غير موجودين أصلا ومع ذلك فهم يقاومون ، فالواجب يقضى بإقصاء هؤلاء الغائبين الحاضرين أو تقتيلهم على طريقة تعامل المهاجرين إلى أمريكا مع الهنود الحمر " .

وكتب جوزيف ويتز الذى كان مديراً لدائرة الاستيطان فى الوكالة اليهودية فى ثانى يوم من حرب ١٩٦٧ :" بصراحة يتضح تماما ألأ مكان فى هذه البلاد للشعبين معا . والحل الوحيد هو فى تكريس أرض إسرائيل القديمة المتمثلة على الأقل فى إسرائيل الغربية غربى الأردن ، دون وجود العرب والمخرج الوحيد هو فى نقل العرب إلى مكان آخر فى البلاد المجاورة " . .

أما عن حق اليهود فى العودة بفضل نقاء جنسهم وبفضل تاريخية الأرض فهذا مما أظهر بطلانه الكثيرون من المفكرين منهم ،جوزيف ريناخ الذى قال :" بما أنه لا يوجد إذن عنصر يهودى ولا أمة يهودية بل مجرد ديانة يهودية فالصهيونية هى بالتالى حماقة " . . ويقول مكسيم رودنسون :" من المرجح ،

كما يجنح علم الإنسان إلى تبيانه ، إنه يجرى فى عروق السكان المعروفين بعرب فلسطين (ومعظمهم معربون) قدر من دم العبرانيين القدامى أى الآراميين شعب إبراهيم عليه السلام، أكبر مما يجرى فى عروق أغلبية يهود الخارج ممن لم يمنع انغلاقهم الدينى من امتصاص متحولين إلى اليهودية مختلفى الأصول العرقية " . .

وأوضح خاتمة لإزالة الخداع التاريخى هذا ، هى التى أوردها : " توماس كيرنان "،فى كتابه " : العرب " (صدر فى بوسطن ١٩٧٥) قائلا : " كان الصهاينة أو ربيين وليس هناك أبدا من ربط حيوى أو عضوى بشرى بين أجداد يهود أوروبا وبين القبائل العبرانية القديمة "

ثم يقول رجاء جارودى المفكر الفرنسى عن الزعم بحق اليهود فى فلسطين وأنها أرضهم التى وعدوا بها : " . .فقبل ثلاثة [1] آلاف سنة وبين العديد من الغزوات تشكلت مملكة عابر (لم تدم فعلا أكثر من ٧٣ سنة) لم تكن متجانسة السكان بل هى لم تسع إلى أن تكون كذلك ، وقد أدت تقلبات الزمان إلى انهيار هذه الدولة التى مرت بنفس مصير جميع الممالك المتسلطة . أما االغزاه الذن استنكفوا عن الإندماج فى المحيط الذى يعيشون فيه طردوا تماما كالصليبيين الذين اجتاحوا فلسطين فى القرن الحادى عشر وتعمد البقاء فيها كجسم غريب فارضين هم أيضا سيطرتهم بقوة الساح وتمويل الغرب . .وبعد قرنين من الاحتلال (بين ١٠٩٦و١٢٩١م) حافلين بحروب متلاحقة ضد السكان الأصليين تم طرد هم جميعاوآخر فرد غادر عكا عام ١٢٩١م . . ومن الناحية التاريخية لا يملك الدعائيون المتعصبون للصهيونية السياسية قدراً من " الحقوق التاريخية"فى فلسطين أكثر مما كان يملكه الصليبيون " .

---

(١) كتاب : أحلام الصهيونية وأضليلها . تأليف : رجاء جارودى ، ترجمة صحيفة الأهرام ١٦/ ٣/ ١٩٨٣

نتائج لها أبعادها

من كل ماسبق نخرج بالنتائج الآتية :

- تتميز اليهودية بالتعالى العنصرى الذى يلبس ثوب القداسة التى ليس نظير .
- وتتميز اليهودية بالتعالى العنصرى الذى يُلْبِس أرض إسرائيل قداسة ليس لها نظير .
- وتتميز اليهودية بالتعالى لروحانية زعمت لها قداسة بغير نظير .
- وتتميز اليهودية بالتعالى العنصرى الذى لا يلتقى مع أحد من بنى آدم على خير ، بل الحقد والكراهية .
- تتميز اليهودية بالتعالى العنصرى فهى توقن بأنها مبرأة من كل العيوب النفسية والأخلاقية والفكرية .
- تتميز اليهودية بالتعالى العنصرى فهى توقن بأنها خارج دائرة التاريخ ولها تاريخ مقدس لا يعرف سواها .
- تتميز اليهودية بالتعالى العنصرى فهى توقن لأنها خارج دائرة التطور الحيوى للكائنات فلها دورة خاصة بها تعرف الأطوار والمراحل ولكنها خلقت تامة كاملة وتموت وهى تامة كاملة .
- تتميز اليهودية بالتعالى العنصرى الذى يوقن بأن العالم كله يضمر العداء لها لأنها تتفوق عليه فى كل الخصائص الإنسانية .
- تتميز اليهودية بالتعالى العنصرى الذى يوقن بأن كل عظيم إنما هو من صنع اليهود :

(١) فالأهرام الكبرى المصرية من بناء اليهود وكذلك معبد الدير البحرى وكذلك المسجد الأموى .

(٢) تحرير مصر من الهكسوس تم بفضل المناصرة اليهودية .

(٣) فتح مصر على يد عمرو بن العاص شارك فيه اليهود مشاركة عسكرية فعاله .

(٤) فتح الأندلس على يد طارق بن زياد كان الفضل فيه لليهود تدبيرا وقتالا .

(٥) الثورة الفرنسية من صنع اليهود .

(٦) اليهود هم الذين أوحوا إلى إخناتون بدين التوحيد

● يرجع السبب فى هذه العبقرية اليهودية إلى أن الرب قد حباهم بها دون العالمين بغير فضيلة فيهم .

فهل من الممكن أن يكون اليهود وهم بهذه الخصال البشيعة إلا أن يكونوا هم الحاقدين على العالم كله ؟

ذلك هو الحق ، ومن هنا كان لابد أن يكون هنالك درد فعل ضد اليهود فيكرههم الناس . . ولذك فليس بغريب أن يعيش اليهود فى معزل تاريخى ومعزل نفسى . . ومعزل روحى مقدس . . وكذلك خلقوا حول أنفسهم سدودا من وراء سدود . . نعم ، من البديهى أن يكون للناس الحق فى أن يكرهوا اليهود طالما أنهم على هذا الخلق الشيطانى .

ولم يشأ اليهود أن يطلقوا على من يفضح عيوبهم ويزرى عليهم ما يصنعون لقب " : العداء لليهودية لأن هذا اللقب يفتح على اليهود ما يخشونه إذ سيتذكر الناس العداء القديم الجديد والحساسية الشديدة التى كانت بينهم وبين سائر الشعوب . . ولذا لم يجد اليهود أفضل من أسم " العداء للسامية " ، فالعداء هنا عداء لأصل بشرى قديم بمنأى عن الدين وما يثيره فضلا عن أنه لايجد من يناصر ذلك العداء .

أمّا وقد عالجنا مقومات اليهود (أو مقومات السامية) الفكرية ، والنفسية والتاريخية والاجتماعية . . فإننا نرى أن اليهود يشهرون سلاح العداء للسامية فى وجه كل من يتعرض لهم بكلمة . .

فسلاح العداء للسامية سلاح إرهاب وابتزاز . . نعرض من إرهابه وابتزازه صورا متكاملة تجسد معانى الحقد على عباد الله يصعب دحضها أو إنكارها . .

السامية .. إرهاب وابتزاز

١

بروتوكولات حكماء صهيون

● نبذة تاريخية :

شاءت الأقدار أن يعثر سيرجي نيلوس في [1] ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، على :"بروتوكولات حكماء صهيونية " .. وقد سجل في واحد من كتبه عن ظروف تعامله مع البروتوكولات فقال :" لقد تسلمت من صديق شخصي - هو ميت الآن - مخطوطا يصف بدقة ووضوح عجيبين خطة وتطورات لمؤامرة عالمية مشئومة موضوعها الذى تشمله هو حر العالم الحائر إلى التفكك والانحلال المحتوم ويظهر أن هذا الصديق هو " إليكس نيقولا نيفتش " .. وهو كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية أيام القيصرية .

وكانت تلك المذكرات التي انتهت إلى يد سيرجي سنة ١٩٠١ ، صورة صادقة منقولة عن المذكرات الأصلية التي سرقتها سيدة فرنسية مجهولة من أحد الأكابر أصحاب الجاه والسلطان وكان من كبار الماسونيين ..ويذكر سيرجي أن تلك السرقة تمت في ختام اجتماع سرى عُقِدَ مع هذا الكبير في فرنسا ..

ومما لاحظه سيرجي على تلك المذكرات أنها كانت مصاغة في أسلوب ينضح حقدا ونقمة .. وقد وصفها سيرجي بقوله :"كانت تتأرجح بين سطورها بغضاء دينية وعنصرية عميقة الغرور متغطرسة ، قد خبئت بنجاح أمداً طويلا " .

ولما كان سيرجي مسيحيا يمتلئ قلبه بالحب لعقيدته والغيرة عليها محبا للخير والسلام ؛ فإنه قال :" إن ضميره سيكون راضيا إذا وصل بفضل الله إلى الغرض الأهم وهو تحذير العالم الأممى (غير اليهودى) دون إثارة الحقد في قلب

(١) من تقرير للصحافة : منال لاشين (صحيفة صوت الأمة)

هذا العالم ضد شعب إسرائيل الأعمى " .

ثم ترجمت البروتوكولات من الروسية إلى الإنجليزية . .وقد حاول اليهود أن يدرأو عن انفسهم تهمة تلك البروتوكولات ولكن الحرب العالمية الأولى أثبتت صدق ما تنبأ به حكماء صهيون أو ما دبروه . .

حتى إذا ما صار لليهود نفوذا صارما فى أنحاء العالم فقد أصبحت الشعوب تتحاشى الإشارة إلى البروتوكولات خشية الاتهام بالسامية . .

وبعد ، وحتى إن لم تشتعل الحرب العالمية الأولى وغيرها من الكوارث ولا سيما كارثة ١١ سبتمبر ٢٠٠٠ ، التى دبرها اليهود بغير شك ، ألم تكن حياة اليهود تزويرا وتهديداً منذ نشأتهم الأولى وفى كل أطوار تاريخهم إلى اليوم ؟

إن لكتاب التوراة دستوراً يعتبر الواجهة السياسية له يعرف باسم :" بروتوكولات حكماء صهيون " . . ينفذ اليهود خططه ويحققون أهدافه . فمما جاء فى البرتوكول الرابع عشر :" حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض - لن نبيح قيام أى دين غير ديننا أى الدين المعترف بواحدانيةالله الذى ارتبط حظنا باختباره إيانا كما ارتبط به مصير العالم . .ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان ، وإذ تكون النتيجة المؤقتة هى إثمار ملحدين فلن يدخل هذا فى موضوعنا .

ولكنه سيضرب مثلاً للأجيال القادمة التى ستصغى إلى تعاليمنا على دين موسى الذى ،وكل إلينا - بعقيدته الصارمة - واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا " .

وفى نبرة حادة من الخبث الدنئ يقول نفس البرتوكول :" وسيفضح فلاسفتنا كل مساوئ الديانات الأممية . ولكن لن يحكم أحدُ أبدا على ديانتنا من وجهة نظرها الحقة ؛ إذ لن يستطاع لأحد أبداً أن يعرفها معرفة شاملة نافذة إلا شعبنا الخاص الذى ن يخاطر بكشف أسرارها " .

وكذلك يصور الخبث الدنئ لهذا الخيال المريض أن لليهود أسراراً محجوبة .

من العسير ولكنه الإرهاب والتخويف بالتزييف على أحد أن يطلع عليها وأن للديانات الأخرى مساوئ !!

فأى مساوئ للمسيحية كما أرادها الله ؟ وأى مساوئ للأسلام الذى جاء به كتاب الله ؟ ليست المسألة مسألة مساوئ لكن القضية فى جوهرها : كيف نسئ إلى المسيحية . وكيف نحطمها ؟ ، وكيف نسئ إلى الإسلام وندمره ؟ لهذا فإن اليهود فى سبيل القضاء على المسيحية ينتهجون عدة أساليب درسوها وخططوا لها..ومهما تعددت أشكالها فإنها تعمل متآزرة نحو الغاية التى يريدون تحقيقها . ومن هذه الأساليب إبتداع نحل دينية تستتر تحت أسماء براقة ومبادئ مغرية من شأنها أن تحيط الكنيسة المسيحية بألوان من الشكوك والجدل فى العقيدة وكذلك فى الروابط الإجتماعية والعلاقات الأسرية . واليهود فى هذا يتدرجون من المخادعة التى تقوم على ادعاء التحرير إلى التبجح الذى أحس بقوته ونفوذه .

فإذا هو يحاول إملاء بعض الأعمال والإجراءات التى تضعف من كيان المسيحية وتعلى من شأنهم فى نفس الآن . وهذا ما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية :" ففى عام ١٩٠٠ حاولوا شطب كلمة :" مسيحى " من لائحة الحقوق فى ولاية فرجينيا . وفى عام ١٩٠٧ ، أصروا على إلغاء إحدى مسرحيات شكسبير - " تاجر البندقية " - من برنامج الدراسة فى مدارس تكساس ، وأهيو ، لا لسبب سوى أن المؤلف سخر فيها من جشع اليهود وحبهم للمال حبا جما ممثلاً فى شخصية اليهودى " شايلوك " .

وفى عام ١٩٠٨ تدخلوا فى صميم المؤسسات المسيحية وحاولا إزالة الكثير من اطابع المسيحى فيها إلى حد الاعتراض على قراءة الإنجيل وإقامة الاحتفالات فى عيد الميلاد " كريسماس " فى فيلا دلفيا ، وسنسناتى ، وسنت بول ، ونيويورك . وفى عام ١٩١٢ بناء على طلب الحاخام ، أزال نظار بعض المدارس فى روكسبورى ، وماسشست من مدارسهم شجرة الكريسماس وكل ما يتعلق

بالاحتفال بعيد الميلاد " . .

وفضلاً عن المراء وتبجح الإملاء نجد اليهود وهم يلجأون إلى طريقة السخرية من الدين ورجاله . فيخرجون " أفلاما سينمائية " ، يظهر فيها قسيس بروتستنتى « فى دور سكير عربيد لا يتورع ولا يحجم عن الدناءة فى إشباع غرائزه . فهو يتعقب النساء ويوقع الفتيات فى حبالاته ، ويعب الخمر ولا يفيق من سورتها . . وللحصول على المال فإنه يختلسه من لعب القمار ومن مدخرات الكنيسة . وهو فى كل ما يقترف من خطايا يبرر أفعاله بأقوال تتسم بالحكمة والاتزان ، ويبدوا على صاحبها مظاهر الجد والوقار ، وكأنه يوحى إلى الناس أن يسيروا وراءه وأن يقتدوا به . .وبذلك يتحقق هدفان من وراء العرض الساخر لرجال الدين :

أولا : الاستهانة بالدين والاجتراء عليه .

ثانيا : إشاعة الانحلال الأخلاقى .

وبهذا ينفذ اليهود ما جاء فى البرتوكول السابع ؛ وقد ورد فيه :" وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين من الأمميين فى أعين الناس وبذلك نجحنا فى الإضرار برسالتهم التى كان يمكن أن تكون عقبة كئودا فى طريقنا . وإن نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوما فيوما " .

ولا يكفى أن يظهر رجل الدين بمظهر الفاسق الممعن فى فسوقه والذى يبرر شناعاته بحكم دينية ومواعظ أخلاقية كى يجر الجماهير إلى طريقه ، فإن اليهود يقدمون إلى هذه الجماهير ما يسرع بها إلى ما يرجونه ؛ ولذلك يقول البرتوكول الأول :" ومن المسيحيين أناس قد أضلتهم الخمر وانقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكيات ، والجنون المبكر الذى أغراهم به وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهر ماناتنا فى البيوتات الغنية وكتبتنا ومن إليهم ونساؤنا فى أماكن لهوهم " .

والإغراء بالمجون والخمر لا يتم بغير خلق الجو الذى يستثير غرائز الجنس

ويزين لها الإيضاع فى إشباع شهواتها ويحلى لها التمرغ فى فتن الترف وكأنه النعيم الذى لا ينفد . وخلق هذا الجو يعنى الاستعانة بعاملين متكاملين ، هما :الموسيقى والغناء . . أما عن الموسيقى فإن اليهود يتخيرون ما يهيج الشهوة الجنسية ويفتح كل خلايا الجسد تهتف بالجنس وتناديه .

وليس هناك ما هو أصلح من موسيقى البدائيين الذين لم تتهذب حواسهم ولم ترق أذواقهم . لذلك فإنهم ـ يأخذون :" عن القبائل البدائية أنغاما هى مزيج من الشهوة الجنسية وضعف العقلية تتخللها أصوات هى أبعد ما تكون عن تهذيب الوجدان وأقرب ما تكون إلى صياح الحيوان مع وحشية ورقصات جنونية تثير فى الفتية والفتيات كا من النزعات الحيوانية وهم ممتلئين حيوية وفورة جنسية وأطلقوا عليها اسم : موسيقى " الجاز " التى أصبحت فى الوقت الحاضر هى الموسيقى الحديثة . وأول من أدخلها فى أمريكا يهودى اسمه :" فريسكو" .

أما فى الأغنية فإن اليهود يبتكرون الأغانى التى تتسق وموسيقى الجنس .

ولذلك جاءت أغانيهم وكلها ميوعة ودعوة صارخة إلى التحلل . وقد وجدت تلك الأغانى قلوبا فارغة ونفوسا ظمئة إلى صهباء الجنس ؛ فأقبلت عليها ترددها بشغف كبير . وبذلك يروج الفساد بين شباب الأمة ، وتروج بضاعة اليهود فيغنمون أموالاً طائلة . ومن ثم كان لابد من السيطرة على وسائل تصنيع الموسيقى والأغنية وطرق نشرها . وتم لليهود ذلك فى أمريكا :" فقد سيطر اليهود تمام السيطرة على الموسيقى والألحان . فهم " مؤلفوم الأغانى وملحنوها ، وهم واضعو النوتة الموسيقية وعازفوها ومعبئو اسطوانات " الجرامفون " وبائعوها ويحتفظون لأنفسهم بحق إعادة إنتاجها " .

وإفساد أخلاق الشباب وفصم عروة الدين التى يستمسك بها المسيحيون ويتواصون يسانده إفساد الفكر فى قدرته على التصور والنقد والتحليل ؛ وفى قدرته على استخلاص النتيجة القويمة بعد التدبر الحكيم والترجيح السديد .

وذلك يتحقق عن طريق وسيلة الأعلام الأولى ، ألا وهى الصحافة .. واليهود يعرضون ما حققوه من نجاح فى إفساد الفكر والحصول على المال عن طريق الصحافة ؛ فيقولون فى البرتوكول الثانى :" إن الصحافة فى أيدى الحكومة القائمة هى القوة العظيمة التى بها نحصل على توجيه الناس ..فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور وتعلن شكاوى الشاكين ، وتولد الضجر بين الغوغاء . وإن تحقيق حرية الكلام قد ولد فى الصحافة غير أن الحكومات لم تعرف كيف تستعمل هذه القوة بالطريقة الصحيحة فسقطت فى أيدينا . ومن خلال الصحافة أحرزنا تقدما وبقينا نحن وراء الستار . وبفضل الصحافة كدسنا الذهب ولو أن ذلك كلفنا أنهارا من الدم : فقد كلفتنا التضحية بكثير من جنسنا وأن كل تضحية من جانبنا تعادل آلافا من الأمميين (غير اليهود) أمام الله" .

ولكن هذا لا يكفى فلابد من وضع تنظيم صحفى لتنفيذ مخطط الإفساد ولذلك فقد تقرر فى البرتوكو الثانى عشر :" .. وفى الصف الثانى سنضع الصحافة شبه الرسمية التى سيكون واجبها استمالة المحايد وفاتر الهمة .. وفى الصف الثالث سنضع الصحافة التى تتضمن معارضتنا والتى ستظهر فى إحدى طبعاتها مخاصمة لنا وسيتخذها أعداؤنا الحقيقيون - هذه المعارضة - معتمدا لهم وسيتركون لنا أن نكشف أوراقهم بذلك " ..

" وتنفيذا لهذه القرارات فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد أوكل إلى اللجنة اليهودية الأمريكية القيام بما يلى :

١- تخطيط سياسة الولايات المتحدة من قبل هيئة فى وشنطن .

٢- مراقبة الصحف والراديو والسينما .. الخ بطرق مختلفة مثل تزويد الصحف بالحقائق واقتراح زوايا خاصة والعمل من المنتجين والكتاب .

٣- مراقبة التفكير لدى اشعب الأمريكى ووسائل التعبير عن هذه الأفكار " ..

وقد نجح هذه المخطط الصحفى فى تشوية التصور الأمريكى للقضية

الفسطينية وفى خلق صورة حضارية زاهية لإسرائيل كممثل للحضارة الغربية .. وفى تقرير لصحيفة :" لوفيجارو " الفرنسية تأكيد لعمق هذا النجاح ومداه فقد جاء فيه :" نحجت الـ ٢٧٤ منظمة يهودية فى إدخال الإعجاب بإسرائيل إلى قلوب الرأى العام الأمريكى ونجحت فى إقناعه بأن من واجبه كمواطن فى أكبر وأغنى دولة فى العالم أن ينظر إلى إسرائيل نظرته إلى " الصغيرة " المهددة من الكبار " ..

٢ـ الفلاح الأمريكى لا يعرف بالتحديد أين تقع إسرائيل ..ولكنه فى نفس الوقت يعرف عنها الكثير ويؤمن بأن إسرائيل هى صورة مصغرة وطبق الأصل من أمريكا . فقبل سنوات لم يكن هناك إسرائيل ثم تدفق فوق أرضها المهاجرون الأوربيون واستطاعوا أن ينبتوا الطماطم فى الصحراء تماما كما سبق أن فعلوا منذ مئات السنين فى أمريكا .

٣ ـ المواطن الأمريكى أصبح يعجب تلقائيا بكل ما تفعله إسرائيل حتى عندما أجمع العالم على الجرائم الإنسانية التى ارتكبها إسرائيل :

ضرب مطار بيروت ، اغتيال قادة المقاومة ، ضرب طائرة الركاب الليبية .. صفق رجل الشارع الأمريكى وهلل لعبقرية إسرائيل ..

٤ـ ما من مرة ذكر فيها " الفلسطينى " أمام قطاعات مختلفة من الشعب الأمريكى إلا وارتبط هذا الإسم فى أذهانهم بالهندى الأحمر ..وما فعله الشعب الأمريكى بالهنود الحمر ينادون بتطبيقة على الشعب الفلسطينى ..

ونسبة كبيرة جدا من الأمريكيين توافق على طرد افلسطينيين من المنطقة حتى يفسح الطريق أمام " التقدم "، والعلم والرفاهية " ..

وكذلك أفسدت الصحافة الصهيونية الفكر الأمريكى فى نظرته إلى نفسه وإلى غيره .

وكمثال على ما اجترمه اليهود فى حق الشعوب بإفساد فكرها عن طريق

البدع المذهبية وما يقال له بالتحرير فى الفكر والحرية والجدل ـ نجد ذلك المثال فى المجر حيث تجلت الالاعيب الصهيونية وجهودها فى تنفيذها . .ونترك المجر لتقص علينا ما فعله اليهود بها وذلك على لسان :" جيروم ، وجانتاروا " فى كتابهما :" شعب إسرائيل عندما يحكم " . . يقول المؤلفان :" وفى بودابست أحاط بعض المثقفين والراديكاليين والماسونيين والإشتراكيين ، جلهم من اليهود وكانوا جميعا يتعاونون فى إصدار مجلتين كان لهما نفوذ عظيم فى المجر منذ خمسة عشر عاما . إحدى المجالات الإجتماعية تدعى :" القرن العشرين " ، أخذت على عاتقها نشر أحدث الأفكار التى تتعلق بتنظيم المجتمعات . والثانية أدبية تدعى :" الغرب " ، آلت على نفسها التعريف بأحدث ثقافات أوروبا الغربية . وكان يمول هذه المجلة شاب يهودى من أسرة ثرية يدعى :" لويس هاتفانى " . وقد عمد هو وأصدقاؤه تحت ستار بث الأفكار الحديثة إلى قطع كل علاقة بالتقاليد الفكرية والأخلاقية التى كانت تجعل من المجر بلدا زراعيا قديما نبيلا يتعلق بريفه . وكانوا جميعا يعكسون الروح اليهودية ومثلها الأعلى المحموم وثورتها الغريزية على طرق التفكير والشعور التى كانوا يكرهونها هم وأجدادهم منذ ألفى سنة . وقد انضم مجهودهم الفكرى إلى نشاط رجال البورصة والأعمال فجعلوا من بودابست مستودعاً واسعا للمصالح والأفكار اليهودية حيث كانت الفكرة القومية الحقة " .

وإذا ينظر اليهود إلى الفكر كسلعة من السلع فهم لا يقدمون منه إلا الغث لان تصورهم نفسه ممسوخ لا يتكون إلا من الشائعة العقيم غايته تحطيم روح الحياة فى نفوس الأحياء من الناس . . وفى ذلك يقول الكاتبان :" . . . وقاموا كذلك بترويض عقليتنا لتحاكى الغرب لأن الفكر فى نظرهم صفقة تجارية ، عملية رابحة كاستغلال " ماركة " سيارة أو آلة حياكة غير أنهم لا يقدمون لنا إلا صورة ممسوخة من الغرب كما أنهم ليسوا إلا صورة كاريكاتورية للمجرمين" . .

وإذ ا كانت عمليات إفساد الفكر وإسقاهم الذوق وهتك النسيج الإجتماعى للأمة بأن يزينو للناس سوء أعمالهم بوسائل خبيثة ماكرة - إذا كانت تلك العمليات هى الجانب النظرى للتآمر اليهودى فإن هناك الجانب العلمى وهو جانب له خطورة من نوع خاص . ذلك أن اليهودية إذا كانت تهدف إلى تحطيم الشعوب بإفساد الفكر والأخلاق أولا فى السيطرة عليها فإنها - أى اليهودية - تعتمد أيضا على " الحرب الساخنة "، كما يقال ، وذلك بتدبير الحروب وإشعال نيرانها مع التعاون مع المتحاربين وكان الأمر ليس من صنعهم ولا يدلهم فيه ..وقد جاء البرتوكو الأول :" ... ويجب أن يكون شعارنا : كل وسائ العنف والخديعة .. يجب أن يكون العنف هو االأساس ويتحتم أن يكون ماكرا خداعا .. إن العنف الحقود وحده هو العامل الرئيسى فى قوة الدولة . فيجب أن نتمسك بخطة العنف والخديعة لا من أجل المصحة فحسب بل من أجل الواجب والنصر أيضا " .

والتزاما بمبدأ المخادعة إشعالاً لنيران العنف الحقود فقد خادع اليهود النازية والفاشية والشيوعية وإن كان هؤلاء صانعوا اليهود واتخذهم أداة لتحقيق أغراضهم .. فالنازية استعانت باليهود من أجل القضاء على اليهود الذين لا ينسجمون مع الصهيونية .. وفى مقابل ذلك قامت النازية بتسهيل مرور بضعة آلاف من اليهود إلى فسطين .

وما نظرت الصهيونية إلى النازية إلا على أنها المدفع الذى يدك لها القواعد الوطنية لكى تتهيأ لها فرصة السيطرة على العالم . قال " ب .ر . مارسون "، و"بورج جنين " فى كتابها :" مؤامرة فلسطين " :" قال هتلر أشياء كثيرة ضد التحكم اليهودى ولكنى أتمسك بأن مجمل تصرفاته يتاقض جميع أقواله . والأرجح أنه العامل الأقوى الذى يقوم زعماء اليهودية العالمية بمحاولتهم الأخيرة للسيطرة على العالم " . وخادع اليهود الفشية فى عهد موسولينى .. فلكى

يدمروا إيطاليا اقتصاديا واجتماعيا فإنهم حرضوه على غزو الحبشة وتكفله " آل روتشيلد " بتمويل الحملة .. وحتى يسيطر موسولينى على الحبشة وينفذ سياسة العنف الخبيث بها فإنه جعل خبيره فى شئون الحبشة يهوديا .. وقدر الفاشيون جميل اليهود فردوا إليهم الصنيع بأجزل منه ، فنادوا بضرورة إقامة دولة صهيونية فى فلسطين .

قال الصحفى الإيطالى " زيف " : " قبل أن تطرد الحوادث إلى الوضع المزرى ونكون ذيلا لألمانيا كان موسولينى مدافعا عن الدولة الصهيونية وفى ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٤ طالب " البوبولود تياليل " بخلق دولة يهودية حقيقية فى فلسطين وأشار إلى أن الوطن القومى لا يمكن أن يعنى إلا هذا ولا شئ سواه " .

وامتطى اليهود صهوة الجواد الشيوعى وجاسوا به خلال الديار ، بل إنهم شاركوا فى استثارة جموح هذا الجواد . فقد كان الزعيمان الصهيونيان " : حاييم وايزمان " . "وبوريس بون شوف " ضالعين فى التخطيط للثورة الشيوعية . وبعد نجاح الثورة تعاون اليهود مخصلين مع هيئة البوليس السرى للجمهوريات السوفيتية .. وكما استطاعوا أن ينفذوا إلى خلايا الجاسوسية فقد نفذوا أيضا إلى مراكز القيادة بالجيش السوفيتى فكان منهم قادة كبار وذلك كالجنرا ل : " زريناكوفسكى " من كييف . وقائد الفرقة " چاكوب أو شركريزر " أحد الذين حققوا انتصاراً فى سفستبول ... وأكثر من هذا دخل اليهود بيوت الزعامة الشيرعية ، فكان ستالين يحيط نفسه بأفراد من عائلة : " كاجانوفيتش " - عائلة زوجية - أقوى العائلات اليهودية فى روسيا .. وكانت اللغة اليديشية - وهى لغة يهودية ، هى لغة الحديث فى بيت ستالين ، ومن قبله فى بيت لينين . وما لنا نذهب بعيدا ؟ أليس مؤسس الشيوعية كارل ماركس يهوديا ؟ ! أو تكون الصهيونية إذن شيوعية ؟

جاء فى صحيفة :" الصحافة الحرة " التى كانت تصدر بلندن عام ١٩٣٧ :" الصهيونية والشيوعية لا يفترفان ..والطابع الرئيسى للإستعمار اليهودى فيما بعد الحرب فى فلسطين كان يتسم بإقامة المستعمرات الجماعية الشيوعية للصناعة والزراعة " ..

وقد وصفت طريقة الحياة بهذه المستعمرات فى صحيفة :" النشرة الصهيونية "، لسان حال الاتحاد الفيدرالى الصهيونى للدكتور وايزمان :" وليس من المبالغة القول بأنها شيوعية بدرجة أعظم من الاشتراكية السوفيتية وليس فى مكان آخر بالعالم تشترك الصهيونية مع الاشتراكية فى مظاهرها المختلفة " ..

ومن الشيوعية إلى النقيض .. إلى الرأسمالية الغربية بصولتها وجبروتها . فلقد هاجر اليهود من قديم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وضربوا بجذورهم فى مدنها الكبرى وشيئا فشيئا سيطروا على مقدراتها الإقتصادية والسياسية والفكرية . وقد شعر بعض السياسيين بما يمكن أن تجره علاقة الصهيونية بالزعامة الأمريكية على االعالم من مصائب ، ومن هؤلاء السفير البولندى فى واشطن :" كونت جيرسى بوتدكى " . فقدبعث بتقرير إلى حكومته فى يناير ١٩٣٩ ، ينبه إلى خطورة الصهيونية ؛ ومما جاء فيه :" ونظرا لأن الصهيونية العالمية تهتم بمصالح جنسها فإن دور الرئيس روزفلت " المثالى " كبطل لحقوق الإنسان يعتبر فى الواقع لقطة بالنسبة لها . فبهذه الوسيلة استطاعت اليهودية أن تنشئ لها مركزا خطيرا فى العالم الجديد لا لبث بذور الكراهية ولعداء فحسب ، بل نجحت أيضا فى تفرقة العالم إلى معسكرين متضادين ..والمشكلة كلها تعالج بأعجب وسيلة ..فإن روزفلت قد خولت له السلطة التى تمكنه من تنشيط السياسة الخارجية الأمريكية لكى يخلق فى نفس الوقت احتياطيات ضخمة من الأسلحة لحرب مستقبلية يعمل اليهود متعمدين على إشعالها " .

واشتعلت الحرب العالمية الثانية واليهود موزعون بين الجبهتين المتعاديتين ، يخدمون هذه وتلك ولا يبالون بما يصيب الشعوب من كوارث . فجندوا من بينهم فيالق تعمل فى صفوف الإنجليز والأمريكيين ، وجواسيس يعملون فى دوائر المخابرات ، وهم فى ذلك يفاخرون بما قدموه للحلفاء . ولقد جاء فى نشرة أصدرتها الوكالة اليهودية بلندن فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ : "إن العامل البارز فى حرب الأعصاب وجمع المعلومات الحيوية لمخابرات الحلفاء قد تم إنجازه بالتعاون اليهودى ليس لأجل الشرق الأوسط فقط ولكن لأجل النمسا والمجر ورومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا أيضا وكثير من النشرات التى أسقطها رجال الطيران فوق أوروبا كانت تعد فى فلسطين التى أصبحت فى سنة ١٩٤٠ : ١٩٤٣ ، أهم مراكز للمخابرات بالنسبة للولايات المتحدة . ومنذ عام ١٩٤١ ، كان يزداد عدد من يعد من اليهود بواسطة مخابرات الحلفاء والمخابرات الأمريكية فى إدارات الحلفاء الإستراتيجية " .

ثم أعلن الحلفاء أن قد اندحر النازى ووضعت الحرب أوزارها .

وانتهز اليهود ما يعقب الحروب من فوضى واضطراب وتوزع للنفوس فقاموا بافتك عمليات السلب والنهب والقتل وانتهاك المقدسات والشعائر الدينية . وكل ذلك فى تحرك سريع محموم . وإن نظرة واحدة إلى مجموعة الأخبار التى أوردتها جريدة " ستاردى إيفنخ بوست فى ١٦ يناير ١٩٤٦ ، لتدل فى تلاحقها على طبيعة النفسية اليهودية ؛ فقد جاء فيها : " التهجم الصهيونى على الشعائر المسيحية يستمر سقوط حكومة تشرشل - لورد روتشيلد ينضم للعمال المنتصرين - المستر هارى ترومان يرافقة إلى بوتسدام - المستر بنيامين كوهين من الإتحاد الفلسطينى - خطة السلب والتدمير الموضوعة بعناية ضد سكان أوروبا المسيحيين تستمر بتوجيه اليهود المتخفين فى ستار ضباط أمريكيين أو روس أو بريطانيين أو موظفين للإغاثة الدولية ولديهم مساعدون من

غير اليهود - صفوف الإرهابيين تزداد بسيل مستمر من اليهود القادمين من أوروبا المحتلة بالسوفييت - الإسراع فى إبعاد الصبغة المسيحية عن الأراضى المقدسة نتيجة لذلك " . .

وتحت دواخين الحرب والدمار ينشد اليهود إقامة حضارة خاصة بهم . .

لقد قالوا فى البرتوكو الخامس عشر : " إن حضارتنا الجديدة يجب أن تقوم بواسطة عالم مشتعل بالحروب وهى بلا شك ستبنى بهذه الكيفية وهذا ينطوى على الإلغاء التام للحقوق المدينة واستعادة العيار الذهبى ونظام الدين . . وإزالة بريطانيا من المعنى الثقافى واستبدال المثل اليهودية الأمريكية بها . وإقامة الدولة الصهيونية فى فلسطين كمركز جغرافى للرقابة العالمية وفى نيريورك كمركز للرقابة العالمية المالية " . .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

الا إن الاحتقار حليف الادعاء ، مما احتقر إنسان إنسانا إلا وادعى عليه تمايزا فى ناحية أو عدة نواح . . وكذلك عداء اليهود : حقد عضود ، وادعاء كنود ، واحتقار ليس بعده احتقار . . فاى احتقار أنكى من اتهام الغير بأنه قد جرد من ميزة اقدرة على القهم ، أى جرد من العقل ؟

إن هذا الاحتقار هو ما يتهم به اليهود العالم كلٌ ، فهل هناك ما هو أبشع من هذا الاتهام ؟ وهل هناك ما هو أحقر من هذا الاحتقار؟ جاء فى البرتكول الخامس عشر : " . . . وعقل الأممى - لكونه ذا طبيعة بهيمية محضة غير قادر على تحليل أى شئ وملاحظته فضلاً عن التكهن به . .

مما يؤدى إليه امتداد حال من الأحوال إذا وضع فى ضوء معين " . .

ومثل هذا القول المؤسف الذى يزدرى العقل البشرى إلى هذا الحد يستحيل

أن يلتقى مع الغير على خير أبدا .. فأن يجعل اليهود العقل البشرى " ذا طبيعة بهيمية " ، معناه فقدان الرجاء فى لقاء إنسانى بينهم وبين غيرهم من بنى آدم ..لكن من هذا الذى أنعم على اليهود بهذه النعمة ؟ إنهم يتخرصون فيقولون :" الله " ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا .. جاء البرتوكول الخامس عشر :" وهذا الاختلاف التام فى العقلية بيننا وبين الأمميين هو الذى يمكن أن يرينا بسهولة آية اختيارنا من عند الله وأننا ذو طبيعة ممتازة فوق الطبيعة البشرية Super Human Nature حين نقارن بالعقل الفطرى البهيمى عند الأمميين " .

وهذا العقل البهيمى له عند اليهود صفات معينة ؛ فهو لا يعمل إلى فى المحسوس ، أى لايعمل إلا فى المادة الجاسدة .. أما مايسمو على المادة من مسائل الفكر فإن العقل المادى لا يمكنه أن يبلغ هذه المكانة . إنه عقل غريزى جامد ـ منذ آلاف السنين ـ على أفعال سلوكية لا يخرج عنها ولا تستطيع طبيعته أن تتفوق عليها أو تغير شيئا منها . فحياته رهينة بغرائزه ، وغرائزه ثابتة : أمسها كيومها ويومها كغدها .. ليس عندها : لماذا ؟ أو كيف ؟ إن أصحاب هذا العقل من الأمميين كما يقول البرتوكول السابق :" يعاينون الحقائق فحسب ، ولكن لا يتنبأون بها وهم عاجزون عن ابتكار أى شئ وربما نستثنى من ذلك الأشياء المادية .ومن كل هذا يتضح أن الطبيعة قد قدرتنا تقديرا لقيادة العالم وحكمه " .

ولو أن هذه الطبيعة اليهودية الممسوخة راجعت نفسها ـ وإن كان ذلك عسير على الجحود العنصرى الحقود ـ لعلمت أن الحضارة الإسلامية وحدها هى التى علمتها كيف تفكر ، وكيف تتنبأ ، وكيف تبتكر .. وليسأل اليهود أنفسهم : أين كانت عبقريتهم يوم أن كانوا يعانوا اضطرابا عقائديا وفوضى دينية يوشك فيها الدين أن يختفى إلى الأبد لولا أنهم تعلموا من الفلسفة الإسلامية كيف يؤسسون القواعد اللاهوتية ..ولولا أنهم أفادوا من " علم الكلام " بحججة الدامغة ودقائقة البينة التى تدحض الادعاء والتمويه وتجعل الفكر نهجا لا عوج

فيه ولا أمت؟ وأين كانت العبقرية اليهوددية يوم أن كانت اللغة العبرية عقيمة جامدة غير أهل لأن تكون وسيلة للحياة والفكر فالتمس أحبار اليهود من اللغة العربية العون فأخذوا من قواعدها النحوية والصرفية الأسس التى نظموا بها لغتهم حتى تصير صالحة لتلقى رسالة العلم ؟ .. ولكى يسهل على الناشئة تعلمها كيف يحسون وينفعلون بالحب والحياة فيترنمون فى غزل صوفى بحب خالق الحياة ومنشئ الوجود ؟ .. أين كانت هذه العبقرية غائبة فلا يجد اليهود سوى الغزل الصوفى الإسلامى يتعلمون منه وينظرون من خلاله ؟

تلك مسائل الفكر الكبرى : العقلية المجردة ، والوحدانية المشوقة لمطالعة النور والفناء فيه .. والفكر المبدع المبتكر .. أخذها اليهود من الأمميين لينكروها عليهم بعدها فى صلافة أعمتهم عن الحقيقة فجعلتهم يقولون فى البروتوكول الثانى :" ولم يعد الأمميون قادرين على التفكير فى مسائل العلم دون مساعدتنا وهذا هو السبب فى أنهم لا يحققون الضرورة الحيوية لأشياء معينه سوف نحتفظ بها حين تبلغ ساعتنا أجلها " .

"ولم يعد الأمويون قادرين على التفكر دون مساعدتنا " .. فما معنى هذه العبارة بالنسبة لما وصف به اليهود عقل سائر الناس ؟ معناها أن لعقل الأمميين القدرة على التعلم والاستيعاب .. وبما أن التعلم هو فاتحة الإبتكار والخطوة التى تهيئ إلى استخدام الفكر المجرد فى النظر والتأمل والموازنة التى توحى بالتنبؤ والإبداع ، فإن ادعاء اليهود بأن عقل الأمميين عقل بهيمى ثم العودة إلى الادعاء بأن لدية القدرة علي التعلم هو من باب التناقص الذى يوقع فيه التعصب الحقود الذى يدين به اليهود .

ووسع اليهود هذا الادعاء مستخدمين كل وسائل التزييف وسبل النشر والإذاعة حتى وقر فى أخلاد جماهير عريضة من الناس أن اليهود هم آباء العلوم والفنون والثقافات ، كما أنهم آباء المال ودهاقنة الاقتصاد .

فهم السادة . .وهم الوحى ، وهم الروح ، وما الأمميون سوى ظواهر وأصداء .

ومن الحقائق التى يجدر بنا أن نعلمها ونكون على يقين منها كى نبعد عن أنفسنا غشاوة الوهم ونحمى أنفسنا من خداع التخرصات اليهودية ومالها من بريق يغرى بالإقناع والإيقاع فى حبالته . . .

● من هذه الحقائق : أن اليهود فى شتى المواطن الحضارية التى ارتادوها مرغمين كانوا تابعين لثقافات تلك المواطن يأخذون بغير أن يقدموا شيئا جديدا وذلك من طبيعة السمسرة التى مردوا عليها منذ أن عرفهم التاريخ .

● من هذه الحقائق أن اليهود نشأو على مشارف الأمم يأخذون نفاياتها من المال ونفاياتها من العلوم والفنون والأخلاق . . والنفايات الحضارية فى جملتها أساطير وتجديف .

● من هذه الحقائق : أن اليهود فى تاريخ الفكر الحديث كانوا عالة على الشعوب ويكفى فى ميدان الفلسفة أنه لم ينبغ نابغ عالمى سوى باروخ سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧)، ولم يؤهله إلى هذه المرتبة سوى دراسته لابن ميمون ، وابن عزرا ، وهما من تلاميذ المدرسة الرشدية .

● من هذه الحقائق : أن نبوغ اليهود فى العلوم الطبيعية والرياضيات ، كان مسبوقا بنوابغ الأمميين الذين مهدوا لهم الطريق فأخذوا عنهم ناسبين الفضل لأنفسهم متناسين فضل من علموهم وسبقوهم .

● من هذه الحقائق : أن جوائز الآداب التى نالها بعض اليهود لم يكن لعبقرية خارقة بلغوها ، ولم يكن لشئ جديد أتوا به فى أصالة تغنى الفكر الإنسانى . ولكنهم منحوها بغير أن يبلغ تراثهم شيئا ذا قيمة يعتد بها إن لم

يكن ساقطا فاحشا . ولكن التآمر اليهودى والدعاية اليهودية المصاحبة تخلقان العبقرية وتراثها بين أصداء التهليل والتكبير .

● من هذه الحقائق : أنه ما من لون من ألوان الآداب وما من تيار من تيارات الثقافة الغثة الخبيثة المدمرة للأخلاق والداعية إلى الانحلال - لا نجد شيئا من هذا إلا كان أصحابه ومبدعوه وناشروه والمهللون له والممتدحون يهودا أو من صنائع اليهود . واليهود فى هذا صادقون مع أنفسهم أمناء على ما تعاهدوا عليه ؛ فقد جاء فى البرتكول الرابع عشر : " وقد نشرنا فى كل الدول الكبرى ذوات الزعامة أدباً مريضا يغثى النفوس " . .

● من هذه الحقائق : أننا لو فتشنا عن مصدر كل دعوة تحررالسلوك من كل خلق ، وتحرر النفس من كل ضابط يحفظ عليها قوتها ووحدتها وتحرر الجسد من كل لباس يكرمه ويصونه من غوائل العيون ونزغات الجوع الجنسى - لوفتشنا عن أصحاب تلك الدعاوى الداعرة وجدناهم يهودا ، يقول البرتكول الثانى : " لقد أقنعنا الأمميين بأن مذهب التحررية سيؤدى بهم إلى مملكة العقل " . . ويساند هذا القول ما جاء في البروتكول العاشر : " فإذا أوحينا إلى عقل كل فرد بأهميته الذاتية فسوف ندمر الحياة الأسرية بين الأمميين ونفسد أهميتها التربوية " .

● من هذه الحقائق : أن اليهود عاشروا - ويعاشرون اليوم - أمما شتى ، فلو أنهم كانوا سباقين إلى الابتكار والإبداع ، روَّاداً للأمميين فى مجالات العلوم والفنون والآداب لبرز منهم من العباقرة أضعاف ما تخرجة أمة من الأمم الكبيرة . ولكنهم لا يقدرون على تكاليف العبقرية ولا يصبرون على كفاحها الإنسانى فطبيعتهم العنصرية الحقودة لا تؤهلهم لرسالة إنسانية عالمية .

ويبلغ تبجح التزييف اليهودى غاية مداه حين يصر اليهود على ادعاء أن

الثورات الإجتماعية والفكرية الكبري من صنع أيديهم وإحكام تدبيرهم . فالثورة الفرنسية من عملهم ، جاء فى البروتوكول الثانى : " تذكروا الثورة الفرنسية التى نسميها " الكبرى " ، إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروفة لنا جيدا لأنها من صنع أيدينا " .. ثم يقولون إن شعار الثورة الفرنسية من تأليفهم وإن غايتهم من وضعه هو تحطيم الاستقرار وفصم عرى التآلف الإجتماعى ؛ جاء في البروتوكول الأول " : إن صيحتنا " :الحرية والمساواة والإخاء " ، قد جلبت إلى صفوفنا فِرَقاً كاملة من زوايا العالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفلين ، وقد حملت هذه الفرق ألويتنا فى نشوة ، بينما كانت هذه الكلمات مثل كثير من الديدان تلتهم سعادة المسيحيين وتحطم سلامهم واستقرارهم ووحدتهم مدمرة بذلك أسس الدول " .

فغاية اليهود من الحرية ومفهومهم عن الحرية هو إحداث تمزق وتناحر بين القوى المكونه للمجتمع ؛ جاء فى البروتوكول الثالث :" إن كلمة الحرية تزج بالمجتمع فى نزاع مع كل القوى حتى قوة الطبيعة وقوة الله " .

والثورات الفكرية هى كذلك من عملهم وأنه لولا هم لَماَ لاقت نجاحا أو ازدهاداراً . ومع ذلك فهى ثورات قصدوا بها تحطيم الدين ؛ جاء فى البروتوكول الثانى :" .. لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ولا حظوا هنا أن نجاح دارون . وماركس ، ونيتشه ، قد رتبناه من قبل والأثر غير الاخلاقى لإتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهودى) سيكون واضحاً لنا على التأكيد " .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

٢

فتاوى إبادة العرب
أو
عداوة الأزل والأبد

يمكننا أن نعتبر فتاوى إبادة العرب وهى التى جاءت على السنة بعض حاخامات اليهود امتداداً "لبروتوكولات حكماء صهيون " .. وإن كانت أعمق فى دلالاتها ، وأبشع فى مقاصدها ، وأبسط فى أبعادها . وكأنها الترجمة الحديثة للتوراة .

ومن هنا فإننا نقول إن المستقبل الذى ينتظر الأمة العربية والإسلامية يبشر بأخطار جسام ..

فما أجدرنا أن نعى تاريخنا ، ونعى وجودنا .. لنصبح على بينة من أمرنا فلا نخدع بقول ولا نخنع لتهديد ..

حوار يهودى بالمراسلة

● أقتل العرب :

? ما رأى الحاخام فى الآية الواردة فى التلمود :" إن جاء ليقتلك ، فبكر واقتله "، هل فعلا يجوز لى قتل من جاء ليقتلنى ، حتى لو شبه لى أنه ينوى قتلى ؟

● بالطبع هذه الآية عبارة عن شريعة واضحة . لا لبس فيها :" من ينوى قتلك " . أسرع بقتله والخلاص منه " . ومعنى هذا الكلام إذا رأيت لصاً خطيرا بيده سكين أو مسدس فاقتله قبل أن يقتلك . وكذلك إذا رأيت شخصا عربيا وشككت أنه يحمل سلاحا أو عبوة ناسفة . فلا تجازف ولا تخاطر بروحك وأرواح إخوانك اليهود ، وإنما اقتله ، حتى لو كنت مسيطر على الموقف تماما ،

الأفضل أن تريح نفسك وتريحنا منه . واعلم أن القانون الإسرائيلى يتفق مع الشريعة اليهودية فى هذا الشأن

توقيع : الحاخام شموئيل إلياهو

● قتل الأبرياء :

? سيدى الحاخام عوزيئيل إلياهو ، بعد التحية : شاهدت فى الأكاديمية التلمودية العليا (أليشيفا) هذا الأسبوع فيلما يعرض عملية عسكرية قام بها مجموعة جنود أمريكيين ضد جماهير إسلامية ثائرة خرجت فى مظاهرة حاشدة ضدهم ، وكان بين الجماهير نساء وأطفال وعجائز ، وبضعة أفراد مسلحين وصدرت أوامر لجنود الأمريكان بقتل المسلحين وفعلوا ذلك لكنهم قتلوا أيضا نساء وأطفال وشيوخ ، وسؤالى ، هل تبيح اليهودية قتل الأبرياء ؟ وكيف أتصرف إذا تعرضت لموقف مشابه مع الفلسطينيين ؟

● تحية طيبة وبعد ، سؤال صعب وضعنى فى موقف لا أحسد عليه ، والإجابة باختصار ، إنك كيهودى متدين يجب أن تدرك أن قواعد اللعبة تتغير تماما وقت الحرب وتغدو فى كثير من الأحيان قواعد مختلفة وشاذة وغريبة فإما أن تقتل أو تموت بسبب تمهلك الزائد عن الحد .

وتذكر أن أبينا يعقوب كان يخاف أن يَقْتل أو يُقْتَل . ولاشك أن سفك الدماء مرفوض لكن قوعد الحرب مختلفة كما تعلم . وفى التلمود : من جاء ليقتلك ، بكِّر واواقتله وراجع فى هذا الصدد فتوى الحاخام الجليل شموئيل إلياهو على نفس المرجع

توقيع الحاخام عوزيئيل إلياهو

●قتل المدنيين الفلسطينيين :

? سيدى الحاخام ، انتشرت فى الآونة الأخيرة الإنتقادات لإيذاء الجار ،

حيث يحتمى جنودنا بشخص فلسطينى برئ ويجعلون منه درعا بشريا للقبض على أحد الإرهابيين (يقصد نشطاء المقاومة) . .سؤالى إذا احتمى إرهابيون فى منزل وأخذوا رهائن مدنية ليغلوا أيدى جنودنا فى إطلاق النار ، هل يخاطر جنودنا بحياتهم ويقتحمون المنزل فيتعرضون لنيران الإرهابيين ، أم يجوز هدم المنزل على من فيه بدبابة مثلا ؟

التوقيع : جندى فى جيش الدفاع

● لا يوجد أى سند شرعى أو دينى للمخاطرة بحياة جنودنا لإنقاذ حياة شخص من الجوييم (الأمم الأخرى) سواء كان شريكا فى العملية أو محتجزا كرهينة ، خاصة إذا علمتا أن المدنيين الفلسطينيين الذين يعيشن المخربون بينهم شركاء فى الجريمة . ويقول الحاخام موسى بن ميمون منذ القرون الوسطى فى تفسيره ما ورد فى العهد القديم . الملوك (٩ - ١٤)

" لقد حق الموت على أهل نابلس " شكيم " الفلسطينية لأنهم لم يشيدوا المحاكم التى تمنع تفشى الشرور " . . وهكذا حق الموت على الفلسطينيين لأنهم لم يواجهوا الإنتحاريين بأنفسهم بل شجعوهم . وقد أجمع على هذا الرأى جمهور الحاخامات حيث قيل : حق الموت على سكان الضفة الغربية وقطاع غزة لأنهم ساعدوا المخربين الذين يعيشون بينهم . فمن لا يهرب . من المناطق التى تفيض بالشر يعد منها . وقد جاء فى سفر صموئيل أول الفقرة ١٥ : " وقال شاؤول إلى بنى القينى أذهبوا من هنا ، اخرجوا من بين عماليق حتى لا أعدكم منهم "

والخلاصة لكل حنود جيش الدفاع :

أ - المدنيون الفسطينيون مدانون بتشجيع الإرهاب

ب - ومدانون بعدم منعه

جـ - لا يجب أن تبتئس فهذه هي الحرب فى كل الدنيا

د ـ كان يجب عليهم الهرب من المناطق المحتلة ولا يسكنوا المخربين بينهم .

وبناء على ما تقدم به لا ترحم فلسطينى ولا تدخل فى زمرة الضالين . . واعلم أن القائد الذى يمنعك عن قتل الفلسطينيين ليس قائداً نبيلاً نفيض نفسه بالتقوى والورع . وإنما جبان مرعوب من وسائل الإعلام . وشعوب العالم . واعلم أن الرب سيقتص لنا منهم دماد أبنائنا وبناتنا والله عفور رحيم .

توقيع الحاخام شموئيل إلياهو

الأطفا العرب :

؟ أنا فتاة أخدم سنتين خدمة وطنية كسائر البنات الإسرائيليات .

وأعمل فى مؤسسة للمساعدات الإنسانية لأطفال مرضى السرطان .

ومنهم أطفال يهود بالطبع . وأطفال عرب أيضا . ماذا أفعل هل حرام على أن أساعد الأطفال العرب ؟

● فى الحقيقة إن أطفال اليهود أولى . لكن فى الشريعة اليهودية ما يبيح مساعدة فقراء بنفس مقدار فقراء اليهود . لكن حذار أن تقتربى منهم أو من أكلهم وشرابهم أكثر من اللازم . فهم وكل ما يلامسونه أنجاس .

الحاخام إيلى كامير

● سرقة الفلسطينيين :

؟ هل يجوز سرقة الأعداء الفلسطينيين ؟ أنا ضمن القوات المشاركة فى حملة الدرع الواقى وأريد إجابة تفصيلية حيث تعجبنى كثير من الأمتعة والأجهزة الفلسطينية هل آخذها ؟

● من الناحية العسكرية : لا يجوز ذلك للحفاظ على سمعة الجيش .ولكن من الناحية الفقهية هناك شرائع تتعامل مع مسألة أموال وممتلكات الأمم الأخرى (جوييم) هناك من يحرم سرقة أموالهم . وهناك من يبيح ذلك .

موسى بن ميمون مثلا يقول : ما يفقده الجوييم من أموال من حقك ولو اعدته فقد ارتكبت ذنبا لا يغتفر لان ذلك يدعم أهل الشر فى العالم .

وهناك سند آخر وجدناه عند موسى بن ميمون فهو تكلم عن المعاملات التجارية قائلا :" خطأ " الجوييم " فى الحساب حكمه كحكم ما يفقدونه . لكن لا يجوز دفعه إلى الخطأ . وما أن يخطئ بنفسه لا ينبغى عليك تنبيهه أبدا .

وحلال عليك ما ربحت منه . ولذلك إذا دخلت بيتا فلسطينيا مهجورا بسبب الحملة العسكرية يجوز حمل ما تريد . ولا تلزمك التوراة بإعادة ما تأخذ بل تنيهك ألا ترتكب هذه الفعلة . أضف إلى ذلك أننا فى حالة حرب وغزو . وقد وعدتنا التوراة أن ندخل هذه الأرض ، وأننا سنجد فى انتظارنا بيوتا تفيض بالخيرات ، وها هى فى انتظارك .

توقيع : جمهور الحاخامات

● السلام مع مصر :

? ما حكم الشريعة اليهودية فى اتفاقات السلام مع الدول العربية والفلسطينيين؟

● السلام فى حد ذاته أمر محمود ، لكن هذا لا يعنى تسليم أراضينا المقدسة للأعداء أبناء إسماعيل . وتقضى الشريعة اليهودية بأن ما يحرره ملك إسرائيل من أرض لا يمكن التنازل عنها البتة ، واليوم تقوم دولة إسرائيل مقام الملك . ومن ثم فالأرض التى يفرط فيها رئيس وزراء إسرائيل يجب استعادتها ، والقصاص منه بتهمة الخيانة . أما الإتفاقية فهى باطلة حين سلم خائن من اليهود أراضى الله للعرب . وعليه لا تلتزم بمثل هذه الإتفاقات التى تخالف نصوص الدين

توقيع الحاخام شلومو أنيرى

● أطفال الحجارة :

? أنا جندى فى جيش الدفاع أتعرض لإلقاء الحجارة من الأطفال

الفلسطينيين. هل يجوز إطلاق النارعليهم ؟

● بالطبع .. ذلك الطفل يعرض حياتك وحياة زمائك لخطر شديد .. كما أنه مشروع إرهابى خطير فى المستقبل القريب ..ولك أن تتعامل معه على أنه عدو خطير وأنت فى موقف دفاع شرعى عن النفس .

توقيع : الحاخام شلومو أنيرى

● التوراة هى الحل :

؟ هل التوراة فعلا هى الوسيلة المثلى لحل الصراع الإسرائيلى الفلسطينى وكيف ؟

● بالطبع باستطاعة التوراة حل جميع المشاكل بما فى ذلك الصراع العربى الإسرائيلى . وذلك إذا درس جميع يهود العالم داخل إسرائيل وخارجها التوراة وطبقوا شرائعها ، والا يبقى يهودى واحد خارج فلسطين . ويعلم الجميع أن الرب تبارك اسمه هو الذى أعطانا هذه الأرض وعلينا أن نقيم فيها .

توقيع الحاخام المناوب بالموقع

● حرب دينية :

؟ ه ما نعيشه اليوم من وضع أمنى متدهور هو حرب دينية ومادور البنات فى هذه الحرب ؟ عينات ٢١ سنة.

● نعم هى كذلك . فما نعيشه اليوم حرب دينية مقدسة . ووفقا لما جاء فى الجمارا - الجمارا هى شروح باللغة الآرامية على نص القوانين الدينية للمشنا ومن المشنا والجمارا يتكون التلمود - فإن البنات يجب أن يشتركن فى القتال وإن اختلف مفسرى المشنا والجمارا فى نوع المشاركة ، هل يشاركن فى القتال ، أم فى دعم المقاتلين .

توقيع الحاخام شاى بيرون

● حل الصراع :

؟ ما هو حل الصراع مع الفسطينين ؟

● الصراع مع الفلسطينيين هو صراع دينى . وطالما لا نتعامل معه على هذا النحو ، لن نتمكن من حله . لا يمكن حل هذا النزاع بالسياسة البشرية . ومن حسن حظنا أن الله يحبنا وعلمنا كيف نتصرف ويجب أن تعلم أن اتفاقية أوسلو الملعونة . تقوم فى الأساس على فكرة ساذجة مفادها أن العرب والمسلمين لديهم قيم يحترمونها مثلنا .. وهذا هو المنطق الذي نسمعه حتى اليوم من رجالات اليسار الإسرائلى السذج . وإذا كنا نريد حلا يجب أن نتعلم الدرس وتعلم أن " الله " الذى يعبده المسلمون ليس سياسيا غريبا يغير رأية وشرائعه وفقا لاستطلاعات الرأى كما أننا يجب أن نؤمن أننا إذا أعطينا دولة للفلسطينيين فإننا بذلك نساهم فى تجهيز مليون انتحارى على الأقل يريدون الحصول على عشرات النسوة فى الجنة الموعودة بعد دفع الفاتورة من دماء اليهود . وعلى هذا يستحيل إبرام اتفاقية سلام مع قتلة الأطفال . ولن ينفعنا جدار فاصل ولا جدار واق . والحل الوحيد مكتوب فى التوراة علينا فقط أن نقرأ الأسفار المقدسة ، وبخاصة سفر يشوع :

يتحدث سفر يشوع عن إبادة العرب وشعوب فلسطين القديمة .

جمهور الحاخامات

● صدقة للعرب :

؟ لقد حرم العلماء التصدق على العرب لأنهم أعداؤنا لكن ماذا بخصوص عرب ١٩٤٨ ، وهم مواطنون فى الدولة ؟ خاصة وأن منهم فقراء يستحقون المساعدة ؟

● من أهم الإضافات التى أتى بها المسيح عيسى بن مريم مقولته الشهيرة :" أحبوا أعداءكم "، لكن موسى قال :" أحبوا إخوانكم "، ولولم يكن العرب

أعداءنا كان من الممكن أن نناقش سؤالك . ومن ينادى اليوم بأن مساعدة العرب على الرغم من أنهم أعداؤنا هو عمل أخلاقى من الدرجة الأولى فهو جاهل متأثر بعقائد دينية مسيحية ليس لنا أى علاقة بها . . علاوة على أنها تشوة عقائدنا .

وعليك أن توجه مساعدتك لزوجتك وأسرتك وفقراء شعبك وبعد ذلك أن تبقى شئ فلا تعطيه للعرب .

توقيع الحاخام يوسيف ثريا

● الإرهاب اليهودى :

؟ أريد أن أعرف رأى الحاخام فى الأعمال الإرهابية اليهودية ضد العرب ؟

● أولا يستحيل أن نسميها أعمالاً إرهابية . .قتل العرب وإبادتهم هى حرب عادلة ، ولا يجب أن ننتظر حتى يقتلونا ، وإذا نفذ الجيش ذلك أو الأفراد اليهود فإنها ممارسات محمودة هدفها خير اليهود وأمنهم .

توقيع الحاخام شموئيل إلياهو

● إعادة أراضى للفلسطينيين :

؟ هل يوضح لى الحاخام موقف الشريعة اليهودية من إعادة الأراضى المحتلة للفلسطينيين ؟

● أيها السائل إذا كنت تسأل عن إعادة المناطق المحتلة فإننى لا أفهم من ذلك سوى أن يعيد لنا الجوييم أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات أو على الأقل من الفرات حتى وادى العريش وبالطبع ياحبذا لو حتى وادى النيل .

أما إذا كنت تتحدث عن تسليم أرضنا لعرب المغتصبين فهذا حرام حرام ، حرام أن نتنازل عن ما وهبا الله إياه ويؤكد ذلك ما جاء فى كتب الحاخام موشيه بن نحمان . وكتاب :" نور الحياة " الذى تؤكد كل فقراته أن الله وعد إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأرض إسرائيل وإذا كنت تريد رأيى فأنا أتبنى مبدأ الأرض

مقابل الأرض . بعبارة أخرى فى إسرائيل ملايين اليهود الذين تركوا بيوتهم فى مصر واليمن والمغرب وتونس وبغداد ، والهند . فيذهب الفلسطينيون إلى هناك وسيجدوا مأوى بكل تأكيد . .

وقد ورد فى سفر العدد الإصحاح الثالث عشر :" ورثتم الأرض وأقمتم فيها وقد منحتها لكم لتعمروها

توقيع الحاخام يوسيف الناكفا

● كيف يتمتع العرب ببلادنا ؟

؟ يقول المفسر العظيم راشى أن الله قرر ألا يتمتع غير اليهود بخيرات فلسطين . . كيف تفسر هذا فى ضوء حياة العرب فى أرضنا ، واستمتاعهم بها أكثر منا أحيانا ؟

● إنهم يعيشوب هنا ويستمتعون بخيراتنا بسببنا نحن ، نحن الذين نمنحهم المال والحياة الهانئة ، وفرص العمل والحكم الذاتى والسلاح والعلم ، والمكان . وكل شئ . . وبيدو أن هذا يؤلمتى أنا أيضا . . ما الحل ؟

الحل أن نصلى ولا نسكت على هذا . . نواجههم ولا تيأس إو نضعف حتى نطردهم تماما من هنا . . وأعلم أننا سننجح فى النهاية .

توقيع الحاخام عوزيئيل إلياهو

معاملة الجوييم :

؟ هل حقا اليهود أفضل من سائر البشر لأنهم الشعب المختار ، وإذا كان الأمر كذلك فإن حياة اليهود مفضلة عن حياة العرب ، حتى الأبرياء منهم ، ولأننا لا نريد أن نكون كالنازيين لماذا لا تدعوا فى خطبك ودروسك لطرد

العرب من البلاد على الأقل ؟

● بعد التحية ، لقدتحدثت عن عدة نقاط ، ويحدثنا كتاب الخرزى عن مزايا الشعب اليهودى ويقسم العالم إلى خمس درجات أو مراتب ، أدناها الجماد . ثم النبات . ثم الحيوان . ثم الجوييم (غير اليهود) . ثم المرتبة العليا يأتى فيها اليهود . ويختلف اليهود عن غيرهم بروحهم الإلهية . ودورهم الإلهى فى العالم ونحن لا نوافق على قرارات الحكومة الإسرائيبية وإن كنا نحترمها . والفرق بيننا نحن الحاخامات وبينهم أنهم يعبرون عن آرائهم أما نحن فنعبر عن رأى التوراة ويجب على الجميع الانصياع لها

توقيع شموئيل وجمهور الحاخامات

● عرب ٤٨ :

؟ الحاخام شموئل إلياهو : عرفنا كيف نتعامل مع العرب الفلسطينين والمسلمين ، لكن كيف نتعامل مع عرب ٤٨ الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية ؟

● أولا ، ليس معنى أنهم عرب يحملون الجنسية الإسرائيلية أن تعاملهم بشكل مختلف فالجنسية لن تغير طباعهم الشريرة . .وفى النهاية يقول الباحث الإسرائيلى :" بارى شميمش " فى كتابه :" سقوط إسرائيل " : إن اليهودى المتدين يستقى مواقفه عادة من مصدر أساسى وفاعل فى تركيبته النفسية والإنسانية وهو التراث الدينى اليهودى بكل ما يحمله من مضامين واتجاهات ومقولات . لا يستطيع التعامل معها بشكل مباشر لذلك يعتمد على الحاخامات فى فهمه للنص الدينى . . هذا الفهم الذى يتحول فى وقت اللزوم إلى آليات

● هذه الترجمة أعدها الصحفى الأستاذ / محمد عبود ، صحيفة " صوت الزمة " ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٢

عمل فى مواجهة الواقع . ولا يختلف اثنان على قوة القطاع الدينى فى إسرائيل وتأثيره فى مجريات الأمور .

٣
الجريمة المقدسة
أو
المحارق النــازية

أصح ما يقال عن الطبيعة النفسية اليهودية ، أنها طبيعة مشكل تتجسد على سخائم نفسية شديدة الاختلاط والتعقيد بحيث يعسر في كثير من الأحيان تصورها فى إطار نفسى سوى له خصائصة السوية التى يلتقى فيها مع الغير التقاء وفاق أو التقاء خلاف لكنه لا ينقلب إلى إضمار خالص للعداء .. لكننا نشاهد فى كل ما عرضناه أن لليهود طبيعة نفسية خاصة يتفردون بها على العالمين ..وإنها طبيعة الإحساس المتعالى بالاضطهاد الذى اتخذه سلعتهم فى الاتجار والسمسرة .. ومن العجيب أن اليهود بوأوا ذلك الاضطهاد المقام الأسمى للقداسة ، ومن ثم فهم شعب مقدس ..

ومن العجيب أيضا أنهم شعب جعل المال إلهه ، والمال خلقه ، والمال حربه ، فإن ذهب تفكيره إلى أبعد من ذلك فإنما هو لإضفاء القداسة على كل ما خرج ويخرج ..ومن الذين أوضحوا إيضاحا يسيرا هذه الطبيعة اليهودية الكاتب الروائى الصهيونى : " جوزيف حاييم برنز " (١٨٨١ - ١٩٢١) ؛ فقد قال :" إن تاريخ اليهود ما كان حربا طويلة من أجل حفظ قدسية الدين اليهودى .. إن تلك المئات من الأجيال لم تعش من أجل تقديس أسم الله ، لكن من أجل خطط لإنجاز أعمالهم التجارية التى يتطلبها منهم الجمهور العام من أجل فائدتهم

.. لقد كانوا يحيون لصيانة أموالهم وزيادة سعر الفائدة وليصونوا أنفسهم فى وجه التعميد " ..

ثم قال : " إن مهمتنا الآن هى أن نعترف بوضناعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا وبكل نقائص شخصيتنا " .. ثم وصف الشعب اليهودى فقال : " إنه شعب لا يعرف سوى الأنين والاختفاء حتى تهدأ العاصفة .

يدير ظهره لإخوانه الفقراء ، ويكدس دراهمه ويتجول بين الجوييم ليؤمن معيشته بينهم ثم يقضى نهاره يشكو من سوء معاملتهم له " .

هكذا .. هكذا .. إن اليهودية الصهيونية تعمل عن عمد وإصرار على تغيير الحقائق بادعاءات أخرى تجعل لها الصدق الكامل ، وتنكر ما كان صادقا ولا تشير إليه .. تثور ثورة عاتية لكل ما تريد إشاعته وكأنه الحق الذى يريد الغير أن يغتصبه .. ثم إن لديها الإستعداد التام للمهادنة والتكوص والإنكار ..

وإن من الاتهامات التى شغل اليهود العالم بها ، وهددو ابها ولا زالوا إلى اليوم ، هى ما تعرضوا له من إبادة لم يكن لها مثيل فيما يزعمون فى تاريخ البشرية .. ومن لم يسلم بهذه الإبادة فهو عدو لليهود ، عدو للصهيونية ..

ومن تشكك فى إبادة اليهود ، فهو عدو لليهود ، عدو للصهيونية ..

ومن جاهر بالإنكار فهو أعدى أعداء اليهود حقت محاكمته أمام المحكمة المختصة بذلك ليلقى جزاءه .

إن كل ما عرضناه من تاريخ اليهود من مستهله إلى اليوم لا يسفر عن شئ إلا أن حياتهم تزييف فى تزييف ، وادعاءهم لقداسة تخرج بهم عن زمرة الآدميين وتدخلهم فى شراهة ضارية للانقام من الغير بالإيقاع به بإفساد عمله أو بالقضاء عليه بسفك الدماء .

وما هى الغاية أو الغايات اتى يسعى إليها اليهود ؟ إلى متى يظل ذلك الاتهام قائما ؟ وإلى متى يظل فى حدته وبأس سطوته ؟

حين نستهل حديثنا بالكلام عن هذه الأكذوبة المقدسة - فى زعم اليهود - نجد أن ثمة ثلاثة مصطلحات تومئ إلى ما تعرض له اليهود من الألمان . . والمصطحات الثالثة هى :

١- الإبادة الجماعية :**Genocide**

٢ - الهولوكوست :Holocauste

٣ - شواء :Shoah

وهنا يقفز أمامنا هذا السؤال : هل نزلت باليهود إبادة جماعية إبان الحرب العالمية اثانية ؟ . . وباستطلاعنا لمعجم" لاروس " نجده وقد عَرَّف مصطلح :" الإبادة الجماعية " على النحو التالى :" إن الإبادة الجماعية هى القضاء على جماعة عرقية بشكل مخطط ودءوب بإفناء أفرادها " .

وبالبحث التاريخى فى هذا المصطلح نجد أنه لا ينطبق إلا على حالة واحدة . تلك هى غزو يشوع لبلاد كنعان حيث لم يسلم إنسان من حد سيفة فأفنى الكنعانيين عن آخرهم . . أما عن موقف هتلر من اليهود فقد كان يمقتهم وينقم عليهم بدافع من نظريته العنصرية التى كانت تومن بأن العرق الآرى " هو خير الأعراق وأنبلها جميعا وما كان اليهود بعرقهم السامى على شئ من النبالة أو الرفعة يزيد على هذا أن كان هناك ثمة توافق بين اليهود والشيوعية التى كان يعتبرها من ألد أعدائه . ولَمَ لا تنشأ هذه العداوة ؟ أليس مؤسسها يهوديا ؟ ولم لا تنشأ هذه العداوة ؟ أليست الشيوعية مؤلفة من جماهير الرعاع أو البروليتاريا ؟ لذلك فقد أطلق هتلر على الجانبين مصطلح :" البلشفية (أو الشيوعية) اليهودية " .

وللتخلص من اليهود الذى كان يعتبرهم هتلر علة كل بلاء وأقذر أجناس البشر فإنه عمد أولا إلى إبعادهم فهجَّرهم إلى مناطق قصية . وعندما نشبت الحرب (العالمية الثانية) فإنه أقمعهم فى معسكرات اعتقال أقامها فى ألمانيا خصيصا لهم . ثم اعتزم حسب خطة واقفته أن يهجرهم إلى مدْغشقر لتكون بمثابة " جيتو " خاص بيهود أوروبا ولكنه مشروع لم يتم ، أثناءها تمت عمليات ترحيل اليهود إلى جهة الشرق حيث بولندا التى احتلتها القوات الألمانية وهناك انضموا إلى السلاف والغجر ليعملوا جميعا فى مشروعات الإنتاج الحربى . .ولقد تعرض اليهود أثناء ترحيلهم إلى أن يهلك عدد كبير منهم . .وفى معسكرات الاعتقال مات الكثيرون أيضا بسبب الأوبئة التى تفشت بينهم لاسيما التيفوس .

فإذا كان ضحايا الحرب العالمية الثانية قد وصلوا إلى ما يقرب ٥٠ مليونا من البشر كان من بينهم ١٧ ملونا من السوفييت وتسعة ملايين من الألمان . . فى نفس الوقت فقدت بولندا ومعها كثير من الأقطار الأوربية التى وقعت تحت الاحتلال الألمانى ملايين من القتلى فضلا عن الملايين التى فقدتها كثير من البلدان الإفريقية اتى زج بها وقوداً للمعارك . . ولكن تلك الملايين لم تكن شيئا مذكورا وطمس عليها عمدا وقد تواطأ اليهود وقادة القوات الغربية على تحقيق ذلك الطمس لكل هدفه وغايته . فقد كانت غاية اليهود أن يزكوا أنفسهم فإذا التزكية عواء فأشاعوا أن اليهود هم وحدهم الذين تحملوا وطأة الحرب العالمية الثانية . . فأبيد منهم الملايين سواء فى المحارق وأفران الغاز أو فى الغازات الجوية التى كانت تنطلق على الأراضى الألمانية . .وكان غاية الحلفاء أن يبرئوا أنفسهم من االملايين التى قتلوها فى أمريكا فى مستهل احتلالهم لها وكذلك الذين سفكوا دماءهم من سكان إفريقيا سواء فى استعمارهم لها أو عندما زجوا بهم

فى المعارك أو عندما رحلوهم إلى أمريكا ؛ ا للعمل بها .. هذا فضلاعن إلقاء ستار كثيف عما اقترفه ستالين من مجازر فى حق الشعوب السوفيتية لاسيما المسلمة فقد قتل من المسلمين ما يقرب من خمسة عشر مليوناً من المسلمين ..وأيضا وجدها الأوربيون فرصتهم للتخلص من تهمة القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا على اليابان . فقد قال تشرشل فى كتابه :" الحرب العالمية الثانية ":" ليس صحيحا القول بأن القنبلة الذرية هى التى حسمت مصير اليابان " .. وأيضا قال القائد العسكرى الأمريكى :" وليام ليهى " فى كتابه :" كنت هناك ": فى رأيى أن استعمال ذلك السلاح الوحشى فى هيروشيما ، ونجازاكى لم يكن عظيم الأثر فى الحرب ضد اليابان " ..

وهكذا كل طرف كان يلقى بدخان كثيف على ما احترمه فى حق الشعوب وبذلك ترك الجميع خشبة المسرح لليهود ليجسدوا أكذوبتهم الكبرى التى أصبحت حسب ادعائهم الذى روجوا له :" أكبر عملية إبادة جماعية فى التاريخ " ..

وفى هذه السياسة المقصودة يقول رجاء جارودى :"وهكذا فقد [1] كانت دعاوى :" غرف الغاز " ، و" الإبادة الجماعية "،" والمحارق " فرصة سانحة لأولئك القادة الذين كان يجدر بأى محكمة دولية حقيقية مؤلفة من بلدان محايدة أن تضعهم فى قفص الإتهام مع مجرمى الحرب أمثال " جورينج " إذ وجودوا فى هذه الدعاوى ذريعة ما كانوا يحلمون بمثلها من أجل " تبرير جرائمهم "، إن لم يكن محو الجرائم التى اقترفوها فى حق الإنسانية " .

والمصطلح الذى له أصداء صاخبة هو مصطلح :" الهولوكوست " ، وهو مصطلح يهودى سجل الكاتب :" إيلى فايزل " ، فى كتابه :" الليل ١٩٥٨ "،

(١) كتاب : الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ، تأليف : رجاء جارودى ، ترجمة : محمد هشام ، صـ ٢٠٦

ثم ذاعت شهرة هذا المصطلح فى أعقاب ظهور فيلم " الهولوكوست " .. وقد عمل الفيلم على أن يعطى صورة جلية ذات علل مؤكدة على أن ما حاق باليهود حدث تاريخى فريد لا يُقارن بأى حدث آخر .. فأياما كانت المذابح التى قتل فيها من قتل فى المعارك اتاريخية من أو التاريخ إلى اليوم لا يساوى شيئا ولا يزن شيئا أمام تلك الفادحة التى أصابت اليهود من الإجرام النازى ألا وهى فادحة :

" غرف الغاز "، " والمحارق " ، " والإبادة الجماعية " . بمعنى فادحة :" الهولوكوست " . وقد اختار اليهود كلمة :" الهولوكوست " "Holocauste" " لتصبغ المحنة بصبغة القداسة .

وقد ورد تفسيرها فى معجم " لاروس " على النحو التالى :" الهولوكوست طقس (شعيرة دينية) للتضحية مالوف لدى اليهود وفيه تحرق النار القربان بالكامل .. : " ومن ثم فإن [1] استشهاد اليهود لا يقارن بأى استشهاد آخر فطبيعته المقدسة تجعله جزاء لايتجزء من مشيئة الله وإيذانا بعهد جديد شأنه شأن صلب يسوع فى الفكر الدينى المسيحى . ولهذا لم يكن غريبا أن يعلن أحد الحاخامات :" إن إنشاء دولة إسرائيل هو الرد الإلهى على الهولوكوست " .

إذن أفلا يحق لليهود أن يجعلوا من حادثة :" أفران الغاز " ، والمحارق " ، " والإبادة الجماعية " عقيدة دينية من تشكك فيها فكأنه عدو مبين للسامية ؟

لكن رجاء جارودى يؤكد أن مسألة " الهولوكوست " إن هى إلا محض اختلاق فهويقول :" ولكى [2] يغدو هذا الطابع المقدس للهولوكوست مبررا فمن الضرورة أن تكون هناك إبادة كاملة وخطة سرية محكمة لتنفيذ عمليات الإعدام ثم حرق الجثث وتتطلب هذه الإبادة الكامة بطبيعة الحال أن يكون هناك تصور

---

(١) ، (٢) المرجع السابق صـ ٢٠٧

عن " حل نهائى " للمسألة اليهودية يتمثل فى الإبادة " . هذا فضلا عن أن النازيين أنفسهم لم يقصدوا بعبارة " الحل النهائى " القضاء التام عليهم .

لقد أسرف اليهود فى مبالغتهم إلى حد الهوس فى تحديد أعداد قتلاهم ؛ مع السكوت تماما عن أعداد الضحايا من غير اليهود . . لقد ذكر اليهود أن عدد قتلاهم بلغ ستة ملايين ثم نزلوا به إلى أربعة ملايين . . ثم مليونين ، ثم مليون وبضعة آلاف . . وإزاء هذا التارجح المشبوه فإن جارودى يطلق من الشكوك ما هى كفيلة بهدم تلك الأكذوبة التى أثارت الفكر الغربى الذى نهض لدحضها وبيان أوجه تهافتها . . لقد قال جارودى : " أليس من شأن [1] هذا أن يقدم مبررا قويا للتشكيك فى صحة وقائع الإضطهاد والقتل والتعذيب التى عانى منها اليهود وغيرهم من خصوم النازى مثل الشيوعيين الألمان الذين كانوا أول ضحايا هتلر هذا ومن أجلهم شيدت أولى معسكرات الاعتقال ؟ ثم ماذا عن عمليات القصف الجوى التى اكتوى بنارها سكان البلدان المشاركة فى الحرب ؟ وماذا عن أعمال السخرة والتنقل الدائم من مكان لآخر فى شروط غير إنسانية خلقت آلاف الجثث على شتى الطرق فضلا عن التجويع والأوبئة الفتاكة ؟ هل كانت هذه المأساة فى حاجة إلى المبالغة الصارخة من أجل التدليل على أن مذابح اليهود تنبع من عداء النازيين الوحشى للسامية ؟.. وهل نحن فى حاجة إلى التلويح الدائم بشبح " غرف الغاز " من أجل الإبقاء بأى ثمن على الطابع المقدس والفريد لحدث " الهولوكوست "؟

لقد كان الصحفى الشهير : " بواز إفرون " أول من أقدم فى عام ١٩٨٠ على إثارة التساؤلات عن مغزى ذلك الطابع الإستثنائى الفريد لمذابح اليهود عندما كتب يقول " : . . . كأنما أصبح من المسلمات أن يقتاد أى ضيف رفيع المستوى

(١) ، (٢) المرجع السابق صـ ٢١٩

فى زيارة إجبارية إلى متحف " ياد فاشيم " .. لكى يعى تماما ذلك الإحساس بالذنب الذى ننتظر أن يبديه . ولكن افتراضنا الدائم بأن العالم يكرهنا ويضطهدنا يجعلنا نشعر بأننا لسنا ملزمين بأن نُحَاسب عن أفعالنا تجاهه ...

إذ أن العزلة المرضية عن العالم وقوانينه قد تدفع بعض اليهود إلى معاملة غير اليهود باعتبارهم أدنى من البشر متبارين بذلك مع النازيين فى نزعتهم العنصرية " .. ثم يواصل " إفرون " حديثة محذرا من الخلط بين مشاعر العداء لدى العرب ومشاعر العداء للسامية لدى النازيين ؛ فيقول : " لا يمكن فصل الطبقة الحاكمة فى بلد ما عن دعايتها السياسية لأن هذه الدعاية تُقدر باعتبارها جزءا من واقع تلك الطبقة ومن ثم يعمل الحكام فى عالم مسكون بالخرافات والأشباح التى صنعوها بأنفسهم " .

هل من الممكن أن يظل الباغى على بغيه وظلمه فلا يجسر إنسان على مواجهته فيكشف ستره ويفضح أمره ويظهر حقيقته للناس ؟.. هل من الممكن أن يظل الباغى على بغيه ؟استحالة أن يحدث هذا ، بل لابد أن تتحرك حرية الإرادة فى وجدان الإحساس الحر بالحياة بغير تردد أو توجس وبغير خوف أو تراخي ..هذا ما يحدث فى قضايا الحق والإنصاف ..وهذا ما يحدث فى قضايا الجهاد من أجل العدل وردع الكنود والجحود..فلا مواربة ولا تخاذل .. وهذا هو ما نهض به علماء أمناء من أوروبا فى مواجهة الإرهاب اليهودى فى كل ما يفترى ويدعى ولعل من أكبر أكاذيبهم التى طافت بالعالم كله هى أكذوبة المحارق النازية أو الهولوكوست حيث روَّج اليهود أن النازى قتل ستة ملايين ..وحتى يواجه اليهود أعداءهم ومن يتصدون لكشف أكاذيبهم فقد نشأ محاباة لليهود وتقربا إليهم قانون سمى قانون چيسو وقد صدر سسنة ١٨٨١ م حيث تتولى إحدى المحاكم الفرنسية تنفيذه.

ومن الذين كانوا يقعون تحت طائلة هذا القانون كل من يحاول أن يفند

الحقائق التاريخية لإثبات صدقها من كذبها ولاسيما التى تؤكد على وقوع جرائم ضد الإنسانية وهى التى حدثت إبان الحرب العالمية الثانية وكانت تتعلق باليهود . .وأيضا يقع تحت طائلة هذا القانون دعوى العنصرية ومعاداة السامية والذين يزكون الكراهية للغير . . ومن حق ذلك القانون أن يتصدى للذين يفسرون حقائق التاريخ وتعليل بواعثه حتى ولوكان القصد تاريخيا بحتا .

ومن المفكرين الذين ناهضوا ذلك القانون فتصدوا لمزاعم اليهود بشأن أكذوبتهم عن المحارق النازية ، المفكر الفرنسى چان لوى بيرچيه الذى قال يوما لتلامذته :" إن عدد اليهود الذين ماتوا فى معسكرات التعذيب أقل بكثير مما يقولونه لكم . وغالبية اليهود الذين لقوا مصرعهم من آثار حصار الحلفاء لهم فى المدن الألمانية . . أما غرف الغاز التى صدعوا رءوسنا بها فكانت تستخدم فقط لتنظيف الملابس من البقع " . .

وأيضا من الذين تصدوا لأكذوبة اليهود :" المحرقة ، وغرف الغاز ، والإبادة الجماعية " . المفكر الفرنسى بول راسينيه . فقد نشرعام ١٩٥٠ ، كتاباً بعنوان :" أكذوبة أولسيوس " . .وقد أعلن فى هذا الكتاب أن المحرقة كانت فى حقيقتها مؤامرة يهودية عالمية وأن ما يروجونه بشأن تعرض اليهود للتعذيب فى معسكرات الإعتقال لم تزد عن كونها مجرد أعمال فردية اقترفها بعض رجال الصاعقة الألمانية . .وكان من الذين عضدوا " راسينيه " كاتب يمينى متشدد هو "موريس بارديك " . وقد نشر كتابا بعنوان :" نورمبرج أم الأرض الموعودة " . وفيه اتهم اليهود بأن فكرة المحرقة إن هى إلا أكذوبة أرادوا بها التستر على ما كانوا يرتكبونه من جنايات شخصية . .وكان " روبرت فوريسون " أحد تلاميذ " راسينيه " الذين تصدوا للأكذوبة بكل ما أتيح له من حجج . وقد لفت نظره ما كتبه راسينيه عن غرف الغازالنازية ، وكان ذلك فى سنة ١٩٦٠ . .ومنها أدرك عن يقين راسخ أن غرف الغاز إن هى إلا اختلاق . وعلى الفور أسرع روبرت

فوريسون فأرسل عدة رسائل إلى صحيفة لوموند الفرنسية تجسد رؤيته الفاحصة فى أكذوبة غرف الغاز . .وفى عام ١٩٧٨ ، أرسل مقالا إلى الصحيفة السابقة وذلك تحت عنوان " : أكذوبة أو شقيتز " . .وقد أصاب ذلك المقال اليهود بفزع شديد إلى الحد الذى اعتبروه : " البداية الاستراتيجية الحقيقية لمنكرى حقائق التاريخ التى تعد جريمة فى قانون جيسو " . . ثم اندفع فوريسون فى إنكاره لوقوع ثمة محارق ضد اليهود فنشر مقالات صارمة النقد نشرتها صحيفة لوموند ، وصحيفة ليبراسيون الفرنسيتين يؤكد فيها وبإسهاب أن المحارق إن هى إلا أكاذيب وتم ذلك فى عامى ١٩٨١ ، ١٩٨٢ . وهنا أدرك اللوبى اليهودى أن الصبر قد نفذ ولابد من مجابهة فوريسون فأقاموا ضده عدة قضايا كما أن قانون جيسو أدانه فى عام ١٩٨٢ بتهمة العنصرية وإنكار حقائق التاريخ والتحريض على الكراهية العنصرية . فما كان من فوريسون إلا أنه اعترض بشدة على ما جاء فى قانون : " جيسو - فابيو " متهما المحكمة بأنها تعصف بحرية الفكر والبحث التاريخى فى فرنسا . .ورغم ذلك ظل اليهود وهم يركضون وراء فوريسون بالقضاء ورغم إدانه المحكمة الفرنسية له إلا أنه لم يحرم من العون الصادق من مفكرى السويد وألمانيا وسويسرا ●

● ولكم تهكم روبرت فوريسون من اليهود الذين يؤكدون المحرقة فكان مما قاله : " إن علينا عدم الاقتراب من الفترة مابين عامى ١٩٤١ و ١٩٤٦ و لنكون أحراراً بعد ذلك لندرس التاريخ السابق عليها كما نشاء . لكن ذلك التاريخ السابق على هذه الفترة سرعان ما أصبح محرما علينا الاقتراب منه . فلو قلنا إن نساء اليهود اقترضن حلى نساء مصر فى ليلة خروج اليهود من مصر وأن ذلك نوع من النهب وجدنا أنفسنا متهمين بمعادة السامية والتشكيك فى حقائق التاريخ . . ولو قلنا إن اليهود ذبحوا رجال قرية بأكملها بعد أن أقنعوهم بعملية الختان . . كما فى أدبياتهم الدينية لانتهينا إلى السجون الفرنسية . .ويمكن أعادة

محاكمة شكسبير وسحق بقايا عظامة وشطبه من التاريخ وعقاب من يقرأه أو يدرسه أو يمثل مسرحياته بسبب سخريته من شيلوك بطل مسرحية تاجر البندقية الذي طلب رطلا من لحم رجل لا يستطيع أن يسدد ما عليه من مال إلى المرابى اليهودى شيلوك ..

ويمكن منع موسيقى فاجنر لأن هتلر المتهم بحرق اليهود كان معجبا بموسيقاه "

ومن الغيورين على الحق كان المهندس الفرنسى :" هنرى روك "، ففى عام ١٩٨٥ تقدم إلى جامعة نانت فى فرنسا برسالة لنيل درجة الدكتوراه ، وفى هذه الرسالة :" نفى بشكل غير مباشر وجود الغازالنازية عن طريق تحليلر شهادة ضابط عسكرى نازى انضم جيش الفرنسى عام ١٩٥٤ " ..وعلى الفور فزع اليهود إلى المحكمة لمحاكمة " روك " طبقا لقانون جيسو ..وكان فى ذلك إرهاب لوزير اتعليم افرنسى الذى م يجد مفرا من أن يلغى رساة الدكتوراه التى تقدم بها "روك" وكان ذلك فى عام ١٩٨٦ ..ورغم ذلك فقد اعتبر نفسه حسن الحظ لأنه لم يواجه ما واجهه :" برنارد توتين " أستاذ الإقتصاد الفرنسى بجامعة ليون . فقد نشر توتين فى عام ١٩٨٩ ، مقالا فى مجلة :" اقتصاد ومجتمعات " (فرنسية)وكان عنوان المقال :" دور الإعلام فى تغييب الوعى القومى ، وفيه أنكر جازما أن المحارق النازية لم تقع البتة ..فأسرع اليهود باقتفائه قضائيا مصطنعين العنف في الإجراءات .

وكانت النتيجة أنه أدين بموجب قانون جيسو بتهمة إنكار جرائم ضد الإنسانية .

ولعل القضية التى تثير الدهشة حقا فيما يتعلق بقضايا المحارق النازية هى تلك التى واجهها المؤرخ الفرنسى :" چان بلانتين " ، وكان قد أخرج ثلاثة أعداد من مجلة تهتم بالشئون التاريخية وقد كتب لها مجموعة من المقالات عالج فيها تاريخيا أحداث الفترة بين الحربين العالميتين . وكانت النتيجة أنه انتهى

إلى نفس الحقائق التى انتهى إليها أولئك الذين حوكموا بقانون جيسو ..وفحوى النتجة أن المحرقة النازية زعم باطل وأكذوبة داحضة لا تثبت أمام البحث النزية .

ولم يتوان اللوبى اليهودى عن أن يصوب قانون جيسو نحو :" بلانتين . ولكن رفع القضية لم يكن بالمستطاع لأن هذا القانون لا يصح فى هذه الحالة إذ أن المجلة التى أصدرت المقالات مجلة غير دورية تصدر على فترات طويلة ومن ثم فهى غير منتظمة فى فى صدورها .. غير أن اليهود لم بفقدوا الحيلة فرجعوا إلى قانون جيسو الذى صدر فى عام ١٩٤٩ ، بدل المعمول به وهو الذى صدر فى عام ١٩٩٠ :" واستخدموا مادة فيه تنص على ضرورة (١) حماية القصر من المواد التى تزيف حقائق التاريخ ونجحوا فى تغريمه ٣٠ الف فرنك لـ٣ جهات يهودية مختلفة ونصحوه أن يكف عن مثل هذه الأمور حتى لا تصل غرامته إلى الحد الأقصى الذى يحدده قانون جيسو وهو ٣٠٠ الف فرنك ..لكن أكثر ما أثار غيظ اليهود من بلانتين كانت تلك الصفحة التى كتبها فى أول أعداد مجلته وأهدى فيها المجلة إلى " المنكر الأول .. بول راسينيه "

ومن أحرار الفكر فى هذه القضية المفكر الفرنسى :"بيير ماريه :، الذى كتب

فى سبتمبر ١٩٩٢ ، مقالا يقع فى ثلاث صفحات :" غرف الغاز النازية " ، وقد بحث فى هذه المسألة من وجهة نظر علمية بحتة وكان مما انتهى إلية :" أن لوكان الأساس العلمى لكل ما تعلمه الناس صحيحا فإن الفكرة التى يروج لها اليهود عن اختناق عدة أفراد فى غرف الغاز أمر غير ممكن علميا أو عمليا بسبب كمية المياة الرهيبة المطلوبة لتنفيذ ذلك الأمر " .. ثم ختم بحثه بقوله :" الهولوكوست غير صحيح وليس ممكنا منطقيا " .. ولما وجد اليهود أنهم أمام نتائج علمية ومنطقية لاقبل لهم بها ولا يُسْتطاع تكذيبها فإنهم وجدوا ضرورة

---

(١) جريدة صوت الأمة ، عدد ٢٠٠٢/٨/١٢ مقال : ضحايا قانون جيسو ، بقلم يسرا زهران

محاكمته فرفعوا عليه قضية اتهموه فيها بـ" إنكار حقائق تاريخية " . وقد اشترك معه الناشر ومدير الدورية فى هذه الإدانة .

ولم يكن الفرنسيون هم وحدهم الذين تصدوا لأكاذيب اليهود فقد شارك الفكر الألمانى فى هذه المعركة ، فهذا هو الفكر الألمانى :" إرنست زوندل " . .

وقد انتهت به المقادير إلى أن يعيش فى كندا وكان ذلك فى عام ١٩٧٥ ، حيث عمل فيها مديراً لإحدى دور النشر . وكان من أهم أعمالها إصدار بيانات مسببة تدحض فيها الذرائع التى قامت عليها أكذوبة " المحارق "، كما أنه تمكن من تكوين جماعة :" القوة البيضاء "، وقد كان الكثيرون يعتبرونها مناهضة للسامية . ولما أدرك اليهود أبعاد خطورة الفكر الألمانى :" إرنست زوندل"، فإنهم نشطوا فى مناهضته قضائيا فرفعوا ضده قضية فى يناير ١٩٨٥ . .

كانت تهمته فيها " نشر معلومات تاريخية خاطئة " . غير أنه تحدى ذلك الاتهام وغيره . فواجه اللوبى اليهودى فى فرنسا بمزيد من التعرية والفضح . ولقد استعان بالكثيرين من المفكرين ليقفوا إلى جانبه أمام المحكمة فناصروه بشهادتهم وكان من بينهم المفكر افرنسى :" روبرت فوريسون " . ومع ذلك فقد حكمت المحكمة عليه بالسجن لمدة سنة . .وبعد خروجه من السجن ظل تحت المراقبة لمدة عام . . ثم عاد اليهود ورفعوا ضده قضية ثانية كانت غريبة فى بواعثها وإجراءاتها ونتائجها وكان ذلك فى سنة ١٩٨٨ ، وكانت تهمته هى التهمة السابقة وكان اليهود لا يتركون ثارهم . ومن ثم وجدت المنظمات اليهودية الدولية الكبيرة ضرورة التدخل بكل قوتها وحيلها ونجحت فى إرغام المحكمة على أن تصدر حكمها عليه بالسجن للمرة الثانية إلا أن امحكمة العليا الفرنسية أصدرت حكمها بإطلاق سراحه لأن حرية الفكر مكفولة ولا يصح مصادرتها . .وهكذا

حلت الهزيمة باليهود .

وأيضا من الذين ناهضوا فكريا أكذوبة المحارق وغرف الغاز المفكر الفرنسى " بيير جيوم "، وقد تأثر بأفكار كل من بول راسينيه ، وفوريسون وقد تمت محاكمته حسب قانون جيسو فى يونيو ١٩٩٥ ، وأدين بدفع غرامة قدرها ٢٠ ألف فرنك وأن يعمل فى خدمة المجتمع . .ثم نصل إلى المفكر الفرنسى " ألان جيبونيه "، وكان شيوعيا متطرفا بعيدا عن الأنظار لمدة طويلة . .وفجاة ظهر فى ساحة النضال الفكرى فى عام ١٩٨٦ ، فدبج مجموعة من المقالات تحدى فيها اليهود فانكر إنكارا تاما أكذوبة الهولوكوست . وكان له مجلة دورية تعالج الأبحاث التاريخية ، أسماها :" تحقيق ومراجعة " . . وقد علمت هذه الدورية على إثارة الفكر الفرنسى ثورة حادة اختلطت فيها الآراء والتفسيرات ولعل نزعتها الرئيسية كانت مناهضة السامية . . وفى غمار الآراء وتضارب التفسيرات كان جيبونية أشد خصومة وأعنف جدلا وهو يكذب ويفند ادعاءات اليهود . .وكانت النتيجة أنه وقع تحت طائلة قانون جيسو فحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات .

● وأخيرا لا نجد خيرا من أن نعرض أكذوبة إبادة النازى لليهود ، فى ذلك الحوار [1] الذى جرى مع المفكر الإنجليزى " ديفيد إيرفنج " ، تحت عنوان :" من الذى يكتب التاريخ الحقيقى " . . وقد تمثل فى هذا الحوار مبلغ المحنة التى يتعرض لها الفكر الحر من التسلط الصهيونى بدعوى " معاداة السامية " وهى الدعوى التى أثبتنا زيفها وبطلانها بما لا يقبل معارضة أو ثغرة للشك . . .

قال إيرفنج : فجاة أتمنى لو أننى ولدت يهوديا لأكثر من سبب ، أولا ، أن ذلك سيعيدنى على الفور إلى الوضع الذى كنت عليه قبل الأزمة وأن أفعل تماما كما فعلت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية عندما اكتشفت فجاة بعد

كل هذا العمر أن لها جذورا يهودية حتى أرى بنفسى رد الفعل فى عيون قادة اليهود الذين سيجدون أنفسهم فى موقف بالغ الحرج وهم يتأملون ما يفعلونه بواحد منهم .. ثم السبب الأخير المهم هو أن أحاول العثور على إجابة للسؤال الذى يتعين على اليهود أن يوجهوهلأنفسهم ما هى مسئوليتهم عما يُفْعل بهم ؟

ولكاذا كان تاريخهم كله حافلا بالهجرات الإجبارية وعمليات الإبعاد من دولة إلى أخرى ؟

● **سأله صاحبه : كيف ترى الحكم الذى يصفك بالعنصرية ومعاداة السامية ؟**

قال إيرفنج :هذا الحكم نتاج المؤسسة الإنجليزية وقد كان القاضى عادلا وموضوعيا طوال جلسات المحاكمة غير أن النغمة تغيرت فى اليوم الأخير الذى أصدر فيه الحكم . فالقاضى يعلم أنه لوكان قد حكم لصالحى فإن مستقبله كقاض مهدد بالخطر ، ولأنه قاض جديد فقد آثر الرقابة الذاتية لأنه أدرك أنه سيواجه حملة إدانة دولية تشنها الجماعات اليهودية المنظمة ومع ذلك فإننى متعاطف مع القاضى الذى كان فى موقف بالغ الصعوبة ..

سأله صاحبه : هل تلمح إلى أنه تعرض ضغوط ؟

قال إيرفنج : نعم ، كانت هناك ضغوط كثيرة للغاية ، إنها الصحافة وليس شخصا بعينه . هى التى مارست الضغوط طوال المحاكمة . وكان عداء الصحافة ضدى يتصاعد يوما بعد يوم . وعندما سجلت للقاضى احتجاجى على موقف الصحف الذى بلغ حد إهانة القضاء .. أكد القاضى أن هذه الحملات لن تؤثر عليه . وقال إنه قادر على تجاهل مقالات الصحف التى كانت مشحونة بالكراهية ضدى .

● **سأله صاحبه : هل هذا يعنى أنك كنت تتوقع ذلك الحكم ؟**

---

(١) أجرى الحوار فى لندن الصحفيان : عاصم القرش ، وعامر سلطان ، جريدة الأهرام ١٦ إبريل ٢٠٠٠

قال إيرفنج : لا ، فقد كنت أتوقع الإنتصار بنسبة ٨٠ فى المائة ولذا فقد تملكنى الإحباط لمدة خمس دقائق بعد علمى بالحكم وكنت قد وصلت من الولايات المتحدة صباح يوم الإثنين الماضى وتوجهت مباشرة إلى مبنى المحكمة حيث تمكنت من الحصول على نسخة من الحكم قبل صدوره بأربع وعشرين ساعة ومرت عيناى سريعا وأنا فى التاكسى عائداً إلى بيتى على أوراق الحكم التى تجاوزت ٣٠٠ صحفة وعرفت من السطر الأخير فقط أننى خسرت . وتأكد لى لحظتها أن هذا هو أسلوب المعركة وأن على أن استأنف الحكم .

● **سأله صاحبه : هذه إذن الخطوة التالية ؟**

قال إيرفنج : بالتأكيد فسوف استأنف الحكم وفق الإجراءات القانونية خلال أيام وعلى كل حال فهذا هو ما كان سيفعله الطرف الآخر ، لو كان قد خسر القضية والفارق أن الآخرين لديهم أموال طائلة ، . وهو ما كشفت عن صحيفة جوفيسن كرونيكال الأسبوع الماضى عندما أشارت إلى أن محاميى الطرف الآخر تدفقت عليهم الأموال من شخصيات يهودية معروفة مثل ستيفن سبلبيرج مخرج هوليود الشهير ، وإدجار بررمان ، وإبراهام فركسمان وغيره من قادة يهود أمريكا الذين أنفقوا ملايين الجنيهات الإسترلينية حتى يضمنوا هزيمتى وحتى الشهود الذين إستعان بهم الدفاع حصل بعضهم على مئات الآلاف من الجنيهات وهذه ليست عدالة .

● **سأله صاحبه : من الذى فاز ومن الذى خسر من هذه الجولة ؟**

قال إيرفنج : أنا الذى فزت لعدة أسباب بسيطة . ففى اليوم الأخير من المحاكمة حشد الجانب الآخر فى القضية عشرات من الغوغاء خارج قاعة المحكمة وقذفونى بالبيض وبصقوا علىّ وعندما دخلت إلى المبنى بعد هذه الإهانات العلنية سيطر علىّ للحظة شعور بالإنتصار .

فهؤلاء الأغبياء لم ينتبهوا إلى أن هذه الصور سوف تبث على شاشات

التلفزيون فى كل أنحاء اعالم . أما أنا فكل الذى فعلته هو أننى ناقشت الآخرين ولم أبصق عليهم فهذا لا يحدث فى المجتمعات المتحضرة .

وفى الوقت نفسه فإن الحكم قد حطم الأبواب التى حالت بينى وبين الأعلام . وهذا منحنى إحساسا بالإنتصار بتغلبى على آلة الدعاية الضخمة التى كرست جهودها لتحطيمى . ومنذ صدور الحكم لم أعد أعانى العزلة والمقاطعة . فالإتصالات الهاتفية ورسائل البريد الإلكترونى لم تنقطع ، ومحطات التلفزيون الكبرى لم تتوقف عن طلب مقابلتى كما أصبحت قضيتى تتصدر الصفحات الأولى ونشرات الأخبار بالتلفزيونات بداية من الولايات المتحدة مرورا بأستراليا حتى نيوزيلندا وإيرلندا .

● **سأله صاحبه : وماذا عن الداخل : بريطانيا ؟**

قال إيرفنج : لقد وصفتنى الصحف بأوصاف كثيرة منها :" الكذب " برغم أن التعبير لم يجر على لسان القاضى . غير أننى لم أعبأ فقد كنت واثقا من أننى سوف أتمكن من مخاطبة ملايين البريطانيين العقلاء . وتولدت لدى قناعة بأن كثيرين سيقولون لنتوقف لحظة . إن هذا ليس الشخص الرجل الذى تتحدث عنه الصحف ليتحقق بذلك عكس النتيجة التى سعى إليها اليهود منذ سنوات طويلة

سأله صاحبه : ولكنهم يرون أنك محطم الآن ؟

قال إيرفنج : هل أبدو مدمراً الآن أمامكم !!

● **سأله صاحبه : ربما يتصورون أنك دمرت ماليا ..**

قال إيرفنج : .. نعم فالأمر كذلك وفق تصور اليهود . فالذهب عندهم كل شئ .

والمال أهم حتى من الأولاد . ورغم أننى قد أجد نفسى مطالبا بسداد نحو مليونى جنيه استرلينى مصاريف المحاماة والتقاضى فإننى فى أفضل حالاتى المعنوية . ودعونى أقول لكم إننى قلت لصحفى أمريكى من واشنطن بوست :

صحيح أننى خسرت الجولة إلا أننى خرجت منها بسرعة أفضل .

● **سأله صاحبه : من الذى يملك الحكم على صحة وقائع التاريخ : المحكمة ، أم الضحايا . .أم الإعلام ؟**

قال إيرفنج : المحكمة ليست المكان الملائم لتقرير الحقائق التاريخية . . أما الضحايا فقد تعرضوا للمعاناة وبالضرورة لابد أن يكونوا متحيزين بعد الحروب ولاسيما الحرب العالمية الثانية . ولو كنت أنا شخصيا فى معسكر " أو شڤيتز " فكنت سأفعل مثل هؤلاء الضحايا وأردد معهم الروايات التى يسهم الخيال بدور كبير فيها والتى ضخمت الوقائع فيها تحت وطأة مشاعر التعاطف بين الناس . .ولقد سألت أحد شهود الدفاع فى القضية وهو خبير حفظ المعلومات " فان بيت ؛ . الذى تقاضى من الطرف الآخر ١٠٩ آلاف جنية استرلينى عن عدد الناجين من المعسكر . فقال : لا أعلم . ولم يستطع إعطاء أى رقم ولو تقريبياً فضلا عن أنه ليس هناك شاهد أو دليل أو وثيقة مكتوبة واحدة ولا أى شئ يؤكد وجود غرف الغاز التى أحرق فيها اليهود كما يروجون " .

سأله صاحبه : كثيرون زاروا معسكر : أو شڤيتز :، وأنا بنفسى شاهدت هناك صوراً لليهود فى معسكرات الإعتقال النازية ؟

قال إيرفنج : هذه الصور مجرد لقطات منفصلة وليست هناك صورة متكامة لغرف الغاز المزعومة فالصور التى رأيتها أنت والآخرون تظهر أشخاصا ذاهبين إلي مكان ما ليس بالضرورة هو غرف الغاز .

سأله صاحبه : ولكن الصور تعكس الحالة المأساوية التى كانوا عليها . .

قال إيرفنج : يمكنك أن تري أيضا الناس فى نفس الحالة المأساوية فى فلسطين أليس كذلك ؟ وكل ما تراه فى ذلك المعسر هو بقايا وأشياء مهملة وأحذية ونظارات وملابس ومن الممكن أن يكون كل هذا لأى أشخاص آخرين وقد

فبراير ١٩٤٥ ، تم جمع أطنان من الملابس التى يرتديها ضحايا الغارات قبل دفنهم . وما شوهد من متعلقات وملابس قيل أنها ضحايا غرف الغاز يمكن أن تكون قد جاءت من أى مكان آخر .

سأله صاحبه : من فى رأيك يقف وراء التزييف المتعمد لتاريخ ما حدث ؟

قال إيرفنج : الحكومة الشيوعية فى بولندا بعد الحرب كان لها مصلحة فى تلفيق الوقائع . .وهم يعترفون الآن بأن غرف الغاز التى يشاهدها السياح لم تبن إلا فى عام ٤٨ أى بعد الحرب بـ٣سنوات .

لقد كان تلك المزاعم إحدى وسائل الحرب الباردة وبالتدريج أصبحت مشروعا تجاريا مغريا وأحد أكبر المعالم السياحية وهو ما وصفته من قبل بأنه أصبح واحدة من مدن ديزنى لاند رغم ما يبدوا من قسوة التشبية .

● **سأله صاحبه : لم تجب بعد على السؤال . .من الذى يملك الكلمة الأخيرة فى تحديد ، ماهو التاريخ الحقيقى ؟ القضاة أم المؤرخون أم الضحايا أم الأعلام ؟**

قال إيرفنج :الجميع معا فى مجتمع حر عليهم أن يحددوا حقيقة التاريخ .

واعتقادى أن المحاكم لا يمكنها أن تحسم المسألة وهناك سوابق تثبت أنها أسوأ جهة يمكنها معالجة هذا النوع من الخلافات فى رؤية التاريخ مع التسليم بالاستقلال الكامل للقضاء فى بريطانيا . فالحقيقة تجد طريقها فى النهاية . ولكن الأفضل أن يحدث ذلك بدون الأموال التى يضخها سبيلبرج ورفاقة ليدفعوا الحقيقة فى هذا الاتجاة أو غيره ، بلا ضغوط وبلا تحريض أو إهانات ضد

أى شخص يطرح أفكارا جديدة ، وهو يذكرنى بما تعرض له جليليو عندما حاول إقناع من حوله بأن الأرض كروية .

● سأله صاحبه : وما الذى يمكن أن يستفيدوه من تزوير التاريخ ؟

قال إيرفنج : السبب الآن هو المال فقد أصبحت الهولوكوست صناعة مربحة ورائجة لكن الهدف فى البداية كان تحقيق وحدة اليهود فى كل أنحاء العالم وتغذية الإحساس بالهوية بدعوى أن الجميع تربطهم معاناة كابدوها معا . ولهذا فإنك تجد نفسك أمام العشرات الذين يريد كل منهم أن يحمل صفة الناجى من المحرقة حتى يحصل على تعويض .

وفى المقابل لابد أن تسأل نفسك - كعربى - هل حصل الفلسطينيون مثلا على أى أموال تعويضا عن المعاناة التى تكبدوها . والأغراب أن اليهود الحاليين لم يعانوا .. الذين عانوا هم ضحايا فترة الحرب .. فلماذا يطالب هؤلاء بالتعويضات ؟

● سأله صاحبه : هل أنت نادم ؟ هل ستختار الطريق نفسه إذا كان بيدك الآن العودة إلى نقطة البداية ؟

قال إيرفنج : لدى بالتأكيد مشاعر أسف لكننى لن أكرر ما فعلته وإذا جاء إلى الآن قادة اليهود الذين مولوا المعركة ضدى وسألونى : مستر إيرفنج : هل أنت مستعد لسحب كل ما فعلته والاعتراف بخطئك ؟ لن يكون لدى سوى شرط واحد .. سأقول لهم : إذا ضمنتم لى أن أعود إلى حيث كنت قبل هذه الدوامة .. قولو لى فورا أين تريدوننى أن أضع توقيعى ؟

● سأله صاحبه : هل تسلم الآن بأنك ارتكبت أخطاء فى هذه المواجهة ؟

قال إيرفنج : خطئ الأكبر هو أننى ألفت كتابا عن هتلر . بالدرجة نفسها من الموضوعية التى يمكن أن استخدمها فى كتب آخرى . فأنت بإمكانك أن تكتب بموضوعية كل ما تريد عن أى شخص آخر .

ولكن ليس هتلر ، الذى يرى البعض أنه من المحظورات وأنه يجب أن يبقى نموذجا للشر وشيطانا إلى الأبد فى عيون المجتمع .

● سأله صاحبه : وماذا يمكن أن تفعل لتصحيح الموقف ؟

قال إيرفنج : طموحى القديم وبلا تفكير . هو أن أرجع من جديد ذلك الطالب الجامعى الذى كان يعمل فى البناء فى بيوت لندن قبل نهاية الخمسينيات . كنت أمامها بلا هموم ولا مسئوليات . أهود متعبا برأس خال من المشاغل وبحفنة جنيهات تكفى أسبوعا باكمله .

أيامها لم يكن أحد يصرخ فيها فى وجهى وكل ما أملكه هو يدين يغطيهما غبار التعب النبيل .

وإذا سألت نفسى الآن هل كل ما فعلته مفيدا ؟ اكتشفت أننى أريد قبل أى شئ آخر أن استأنف حياتى مرة أخري وأعود لإكمال الكتب التى بدأتها وأكره الظروف التى تمنعنى من أن أفعل ذلك وتضطرنى للوقوف أمام القضاء . أمام طرف أقوى يدخل المعركة مسلحاً بستة ملايين من الجنيهات بينما لا أجد فى جيبى ستة بنسات "

● سأله صاحبه " : جون ساكر " ، المسئول الإعلامى بمجلس النواب اليهودى ، قال لـ " الأهرام " أخيرا أنك أنت الذى جلبت المشكلات على نفسك ولابد أن تدفع ثمن ما فعلت ؟

قال إيرفنج : أعرف جيدا ان تأثير هذا المجلس فى بريطانيا . والمؤكد أنهم سيواصلون تشويه سمعتي كما فعلوا من قبل . وقد تم ترحيلى من كندا عام ١٩٦٢ ، بفعل تقارير الملاحقة المخابراتية التى قدمها المجلس بما فى ذلك اتهامى بأننى أتلقى أمولا من الخارج أو الزعم بأننى قتلت زوجتى الأولى ، ومع ذلك فإن أعضاء المجلس يعلمون أننى لن أنخدع بكل سطوتهم ولم يكن قرارى اللجوء إلى القضاء إلا محاولة للدفاع عن نفسى فى مواجهة محاولات التدمير .

سأله صاحبه : كيف ترى محاولات تسليمك إلى ألمانيا ؟

قال إيرفنج : لن أخدع نفسى ، الاحتمال جاد وقائم ويمكن ان يصبح أمراً واقعا إذا ما خسرت القضية وفى سبتمبر المقبل عندما تمر ١٠ سنوات على الخطاب الذى أكدت فيه لأول مرة أن " الهولوكوست " مجرد أكذوبة يمكن أن أجد نفسى فجأة فى طائرة متجهة إلى فرانكفورت . .وساعتها ستكون نهاية حياتى العلمية وصدقونى أن هناك الآلاف . . إن لم نقل الملايين من اليهود الذين يبذلون أقصى جهدهم لتحقيق ذلك بالضبط . لقد رأيت خطابات موجهة من مجلس نواب يهود بريطانيا إلى السفارة الألمانية والسفير النمساوى للمطالبة باعتقالى .

● وسألت نفسى : أى نوع من الإنجليز ذلك الذى يسمح لنفسه

بتحريض حكومة أجنبية على اعتقال واحد من أبناء وطنهم .

وفي المقابل تلقيت مئات بل آلاف من رسائل التأييد والتشجيع من مثقفين وساسة وأساتذة جامعة من عشرات الدول بما في ذلك ألمانيا . . لكن خيبة أملي كبيرة لأن العرب لم يقفوا بجانبي كما ينبغي في هذه المعركة . . فما يحدث لي يشبه بالضبط الحملات القديمة التي كانت تخرج فيها قرية باكملها لمطاردة السحرة وإحراقهم .

● **سأله صاحبه : . . . إذا ما حدث الأسوأ . . كيف ستدبر المبلغ المطلوب لتسديد نفقات القضية ؟**

قال إيرفنج : هذه الأمور يجب ألا تناقش علنا . فكل ما يمكن أن أكشف عنه فيما يتعلق بالتمويل يمكن أن يستفيد من الخصوم الذين يحاولون بالتأكيد الاستفادة من كل معلومة ممكنة لكسب القضية ، والأصدقاء الذن يريدون مساعدتي في العالم العربي بإمكانهم الدخول إلى موقعي على شبكة الإنترنت واختيار السبل التي يمكنهم بها مساعدتي بالخبرة أو بالمال . لأن المسألة ستكون أصعب بالتأكيد في الاستئناف .

التهجم على الإسلام

برنارد لويس

التهجم كذب (١) وإدعاء ، وترويج للجانبين بكل حيلة ووسيلة ، لا يقيم وزناً لخلق أو كرامة من مكارم الأخلاق وآداب الإجتماع .. ونحن فى موضوعنا هذا نقدم صوراً من التهجم الصهيونى على الإسلام .من هذه الصور إيقاظ الفتنة بين الإسلام والمسيحية فيما يمكن أن نسميه بالحرب الباردة التى تثير الحفيظة .. وقد قام بهذه المسألة الكاتب اليهودى برنارد لويس الذى نال بفضل نشاطه الصحفى وأفكاره المجترئة بشهرة كبيرة فى الصحافة الأوربية بعامة .. ولقا زكته جريدة « نيويورك تايمز » بقولها : إن برنارد لويس عميد دراسات الشرق أوسطية وأهم مراجعها ومصادرها فهو يهودى متخصص فى شئون الإسلام ... ولقد بلغت دراسته من الذيوع والانتشار حتى أنها تسللت إلى البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية . وبفضل دراساته الرصينة أصبحت له مكانة لها وزنها فى معالجة السياسة الأمريكية من حيث موقفها من العالمين العربى والإسلامى .. وبلغ علو شأن لويس أن أصبح له نفوذ خطير فى المخابرات الأمريكية والبنتاجون ولا سيما بعد هجمات « سبتمبر على واشنطن ونيويورك » .

ومن كتبه التى تجسد موقف اليهود من الإسلام ، وهو موقف المخادعة والتزييف والتهديد بالغد فى نفس الآن .. من كتبه تلك : « الخطأ (١) الذى وقع ؟؟ وقد استهله بدراسة طبيعة المواجهة بين الشرق والغرب فقال : « إن معاهدة « كارلوڤيتز » تحظى بأهمية خاصة فى تاريخ الإمبراطورية العثمانية وفى

---

(١) من كتاب : " الخطأ الذى وقع " ، مقال من ترجمة : مجدى عبد الكريم ، جريدة : صوت الأمة ، ١٣ / ٥ / ٢٠٠٢

تاريخ العالم الإسلامى بإعتبارها أول معاهدة سلام توقع بين الإمبراطورية العثمانية المهزومة وخصومها المنتصرين فى أوربا » ويتمثل الغل اليهودى والرغبة فى ألا يرى المسلمون أى لمحةمن الإنتصار فى قوله : ... أول معاهدة سلام توقع بين الإمبراطورية العثمانية المهزومة وخصومها المنتصرين فى أوروبا ..

وبعد هذا يركز لويس على هزائم المسلمين بنوع من التشفى ، فيقول ، فقد تعرض المسلمون لهزائم سابقة على أيدى الغرب مثل ضياع أسبانيا والبرتغال وصعود نجم روسيا وتزايد الوجود الأوربى فى جنوب شرق أسيا غير أن المراقبين فى هذا العهد . مسلمين وغربيين . فشلوا فى الوقوف على أسرار الهزائم فى رؤية محيطة : « فقداعتبر مسلمو الشرق الأوسط هذه الأحداث هامشية وبعيدة لاتوثر فى ميزان القوى بين العاملين الإسلامى والمسيحى فى ظل الصراع الطويل الذى كان دائراً بينهما منذ فجر الإسلام فى القرن السادس الميلادى وإنطلاق جيوش المسلمين من الجزيرة العربية صوب المناطق الخاضعة للسيطرة المسيحية فى سوريا وفلسطين ومصر وباقى شمال إفريقيا إلى جانب جنوب أوربا » .. وهنا يضرب الصحفى اليهودى برنارد لويس صفحاً عن طبيعة المناطق التى كانت خاضعة للسيطرة المسيحية ، طبيعتها الإجتماعية ونظم الحكم التى كانت عليها والبواعث الإسلامية التى من أجلها تحركت الجيوش الإسلامية نحو تلك المناطق . ومن ثم فلويس يصور الفتوح التى إدعاها غزواً . بصورة الغزو الشامل بقصد السيطرة لا بقصد الهداية ، أى بقصد التوسع الإمبراطورى وإستنزاف ثروات الشعوب .. وماذا لو لم يفتح الإسلام تلك الأقطار وظلت فى مسيحيتها

هل كان من الممكن أن تنشئ حضارة وتسهم فى الرقى الحضارى ؟ وفضلاً عن هذا فحين يقول لويس : " أن جيوش المسلمين صوب المناطق الخاضعة للسيطرة المسيحية ، فكأنه يستحث المسيحيين أن يعودوا إلى ماكانوفيه من تدهور وإنحطاط وأن يعملوا على إسترجاع ماسلبه المسلمون منهم .. لكن كيف ؟

ثم يستمر لويس فى إضرام النار فيقول مرسخاً لمقصده اليهودى الذى يبغى إحداثه بين الشرق والغرب : الشرق المسلم والغرب المسيحى " أن الصلبيين أوقفوا المسيرة الظافرة للمسلمين غير أنه ثم وضع حد لهذا وتعرض الصليبيين للهزيمة من الشرق .. واستمر تقدم الإسلام مع أفول نجم بيزنطة ودخول العثمانيين أوروبا وسقوط إمبراطورية القسطنطينية وبعدها الإمبراطورية الرومانية ويعكس التراث التاريخى الغزير الذى أنتجه العثمانيون وعيا بالعالم الذى عاشو فيه »

فلويس هنا يخلط بين الوقائع التاريخية خلطاً مريباً كما أنه يتلاعب بالألفاظ على غير سياق منطقى وتاريخى صحيح ليضفى على كلامه صيغة المؤرخ العليم بأحداث التاريخ .. ثم يستطرد الكاتب الصحفى بما فيه تأجيج لغيرة الإستعلاء بين الجانبين مشيراً بذلك إلى التفوق الذى وصل إليه الغرب فى صنع السلام فقال " : ولدينا وثيقة عثمانية تسجل محادثات بين ضابط غربى وآخر مسلم عثمانى .. ومن الواضح أن غرض الوثيقة كان دعائياً ..غير أنها أول وثيقة تتضمن مقارنة بين أساليب الحرب الشرقية والغربية لصالح الأخيرة . كما تضمنت إقتراحاً لم يكن من السهل التفكير فيه فى السابق ، وهو أنه يجب على المؤمنين ، إتباع الكفار فى أساليب التنظيم العسكرى وشن الحروب . وشددت الوثيقة على

إستخدام الغرب للنيران ، المدافع والبنادق ، وأكدت أيضاً أهمية تدريب القوات العثمانية وإعادة تنظيمها . وتمثلت قوة الدفع التى إعتمدت عليها هذه الحجة فى أن الإعتماد على الأسلحة الغربية لم يعد كافياً ، كما كان فى الماضى ، ومن الضرورى إعتماد وتبنى مناهج التدريب والتنظيم والتكنيكات الغربية نظراً لفاعليتها " ..

ويتمثل فى هذا الجزء عدة مقترحات تشى بالخبث فى أسلوب الإثارةبين المسلمين والمسيحيين فلويس اليهودى يثير عداوة بين المسلمين والمسيحيين الذين وصفهم بكلمة كفار على أنها من كلام المسلمين للمسيحيين، ولم يحدث قط أن وصف المسلمون المسيحيين بأنهم « كفار » فالمسلمون يعرفون حقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام وحقيقة المسيحية فالمسيحيون مؤمنون وليسوا بكفار .. وهذه واحدة ، أما الثانية فهى أن لويس اليهودى يريد أن يخيف المسلمين بأن إعتمادهم كله إنما هو على السلاح الأوربى الحديث والتدريب العنيف فكأنه بذلك يضعف من عزيمتهم وتطلعهم إلى القوة ..

ثم يقول لويس : " لكن الإبتكار والتجربة كانا أوربيين مما أدى ألى تغيير ميزان القوى بين الجانبين .. ثم يرهب المسلمين بإشعارهم أنهم أصبحوا تحت رحمة الروس فهو بذلك يتشفى فيهم فيقول : " غير أن كارثة جديدة حلت بالعثمانيين فيما بين أعوام ١٧٦٨ - ١٧٨٤ ، حيث عانوا سلسلة هزائم على أيدى الروس سجلت نتائجها فى معاهدة : قير نارجة الصغرى عام ١٧٧٤ ، والتى منحت الروس حقوق الملاحة والتدخل غير المباشر فى داخل الإمبراطورية العثمانية .. ثم يثير ثائرة العداء بين الجانبين فيقول : « ولئن كان ضياع الأراضى

العثمانية فى أوربا أمراً قاسياً فقد أمكن إحتماله فهى أرض حديثة الغزو وتسكنها أغلبية مسيحية وتحكمها أقلية من الجنود والموظفين العثمانيين إلا أن الأمر مختلف تماماً فى شأن القرم فهى أرض إسلامية تركية منذ القدم وتعود إلى العصور الوسطى أحس العثمانيون أن ضياعها فقدان لجزء من الوطن وكانت هذه هى البداية ولكنها لم تكن أبداً نهاية ضياع أرض مسلمة وسكانها وخضوعها لحكم مسيحى . وقد تميزت هذه المرحلة بنشوء روسيا كقوة كبرى فى البحر الأسود وتشكل تهديد الأراضى العثمانية والإسلامية الواقعة على شواطئ أوروبا والقوقاز وقد تطلب ذلك عدداً من التدابير لمواجهة الأخطار الجديدة جاءبعضها مخالفاً للقواعد والمعايير الإسلامية المقبولة مثل قبول المعلمين الكفار لتعليم أبناء المسلمين وقبول الحلفاء الكفار فى الحرب ضد الكفارالآخرين " .

ثم تعود النحيزة اليهودية إلى خلقها العقيم فتصور المسلمين بالجمود فى الفكر والإنصراف عن التفتح الحضارى وذلك هوداء الشرق الأوسط بأسرة فقال لويس : وجد الفقهاء المسلمون أن الخطأ الأساسى فى نظر معظم هذه المذكرات يتمثل فى الابتعاد عن الأساليب القديمة الإسلامية والعثمانية وأن العلاج الأساسي يكمن فى العودة إليهما " : وعلى غير هذا النهج سار السفراء الأتراك الذين أرجعوا ضعف المسلمين إلى عدم أخذهم بالفكر الحديث .. ويعز على لويس آلايترك الميدان بغير أن يحمل المسلمين تبعه تخلفهم فيقول " : إن كبش الفداء فى تدهور العالم الإسلامى كان الأجانب فى الخارج والأقليات فى الداخل " .

رونـالــد سيجـــل

(٢)

أود أن أشير هنا إلى أنه من المسلمات والبديهيات أنه ما من كاتب صهيوني إلا والعداء اللدود للإسلام هو خلقه وحياته وفكره : وإنه يستحيل أن يتخلص من تلك السخيمة النكراء : ومثل هذا الحقد الأعمى يستحيل أن يتيح لصاحبه أن يفكر تفكيراً سليماً أو أن يلم إلماما قويما بحقائق الإسلام في شريعته وآدابه : كل الصهاينة على هذة الشاكلة من الجهل وفقدان البصيرة ، وعدم القدرة على التمييز والتحليل الأمين لاستخلاص الحقائق وبلوغ الصواب فإذا شاهدوا سلوكاً إجتماعياً معيباً في بعض المجتمعات الإسلامية قالوا إن هذا هو الإسلام فهو من ثم لايصلح أن يكون ديناً إنسانياً يحي الحياة ويغنيها ويحي الفرد ويغنيه.

نستهل بهذه الكلمه ماكتبه (١) رونالد سيجل الكاتب الصهيوني الذى لم يسخر قلمه لشئ سوى مهاجمة الإسلام بتدبير حقود يصوبه نحوه لتشويهه واستعداء الفكر الغربي عليه : من الأمثلة على ذلك الكتاب الذى ألفه تحت عنوان : " عبيد الإسلام السود " ، وأصدره في بريطانيا وكانت الغايه من ورائه شن حمله ضارية على الإسلام الغاية منها بث الكراهية فيه والتربص به . . ومما جاء في هذا الكتاب " : إذا ماحكمنا طبقاً لحجم المعلومات المتوفرة لدينا فإننا سنقع ضحية انطباع خاطئ بأن نظام الرق والعبودية كان موجوداً فقط لدى الأمريكيين الملونين (يقصد أصحاب البشرة السمراء) غير أن الحقيقة أن الرق كان سائداً على مدار التاريخ الإسلامي ويعد جزءاً لايتجزأ من المجتمع الإسلامي

---

(١) كتبه الصحفي : الحسين محمد ، جريدة صوت الأمة ، ١٣/٥/٢٠٠٢

" ثم يقول : " ليس من الضروري أن نقول إن الرق فى العالم الإسلامى كان أسوأ من الرق فى أمريكا ولكن المشكلة أن العالم الإسلامى لم يمر بنوع من حساب النفس الأخلاقى الذي مربه الغرب فقد عارضت الدول الإسلامية بشدة إلغاء الرق حتى إنه مازال موجوداً حتى الآن فى موريتانيا والسودان .. ثم يستمر " سيجل " فى تهجمه وافترائه فيقول : من الغريب أن يتجاهل المسلمون السود فى أمريكا حقيقة وجود رق وقمع للسود فى موريتانيا والسودان وبدلاً من ذلك يوجهون إتهامات لليهود وكأنهم المسئولون عن تنظيم تجارة العبيد " .. و " سيجل " هنا يقصد تحقيق أمرين ، الأول بث الفرقة وفتنة الإحتراب بين المسلمين الثاني : إلقاء ظلال كثيفة على الجرائم التى إرتكبها اليهود ضد الشعب الفلسطينى وكأنما أراد " سيجل " أن يعلن أن المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية يهدفون إلى أن يظل السود رازحين تحت وطاة العبودية فى بعض جهات من الأقطار الإسلامية كما أنهم لايقرونها فى نفس الوقت .. ثم إنهم لايعترفون بما أشاعته الصهيونية عن المحرقة النازية ولا يصدقونها تحت أية صورة .

ومن السخف أن يقيم " سيجل " موازنه خبيثة بين رحلة العبيد فى الدول العربية وأمريكا : " فرحلة العبيد في الدول العربية تجري في الصحراء وتحت أشعة الشمس الحارقة وبين رحلة العبيد حيث ينقل هؤلاء على ظهر سفن " ولكن " سيجل " يتغابى عن الحقائق التاريخية ونقول له موجزين : كيف كانت حالة السفن التى كان ينقل عليها العبيد ؟ هل كانت مهيئة للآدمين أم كانت عبارة

، عن مسطحات خشبية تعصف بها الأنواء وتتقاذفها الأخطار فتتحطم بهم فيغرقون فى لحظات ؟ وكم عدد الذين أهلكتهم الأوبئة فلاوقاية ولادواء ؟ هذا فضلا عن سؤ المعاملة فقد كانوا يضربون بالسياط وكأنهم حيوانات ضالة .. ثم يتحول " سيجل " إلى جانب أخر يتعلق بالعبيد ، وكأنة لا يود أن يترك وصمة أخلاقية إلاوألصقها بالإسلام وذلك بالطبع بدافع الكراهية التى يضمرها له .. هذة الوصمه هى ظاهرة الخصاء ، فهو يقول عنها : إن هؤلاء العبيد الذين كانوا يشترون بمبالغ ضخمة كان يتم خصيهم ليعملوا فى حراسة الحرملك . ولأن الإسلام يحرم عاهات جسمانية بالآخرين فإنه لتجنب هذا المأزق فإن الذين جرى إخصاؤهم خضعوا لهذا العمل فى مناطق غير إسلامية قبل أن يتم جلبهم لمدن إسلامية فضلاً عن أن الذين قاموا بهذة الأعمال كانوا غير مسلمين " . أصح مايقال فى« هذا الصحفى الصهيونى أن اتخذ من جهل الغربيين بالإسلام وسيلة للإساءة إليه فى صياغة صحفية تتصف بالتهريج الذي يثير البغضاء والكراهية .. ومن العجيب أنه يزعم أن المسلمين لم يقلعوا عن عادة الرق وعادة الخصاء إلا بفضل تأثرهم بأوروبا ، فقال : قد كانت عملية إلغاء الرق أحد أهداف الإستعمار الأوروبى " وفضلاً عن هذا الإستثكار المتهم من الصحف الصهيونى " سيجل فإنه " يواصل أضاليله فيقول : إن تجارة الرق راجت فى السودان منذ عقد الثمانينيات وقويت شكوتها بعد أن أخذت الحكومه منحى إسلامياً .. وبهذا نصل إلى مجمل إفتراءات ذلك الصحف الصهيونى الذى يجهل التاريخ كما يجهل الجغرافيا معاً أولا : أن الرق كان سائد على مدار التاريخ ويعد

جزءاً من المجتمع الإسلامى ثانياً : أن العالم الإسلامى لم يمر بنوع الحساب الأخلاقى الذي مربه الغرب . ثالثاً أن إلغاء الرق كان أحد أهداف الإستعمار الأوروبى . رابعاً : أن الخصاء انتشر بتحريض من المسلمين كنوع من التجارة.

وإذا كان ذلك اليهودى الصهيونى الجهول بلغ ذلك الحد الذى اعتمد فيه على جهل من يقرأونة وإمكانية أن يصد قوة فإننا نجد أن علينا أن نبين فى إيجاز وإحكام موقف الإسلام من الرق وكيفية علاجه وكيف جعل له دستوراً إنسانياً فردياً واجتماعياً فلا تحيف ولابغى ولاتهاون ولكنه التعاطف الإنسانى والتراحم الإنسانى بين شعوب العالمين. فمنذ فجر التاريخ عاشت – بجماعاتها الصغيرة و الكبيرة – فى إغارات متصلة ، كل شعب يغير على الآخر ويحتل أرضة ويعتبر سكانه عبيداً له فيسترقهم ويتخذهم عبيداً يخدمونه فى ظروف مختلفة وأحوال متباينة . قد تشوبها الرحمة وقد تشوبها البأساء والضراء وظلت الإنسانية ردحاً طوبيلاً من الزمان وهى تعتبر الرق أو الرقيق ظاهرة طبيعية إجتماعية فرضها الرب المعبود بهذا آمن اليهود فقالوا فى توراتهم على لسان الرب فيما يتقولونه " : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته : وبالرق آمن فلاسفة اليونان سقراط وأفلاطون وأرسطو : فقد كانوا يعتبرون الرقيق لبنة رئيسية فى البناء الإجتماعى لايمكن رفعها أو الإستغناء عنها .. ثم انتقل الإيمان بظاهرة الرق من اليونان إلى الرومان حيث بلغت الظاهرة أكبر حجم لها وأكبر إيمان بها .. ولم تتغير الأمور فى العصور الوسطى ..

فلما جاء الإسلام فى القرن السادس الميلادى لم يشأ أن يغير من شأن ظاهرة

الرق تغييراً شاملاً ودفعة واحدة لأن ذلك سوف يصيب المجتمعات بهزة عنيفة هى غير مستعدة لها ولا يمكن الإنقياد لما يأمر به . ومن هنا فإن الإسلام إصطنع المنهاج المرحلى المتأنى والمستحث فى معالجة ظاهرة الرق بحيث جعله بين الفرض اللازم الذى لا مناص منه وفى نفس الوقت يحببه فى نفوس المسلمين ويجعله من الأعمال المحببة التى يرضى عنها الله سبحانه وينعم على صاحبها بالجزء الجميل .. ونبدأ أولاً بذكر القاعدة الرئيسية التى قامت عليها العلاقات الإنسانية والإجتماعية بين الناس **أجمعين ، فقد قال سبحانه** : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ ﴿ سورة الحجرات ١٣) فتعارف التقوى هو التعارف الإنسانى المتراحم الذى يجب أن يكون دستوراً عملياً فى كل شئون الحياة الإنسانية .

ولكن أما وقد حاقت بلية الرق بالأمم والشعوب كان لا بد من وضع القواعد التى تكفل معالجتها معالجة إنسانية رحيمة .. وجاء العلاج لأخطر مايتعرض له المجتمع الإنسانى من مصائب وهى مصيبة القتل بين الخصوم فقال سبحانه : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾

(٩٢ سورة النساء)

ذلك هو تشريع القرآن الكريم فى أخطو مايتعرض المجتمع الإسلامى وقد جاء

التشريع بكل المواقع التى توجب تحرير الرقبة مشفوعة بما هو ضرورى لها فى المواقف التى لا تتيسر فيها . .

هذا فى جرائم القتل . . أما فى حالة عدم الإيفاء بالعهود والموثيق والإخلال بها فإن القرآن الكريم جعل تحرير الرقبة من بين الآداب المفروضة للرجوع إلى الحق والإيفاء بالعهود ، فقال سبحانه : ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (٨٩ سورة المائدة) . .

والأمر الثالث هو المظاهرة من النساء وهو أن يخلف الرجل على أمرأته فى طلاقها فيقول « أنت علىّ كظهر أمى » فهذا من الكبائر فى الإسلام .

ولذلك جعل القرآن الكريم الحكم فيه رادعاً ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (٤ سورة المجادلة) هكذا جاءت معالجة قضية الرق ، فى الإسلام فى القرن السادس الميلادى والعالم غارق فى الرق . . جاء بهذا العلاج الذى لم يسبقه فيه سابق ولم يتصدى له أحد بمثل هذا الإحكام . . وكذلك على درجات ومراحل كان علاج الرق مستمراً فى

الوقت الذى لم تعرفه أوروبا بمثل هذا الشمول المحكم إلا تحت دواعى الحاجة الصناعية . .

وفضلاً عن هذا فإن رسول الله ﷺ كان يحث المسلمين دوماً على تحرير الرقيق ويضرب المثل لهم عملياً ويجعله من دعائم البناء الإجتماعى . . وبذلك تتقلص ظلال الرق شيئاً فشيئاً . . ومن الأمثلة على ذلك . . عن أبى مسعود البدرى رضي الله عنه قال : كنت أضرب غلاماً فسمعت صوتا خلفى ، فلما دنا منى إذ هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول : اعلم ياأبا مسعود أن الله اقدر عليك منك على هذا الغلام ، فقلت : لا اضرب مملوكاً بعده . . فقلت يارسول الله هو حر لوجه الله تعالى ، فقل : أما لو لم تفعل للفحتك النار . .

وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **من ضرب غلاماً له حداً لم يأته أو لطمه فإن كفارته أن يُعْتقه** » . . وعن أبى على سويد بن مقرِّن رضي الله عنه قال : **لقد رأيتنى سابع سبعة من بنى مقرِّن مالنا خادم إلا واحدة لطمها أصغرنا فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها .**

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

أوريانـــا فالاتـــشي **(صحفية إيطالية)**

لهذا المرأة المسيحية الصهيونية كتابان يتفجران بحمم الكراهية للإسلام والنقمة عليه ووصمه بكل خطيئة حتى أنها تفوقت بتخرصاتها على كل من اليمين المتطرف فى أوروبا ، والصهيونية المسيحية فى الولايات المتحدة الأمريكية .. وسنكتفى هنا بما افترت به تلك المرأة على الإسلام والمسلمين بكتابيها « " كبرياء الغضب " » و " أبناء الله " ..

* فقالت فى « كبرياء الغضب » إن المسلمين : أشخاص وعناصر خطرة وأفراد من الفئة الخامسة .. ثم قالت عن موقف أوربا من إسرائيل : « أجد أنه من العار أن تتظاهر أوربا لصالح إنتحاريين عرب يتقيأون الشتائم القذرة ضد إسرائيل .. رجال مستعدون لبيع أمهاتهم أنفسهن كى يرو اليهود فى أفران الغاز ومخيمات الإبادة النازية من جديد .. أجد أنه من العار أن يعلن أحد أمام الميكروفون باسم الله والحق شكره لهولاء « الكاميكاز » العرب لأنهم يذبحون اليهود فى المتاجر والمطاعم .. أجد أنه من العار أن يرتدى الشباب الأوربى فى فرنسا والدنمارك الكوفية الفلسطينية كأنها شارة موسولينى الفاشية .. أجد أنه من العار أن يدرس الشباب العربى فى جامعاتنا ليزيدوا من معاداة السامية .. وأن تطلب سويسرا بسحب جائزة نوبل الممنوحة لبيريز عام ١٩٩٤ ، فلتذهب إذن جائزة نوبل ولجنتها إلي الجحيم والمجد كل المجد لمن لا ينالها " .

ورغم إلحادها الشديد إلا أن هذا لا يمنعها من ممالأة الإحساس الدينى لغاية مقصودة ..ومن ثم فهى تقول " : أجد أنه من العار أن ينكر الفاتيكان على

* جريدة « صوت الأمة » ، عدد ٢٠٠٢/٧/٨

الشعب اليهودى البطل الذى مازالت الأرقام موشومة على أذرع الناجين من النازية منهم .. الحق فى الدفاع عن أنفسهم كيلا يتعرضوا لمحاولة إبادة جديدة .. من العار أن يستخف رهبان وباسم المسيح (اليهودى الذى من دونه لظلوا عاطلين من العمل) بمقتل اليهود فى القدس .. أن يحتفل بالسفاحين الذين يقتلون شعبا لم يعد قادراً على الذهاب ليأكل أو ينام فى أمان ، أولئك الذين ألقوا بالموت فى طائرتنا ومطاراتنا والعابنا الأوليمبية ويجدون اليوم لذة فى قتلنا وذبحنا وتمزيقنا وقطع رءوس مفكرينا وهم يذكرون آيات من قرانهم .

اليوم ،وبسبب أخطاء ساستنا الغبية يمرح أولئك الأوغاد السفلة فى بلادنا بينما اليهود يرتجفون فيها كلما مر بهم أولئك القتلة مثلما كانوا يرتجفون فى ألمانيا إبان حكم هتلر عندما أمر بصيدهم .. أجل إنه من العار أن تلقى هذه الطفيليات بكلمة السلام بألسنتهم العامرة بالغباء والخيانة وعدم الأمانة وأن نجد فى أوروبا من يساندهم ويتعاطف معهم .

تبا إذن لكل أولئك القوادين ...

إننى أجد كل ما يفعلونه عاراً ..عاراً حقيقيا لأنه دعم مطلق للإسلام ..

لتلك الفاشية الجديدة التى تولد ، لتلك النازية الثانية التى تستعد لتكشر عن أنيابها .لكنها نازية وفاشية أكثر بذاءة وإثارة للاشمئزاز .

لم أكن أبدا من أنصار شارون ..تلك الدمية الدرامية التى تظن نفسها دائماً فى إحدى مسرحيات شكسبير .. كنت اتشاجر مع اليهود وأدافع عن الفلسطينيين فى الماضى ربما باكثر مما يستحقون .لكنى الآن فى جانب إسرائيل ،

فى جانب اليهود . أدافع عن حقهم فى الوجود كيلا يبادون من جديد ، أو معاداة السامية فى أوروبا تثير اشمئزازى وأشعر بالخجل من ذلك العار الذى يشين بلادهم "

الكتاب الثانى لتلك المرأة الصحفية الإيطالية هو كتاب :" أبناء الله " ..

إنه تطاول فى الدرك الأسفل من الإسفاف على مقام الرسول الأعظم محمد ﷺ الذى أرسل رحمة للعالمين والذى وصفة ربه بقوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .. واصح ما يقال فى هذه المرأة أنها فقدت حياء الأنثى وفقدت مزية الفكر ومزية الوعى القويم ونحن نأتى بقولها هنا ليكون نوعا من أنواع الضلال الذى يمكن أن يتدنى إليه الفكر المسيحى الصهيونى .

قالت هذه المرأة فى كتابها " أبناء الله " .." تريدون منى أن اتحدث ، أن أكسر ذلك الصمت الذى فرضته على نفسى طويلا حتى لا أقع فى المحظور .

والآن أكسر صمتى لأننى غاضبة ، غاضبة غضبا صارما عنصريا يزيح أى حاجز أو تعقل ، يدفعنى للرد عليهم والبص فى وجوههم : أعلن لأبناء الله أننى ملحدة، وأننى لن أسمح لهم أبدا بقتلى بسبب إلحادى . لن أقتل على يد أولئك الذين يمضون أوقاتهم ومؤخراتهم فى الهواء . يصلون خمس مرات يوميا بدلا من المساهمة فى تطور البشرية ورقيها .. منذ ألف وأربعمائة عام لا يتحركون .. لا يخرجون من مفاسدهم . ولا يحاولون فتح أبوابهم للحضارة .. يغلقون أعينهم على عماهم الآبدي ولا يريدون سماع كلمة عن الحرية والعدل والديموقراطية والتقدم " .. ثم قالت :" كل أبناء الله فى أوروبا يزاولون تجارة المخدرات،

يمارسون الدعارة التى يبدو أن القرآن الكريم لا يحرمها .

مجموعة من المنافقين يسكرون ويعربدون فى كنائسنا ويتحرشون جنسياً بنسائنا ويطلقون أسلحتهم فى وجه من يعترضهم " .. ثم تصف المسلمين بأنهم :" يفعلون ما يريدون . ولو حاول أحد أن يعترض فإنهم يلتهمونه حيا ويلوحون بسكاكينهم فى وجهه أو على أقل تقدير يسبون أمه وأجداده، وأجداد أمه " .. وبرعونة تقول فى شتائمها :" أعلن لكم أننى آومن بأن المسلمين مصابون بلذة تعذيب الذات . هل تريدون رأيى فى صراع الحضارات ؟ أسالكم أولا : أين هى حضارتهم؟ كيف نضع ما نطلق عليه اسم :" حضارتهم " على قدم المساواة مع حضارتنا كأنهم من نفس الوزن والإسهام ؟ كيف ، ووراء حضارتنا يقف هوميروس وأرسطو وسقراط والديوقراطية والقانون . .والمسيح الذى مات مصلوبا ليعلمنا معنى الحب والعدل . .وراء حضارتنا يقف فردى ، وموتسارت ، وباخ .. تقف تلك الموسيقى التى تؤمن حضارتهم بضرورة تحريمها ، وراء حضارتنا تقف علومنا التى تجعلني حية حتى الآن والفضل لعلمائنا وليس لواحد من أتباع (النبى) محمد ...،كيف نتعامل مع أناس يحرمون الخمور ويقتلون من يشربها . وكل ذلك مذكور فى قرآنهم الذى لا يبدو لى أخويا ولا سلميا ولا عادلا على الإطلاق . .أعلم أنه فى ذلك العالم هناك مكان لكل شخص فإذا كانت النساء فى بلاد ما على درجة من الغباء تجعلهن يقبلن وضع الحجاب على رءوسهن فذلك سيئ بالنسبة لهن إذا كن بتلك البلاهة التى تجعلهن يتزوجن رجلا مصابا بهياج جنسى يدفعه للزواج من أربع .

فذلك أسوأ بالنسبة لهن ولو كان رجالهن بتلك الدرجة من السخافة التي تدفعهم لعدم شرب البيرة والنبيذ فلن تكون أنا من تقنعهم بعكس ذلك .

لكني لا أريدهم أن يفرضوا قواعدهم عليّ . . إنهم يريدون ذبحنا حتى نؤمن بما يؤمنون به سيشنون علينا حرباً صليبية تسمى جهاداً ، لا تسعى لغزو أراضينا وإنما لغزو أرواحنا للقضاء على طرق مأكلنا ومشربنا ، على طرق حياتنا ومماتنا . .

ألا تفهمون أن أبناء الله ، يعطون إنفسهم حق قتلكم وأبنائكم لمجرد أنكم يتحسسون النبيذ والبيرة لأن نسائكم لا يرتدون الشادور ؟ لأنكم تمارسون الجنس مع من أحببتم وقتما أحببتم "؟ .

ثم لا تكف عن النعيق لتثير العدوان على الإسلام « فتقول » ألا تدركون أننا لوسقطنا فسنسمع بدلاً من أجراس الكنائس أصوات المؤذنين، سنجد الحجاب فوق أجسادنا بدلاً من « الميني چيب » سيجعلوننا نشرب لبن الماعز والجمال بدلاً من الكونياك ،، . . ثم تتباكى على نفسها قائلة : « أنا لا أخشى شيئاً منذ أن نشر هذا الكلام أجد من يريد تشويهي وقتلي وقطع رأسي ويسعى لحشد إخوته في المساجد كي يقتلوني على « بركة الله » . . وإلى هؤلاء ليس لدي سوى رد واحد « اذهبوا إلى الجحيم » ."

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

*** القس : چيرى فالويل » أمريكى «**

سيطرت العنصرية الصهيونية على الكنيسة البروتوستانتية فى الولايات المتحدة الأمريكية وهي الكنيسة التى وجهت كل نشاطها الإعلامى ضد الإسلام وفى إطار من العنصرية الصهيونية خرج أحد قساوسة المجمع المعمدانى وهو من المذاهب البروتوستانتينية فى برنامج إذاعى أذاعته محطة « سى . بى . سى » فى السابع من أكتوبر سنة ٢٠٠٢ ، وكان البرنامج بعنوان « ستون دقيقة » .. وقد إجترأ هذا القسيس الذى لمَ يراع تعاليم مسيحيته فسب الرسول ﷺ سبًاً فاحشاً جهولاً لاينبئ عن شئ إلا على غباوة الجهل وحقد العنصرية .. فكان مما إجترأ به على الرسول الكريم قوله : « أعتقد ان محمداً كان إرهابياً ، لقد قرأت مايكفى للمسلمين وغير المسلمين لكى اقرر أنه رجلاً عنيفاً .. وفى رأى فإن المسيح أرسى مثالاً للحب وموسى فعل الشئ نفسه ، لكن محمداً ضرب المثل المناقض لهما .

وإذا كان المسيحيون يفعلون ما أمرهم به عيسى ، فإن المسلمين يفعلون ما أمرهم به محمد والذى لم يكن سوى إرهابى »

ثم يقول على لسان المسيحيين الأمريكيين : إن انتصار إسرائيل على أعدائها يجسد إرادة الرب وأن عودة اليهود إلى أرض الميعاد شرط مسبق قبل العودة الثانية للمسيح » .. ثم يقول فالويل : إن لدينا ٧٠ مليون شخص ولا شئ يمكن أن يصب غضب الجمهور المسيحى على رأس هذه الحكومة أكثر من

---

* جريدة « صوت الأمة » ، عدد ١٤ / ١٠ / ٢٠٠٢ ، الصحفى : هانى زايد

التخلص عن إسرائيل أو معارضتها فى مسألة حيوية » .

وبلغ فالويل قمة الجهل الوقح عندما قال فى كتابه « كشف حقيقة الإسلام » : « إن المسلم الذى يرتكب العنف إنما يفعل ذلك بموافقة مسبقة من محمد » .. أما عن الإسلام نفسه فهو يقول فيه : إنه دين يسعى للسيطرة على الآخرين والتحكم فيهم أو تدميرهم »

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

فى الصحافة الفرنسية

*** كلــود أمبــرت** **كاتب فرنسى**

تآصرت كل من الصحافة الفرنسية وبعض المفكرين الفونسيين فى شن حملات قدح وتشويه للإسلام والإزراء عليه بكل ألفاظ القدح والإزراء .. فالهجوم الصحفى الفرنسى جسدته مجلة « لوبوان » .. فقد خصصت فى مقال إفتتاحى لها هجوماً شرساً على الإسلام ، خلى من العقل والوعى والحياء ، وكان هذا المقال بقلم : « كلود أمبرت » ، وقد استهله بتلك العبارة الوقحة التى كتبها « هوليبيك » فى وصف الإسلام وهى : « إن الإسلام أكثر الأديان غباءً على وجه الأرض » .. ثم قال أمبرت : « إن هذه الجملة (جملة هوليبيك) تعبر عن إعتقاد جوهرى لدى غالبية الفرنسيين وليس لدى هوليبيك وحده » ثم أردف قائلاً « إن جملة هوليبيك تعنى صراحة أن الإسلام هو أكثر الأديان ظلامية وجهلاً على وجه الأرض . وماذا بعد ؟ كيف يفكر متزمتو الجماعة البدائية الإسلامية فى محاكمة رأى أمام العدالة الفرنسية ؟

أين يظنون أنفسهم ؟ فى اليمن أم فى نيجريا ؟ أيظنون أنه من الممكن أن تقضى محكمة فرنسية على الأساس الذى قامت عليه حضارتنا العلمانية ؟

من كان يظن أن يحدث هذا فى بلد ڤولتير ؟ .. وفى تقدير أمبرت أن الغرب قد جانب الصواب حين فصل بين الإسلام والأصولية بعد ١١ سبتمبر الأمر الذى مثل محاولة لبذل المعاناه الفاضلة « كى لا يطبق على الغالبية المسالمة من المسلمين ماتقوم به قلة من المتطرفين معتقدين بوجود الإسلام المتسامح الذى

---

* جريدة « صوت الأمة » ، عدد ٧ / ١٠ / ٢٠٠٢ ، الصحفية : يسرا زهران

نادى به أمثال إبن رشد . لكن ذلك الإسلام العاقل لم يعد موجوداً إلا فى بعض الجيوب الضيقة فى العالم الإسلامى .. ثم يردف أمبرت قائلاً .. « يصيبنا تأنيب ضمير من ماضينا الإستعمارى وحملاتنا الصليبية على العالم الإسلامى لكن ذلك يجعلنا نغمض أعيننا عن العديد من الحقائق الإسلامية التى لا تقل سوءا اليوم عمافعلناه بالأمس » .

ثم ينزع أمبرت إلى مهاجمة الأصولية فعنده أن الإسلام السئ الذى صنع ذلك كله ليس سوى الواجهة المحاربة للقانون والتشريعات القرآنية التى يحاول أى نظام إسلامى وضع قيود وحواجز عليها . ويكفى الإستماع إلى أمثال عبد الصمد موسوى لمعرفة كيف تحول أخوه زكريا من الإسلام المعتدل إلى الإسلام القاعدة . أما الحقيقة الثانيةالتى نتجاهلها فحتى الآن لم تقم عملية إصلاح حقيقية كى تظهر تلك العقيدة التى نزلت من السماء فى القرن السادس الميلادى على سعودية محمد برمالها وجمالها ومقابرها الدامية " ثم يصف أمبرت الإسلام بأنه » دين شمولى رجعى يفرض بنفسه دون تمييز على كل الدوائر العامة والخاصة فى العالم الإسلامى لجبرها على تطبيق قواعده التى تنص على التخلف وتغرق كل بلاد المنطقة العربية والإسلامية فى حالة من التأخر والتبعية والعبودية والرق » .. ثم قال : « إن الإسلام دين غير قابل للإصلاح والتعديل إذ أن مصيرالمصلحين القلائل فى الدين الإسلامى هو الإختناق تحت دستور قرآنى يرفض حرية الفكر ويعلق المجتمع فى آلية معوقة تجعل من النادر وجود بلاد إسلامية تفتح أبواب الحياه العامة للنساء المحجبات .

وفى المقابل تجد رجالاً من نوعية صدام حسين يحملون لواء الرسول محمد

ويشغلهم بناء أكبر مسجد فى الشرق الأوسط بينما تعانى الجزائر منذ عشر سنوات من المذابح الإسلامية الدامية . »

ويرى أمبرت أن نقد الإسلام هو أفضل خدمة يمكن تقديمها لمجتمع المهاجرين المسلم فى فرنسا لأن تلك هى الوسيلة الوحيدة أمام ذلك المجتمع للتقدم والتطور .. ومن أهم الإصلاحات حتى نرضى عن الإسلام هى منع كبار السن الملتحين من إجبار الفتيات القاصرات على الزواج منهم وإحتقار الجدل الفارغ الذى يدور فى مجلس الدولة حول الحجاب فى المدارس ورفض معاداة السامية العنيفة التى تظهر على المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت وترفض تعليم وتوضيح مساوئ الإسلام فى المدارس »" ..

وأخيراً أنهى أمبرت أرا جيفه بقوله : إن المدافعين عن عن الإسلام يدعون أن دينهم ليس سوى دين ضمن الأديان الأخرى .. أتحداكم أن تثبتوا ذلك .. إن علما نيتنا لا تطلب منكم شيئاً آخر » .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

*** تسلمة نسرين بنجلادش**

هناك من تهجم على الإسلام بدعوى أنه لم يعد صالحاً فى عصر العلم والتكنولوجيا والديموقراطية والإنسانية .. وهذا كلام أغرى به مانحن فيه من تطورات علمية هاجت هيجانا عاصفاً حتى أصبح الناس وهم لا يفتحون عيونهم إلا على مخترع جديد .. مثل هذه الحالة خلقت فى قلوب الذين فى قلوبهم مرض ، والذين لا قدرة لهم على البحث نوعاً من الحيرة عن الحقيقة وهى قريبة جداً من عيونهم .. وكذلك اختلط الأمر على الذين تمسكوا بالإسلام على غير وعى أو بصيرة فإذا هم يحجمون فى عكوفهم على نصوصه عكوف الجمود الذى فقد الإحساس بالحياه .. ونحن بين الطرفين لا نعدم أن نجد . وكثيراً مانجد ، تهجماً على الإسلام بدعوى نقده وتصحيحه تشوب دعوى المتهجمين الحيرة القانطة وربما الإصرار . ولكننا لا ينبغى أن ننقد الإسلام حاشى لله أن أصنع هذا . ولكن علينا أن نقول : ننقد منها جنا فى فهم الإسلام ..

وشاهداً على أولئك الذين نقدوا بغير وعى أو فهم أو قدرة على تقدير القضايا تقديراً علمياً صحيحاً امرأة تسمى : « تسليمه نسرين » من دولة بنجلادش ، فكان مما قالت فى دعوتها بضرورة نقد الإسلام : « بالفعل منعت حكومة بنجلادش الجزئ الثانى من كتابى « طفولة أنثى » منعت بيعه وتوزيعه والإعلان عنه ، كما منعت من قبل ثلاثة من أعمالى ولم يكتفوا بذلك بل أرونى كتباً أخرى لى محروقة ومدمرة . ورفعوا علىّ عدداً من القضايا ، خلاف الدعاوى التى يطاردنى بها الأصوليون . بزعم أننى جرحت المشاعر

* جريدة « صوت الأمة » ، عدد ٢٠٠٢/٩/٣٠ ، ترجمة الصحفية : تغريد الدسوقى

الدينية للشعب ، والمدهش أنهم وصفوا كتابى الجديد بأنه يحمل مشاعر مناهضة للإسلام ، قد تؤثر على الأغلبية المسلمة مما يؤيد من إحتمالات التوتر الدينى ، ويعكر صفو التوافق الإجتماعى والسياسى لبنجلادش .

والدهشة تكمن فى أن بلادى لا يوجد فيها أى توافق سياسى أو إجتماعى ، فالإرهاب السياسى قد هدم التوافق من أساسه ، المجرمون يرتعون والنساء تغتصبن ومنهن من تموت منتحرة خوفاً من العار ، والآلاف يضربن ويعذبن حتى الموت ، إن التعذيب يزداد ويأخذ شكلاً متطوراً منذ صار الدين هو القوة المحركة للبنية الوطنية .

إذ هدم الأصوليون التفكير الفردى السليم ، وحصنوا أفعالهم بسياج مقدس ، إذا نقده أحد تعرض لما لا يحمد عقباه ، لأن لا أحد يحاول أن يفهم أو يستخدم عقله خارج هذا السياج .. لقد تسببت المشاعر الدينية فى تخلف الأمة سنوات إلى الوراء فى كل المجالات .

لا أقصد من وراء ما أكتب أن نقوم بتمدين دولة لاتحترم فيها حرية الرأى .

وما تقدمه بنجلادش من ديمقراطية هو مهزلة سياسية ، فالسياسيون المنتخبون يتصرفون بدكتاتورية ، وهذا ليس جديداً على بنجلادش .. لأنه بدافع حصولها على الإستقلال فى عام ١٩٧١ ، بسبب الأحزاب السياسية التى تستخدم الدين كطعم لا جتذاب الناخبين ، والدين هوأفضل آداه لغش الأميين والفقراء .

لا بد من نقد الإسلام وبالأخص فى الدول الإسلامية وهذا شئ مفيد جداً للذين يعيشون فى تلك البلاد .. لأن تحت سلطة الإسلام لا يمكن أن تعيش الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة وحرية التعبير والدول الإسلامية تحتاج جداً

إلى تفعيل العلمانية وأن تلغى بصورة عاجلة القوانين الإسلامية حتى ينقذوا النساء .

فى ظل الإسلام النساء جوار وأداه جنسية وليس من حقهن أن يعش كانسان .. وإذا كنتم تريدون مصالحة الدول الإسلامية فلابد أن تحاربوا الإسلام ، بعض الغربيين يدافعوا عن الإسلام ويحملون مشاعر متعاطفة معه ويساندون الأصوليين بإسم اللبرالية ، كما أنهم يساندون أيضاً أضطهاد الإسلام للمرأة بأسم تعدد الثقافات ، هؤلاء هم الأعداء الحقيقيون للدول الإسلامية .

فى الحقيقة لا يوجد أى فروق بين الإسلام والأصولية الإسلامية ، فالأصوليون يطبقون الإسلام الحقيقى ، والدول الإسلامية التى تتخذ من الإسلام قوة دفع ستتخلف بالتأكيد عن الحضارة الحديثة .

نحن نسمع كثيراً عن الخلاف بين الغرب والإسلام وأنا لا أوافق علىّ هذا الرأى فالحقيقة هناك خلاف بين العلمانية والأصولية ، مابين التقليديين والتقدميين ، وما بين التفكير المنطقى العقلانى والإيمان الأعمى الجاهل ، مابين الحاضر والماضى هناك فعلاً بين من يحبون الحرية ومن يكرهون الحرية .

القضية التى تطرح نفسها اليوم بقوة : هى كيف نحل هذا الخلاف ؟ ، عن طريق القصف بالقنابل ؟ بالطبع لا ، فأنا لا أومن بالقنابل بل عن طريق التعليم ، ما أريد أن أقوله : إن الطريق الأمثل لإستئصال الأصوليين من المجتمع هو التعليم ، وبالأخص التعليم العلمانى ، لابد من تنشيط ودفع العلمانية والإنسانية كمحرك سياسى لبناء المجتمع مع الأخذ فى الإعتبار أن إزهاب الدولة أكثر خطر من إرهاب الفرد .

أتمنى ألا نهجر الأمل فى إنقاذ الجنس البشرى ، بالفعل يوجد من يجهلون ذلك ولكن ليس الحل هو قتلهم

فى كتابى حكيت أننى تربيت فى أسرة مسلمة ، قبل أن أصبح متشككة ثم ملحدة . وكثيراً ما إنتقدت حياة النبى محمد والذى أعتبره أتباعه قديساً وكانوا مستعدين للموت من أجله ، ولطالما تصديت لأصدقائى من الأطباء فى كلية الطب أو فى المستشفيات الذين مازالوا يذهبون للصلاة فى المسجد ، وأتعجب كيف لهؤلاء الذين يدرسون العلوم يومنون بمسالة الدين هذه ؟

إذا كان منع كتابى هو مسألة لها علاقة بالحكومة فإننى سوف أستغرب أنه لم يقل لى أحد أنا أكره أفكارك ولكننى سوف أقاتل لتستطيعى التعبير عن نفسك ، أنا لا أحلم أن أكون فواتير فى بلدى ، ولكن على الأقل أن أصبح جملة صغيرة ومتواضعة يكتبها أحد عنى .

هكذا إختلطت المعانى فوق صراع فريد فى نوعه .. صراع بين اللفظ والمعنى فصار لمن وصفوا أنفسهم ، أو وصفوا ، بالأصوليين ، معنى أو معانى خاصة بهم لا يعرفها سواهم حتى ظنوا أنهم هم المسلمون رمن عداهم كفرة ملحدون متحررون .. وحتى أصبح للحرية جملة من المعانى المتداخلة والمتقاطعة بحيث يصعب التمييز فيها بين السبيل القصد رالإنحراف الفاسد المضل .

ولعلنا لو نظرنا فى الأحوال السياسية والإجتمتاعية للعالم الإسلامى لوجدناأن المسلمين هم الذين صنعوا ماحاق بهم .. لقد عاش المسلمون عصر المماليك وعصر الهجمات الصليبية .. ثم عصر الإستعمار العثمانى ، ثم

الفرنسي ثم الإنجليزى فوقع العالم العربى والإسلامى فى محنة التخلف بصورة وأشكاله ومقاصده .

ثم نشأت خلال المحنة دعوات للإصلاح تحمل شعارات متناقضة .. وكانت النتيجة أن صار المسلمون وهم يواجهون العصر الحديث ، إلى فوضى التناحر الإجتماعى الذى يهدد وجودهم وقدرتهم على مسايرة الحضارة الحديثة تعاوناً ومنافسة .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

فلا يدع ، وهذا مما إبتلى به الإسلام ، فى أن تظهر دعوات شاذة فى تفكيرها الإسلامى حتى صاره سبه فى وجه الإسلام ..

وهم فى كل ذلك المعترك المحموم والذى تعبث به مقاصد منكرة ، لا يعرفون شيئاً عن قرآنهم ولا عن نبيهم الذى جاء رحمة للعالمين ..

بل إن منهم من صار يفتخر بالحادة ، وكان الإلحاد هو دليل الحرية .. ومن هذا الصنف تلك المرأة التى كانت مسلمة فى يوم من الأيام ..

نسيـــم دانــى   يهودى عربى إسرائيلى

فى تقويمنا لنظرة اليهودى نسيم إلى القرآن الكريم وتفكيره فيه وكيف يصوغ آراءه .. رأينا أن نأتى بحديث له فنعرضه بكل ماجاء فيه لكى يكون ردنا عليه حاسماً ..

قال الصحفى الحسين محمد (1) فى عرضه للحديث :

« بقدر الصدمة التى أحدثتها هجمات ١١ سبتمبر فى عقل العالم ومشاعره خاصة فى الغرب بقدر مادفعته إلى التفكير فى ديانة هؤلاء المشتبه فيهم بإرتكاب الفعل البربرى ، ولأنهم كانوا من المسلمين فقد بدا كما لو أن الغرب اكتشف ديناً جديداً لا يعرف عنه شيئاً مع أن الإسلام يعيش فى ضمير العالم منذ ١٤ قرناً . واكب الباحثون والمغرضون والجادون وأصحاب الهوى والمتخصصون والعاديون على قراءة كل مايظنون أنه الإسلام .

وحققت مبيعات تلك الكتب أرقاماً قياسية لم تحدث من قبل ، الكل يحاولون أن يجد إجابة لسؤال صعب :ما الذى يدفع إنساناً إلى كل هذا القدر من التشدد والتعصب الدينى ، فيقدم على عمليات يضحى فيها بنفسه ويقتل آلاف الأبرياء ؟ .

لكن الإسرائيليين كالعادة فكرو بشكل مختلف وهو استثمار هذه الفرصة التى واتتهم فى تعضيد إغتصابهم لأرض فلسطين ، وكما اضفوا على هذا الإغتصاب أساطير مستوحاه من التوراه ، يحاولون الآن الحصول على صكوك ملكية من نصوص القرآن ، وقد عكف باحث إسرائيلى جاد خبير فى الأديان والثقافات الخاصة لشعوب الشرق الأوسط أسمه : « نسيم دانى » على تحليل النصوص القرآنية وخرج بدراسة تحمل إسم « شعب إسرائيل وعلاقته بأرض

---

(١) جريدة « صوت الأمة » ، عدد ٢٠٠٢/٩/٣٠ .

فلسطين طبقاً للقرآن ومفسريه » .. وهى دراسة تنتهى إلى نتائج تخالف تماماً ما إستقر فى نفوس المسلمين لأكثر من ١٤٠٠ سنة .

يقول « دانى » فى دراسته : بالرغم من معاداة القرآن الواضحة لليهود إلا أنه لم يشكك أبداً فى حقهم فى أرض فلسطين ، ويوجد فى القرآن ثلاثة أو أربعة نصوص يوضح فيها النبى محمد عليه الصلاة والسلام على لسان الرب أن أرض إسرائيل تنتمى وتخص اليهود ..

فى سورة المائدة الآية ٢١ يقول الله تعالى ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) ﴾ وفى سورة الأعراف الآية ١٣٧ وهى تصف الحال بعد عبور سيدنا موسى عليه السلام وبنى إسرائيل البحر ، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ وفى سورة الإسراء الآية ١٠٤ وهى تتعلق بالنبوءة التى تتحدث عن الآخرة يقول الله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾

وقد أجرت جريدة : يدوت أحرونوت حواراً مع الباحث « نسيم دانى » ننشره بنصه لأهميته ، ولكى نعرف بدقة ماذا قال وكيف .. ونسيم دانى يهودى عربى من مواليد دمشق وهاجر إلى إسرائيل عام ١٩٤٩ وعمل بالمخابرات الإسرائيلية فى الوحدة ٨٢٠٠ وهى وحدة متخصصة فى التنصت ، وبعد أن

أنهى تجنيده حصل على درجتى الماچستير والدكتوراه فى اللغة والأدب العبريين والأدب العربى من الجامعة العبرية ثم عين مسئولاً عن طائفة الدروز فى عام ١٩٦٣ بوزارة الأديان وصار فى عام ١٩٨٢ رئيساً لشعبة متابعة الطوائف الدينية فى إسرائيل .

وهذا نص الحوار :

س - هل تقصد فى دراستك أن القرآن ليس كما كنا نعتقد فيه ؟

جـ - بالتأكيد وهذه مفاجاة كبرى .

س - وأين إختفت هذه الآيات ؟

جـ - يعتمد رجال الدين الإسلامى والذين يعرفون هذه الآيات جيداً ، ويعرفون تفسيراتها . . وعلى دراية بالتاريخ الدينى لشعوب المنطقة لكانوا قد نجحوا فى مصادر وحيهم والهامهم . مع تقدير الطريقة التى يحدد بها المسلمون أهدافهم ، أو توقع بعض الأخداث المحتملة ، ، ومعرفةإمكانات العمل بينهم ، وحتى هذه اللحظة لم يسطع الإسرائيليون فهم الأمور فهما دقيقاً ، ومثال ذلك أننى إلتقيت فعلاً مع مسئول إسرائيلى كبير ، ودار حوار بينا حول إتفاق محتمل مع السوريين ، وظهرت صعوبات ومشكلات في إستكمال المفاوضات ، فسألنى وقتها : هل العلويون الذين يمسكون بمقاليد السلطة ليسوا مسلمين ؟ أجبت عليه إنهم ليسوا مسلمين فهم مثل الدروز والأحمديين الذين يكفرون بالنص القائل إن محمد خاتم الأنبياء ، ولا يوجد نبى بعده ، وهذا الكفر بهذا النص

يكشف أن الشكوك تملأ قلوبهم من البداية ويستشعرون الخيانة وعدم الولاء ، وكأنهم فى محك إختبار دائم وهذا يوضح بأنهم طالما ظلوا في السلطة فمن الصعب التوصل إلى إتفاقية معهم بشكل أو بآخر حتى يتفادوا هذا الإحساس خلافاً للحال مع الأردن ومصر . .

س ـ وماذا عن الفلسطينيين ؟

جـ ـ ثمة ميثاقان يحددان السلوك العام تجاه إسرائيل فى السنوات العشر الأخيرة . . هما الميثاق الفلسطينى ، والميثاق الخاص بحركة حماس ، ويقف وراء الميثاق ياسر عرفات والشيخ أحمد ياسين وكلاهما يعتمد على ماجاء فى القرآن . . البند ٢٠ من الميثاق الفلسطينى يحدد أن مزاعم اليهود بخصوص العلاقات التاريخية أو الروحانية لهم بأرض فلسطين لا تتوائم مع الحقائق التاريخية ، أما البند ٣٢ من ميثاق حماس فيقول إن الصهاينة يتطلعون للإنتشار من النيل إلى الفرات بعد إحتلال فلسطين .

وإن هذه الخطة موجودة بالتفصيل فى بروتوكولات حكماء صهيون . وعموماً ميثاق حماس متأثر ببعض الآيات القرآنية ، لكن الشيخ ياسين يعلم تماماً أن معظم مؤيديه يقرءون القرآن ولا يعرفون أن الآيات المنقولة إلى الميثاق لا تتعرض إبداً لليهود مثل الآية التى تؤكد أن مصير الكفار هو جهنم .

س ـ لكن هناك آيات أخرى تقول أن أشد الناس عداوة للمؤمنين هم اليهود . .

جـ - هذا صحيح ، وهذه هى الرسالة الأساسية التى يحاول رجال الدين الإسلامى نشرها ، لكن ما أريد توضيحه هو الفصل بين العلاقة المعادية التى قامت أساساً بسبب رفض اليهود الإعتراف بالنبى محمد وبين حقهم فى أرض فلسطين ، ونجد فى هذا الخصوص أن الميثاقين يتجاهلان هذا الحق ويحاولان أن يجعلا العلاقة بين المسلمين وأرض فلسطين علاقة أبدية .

فالعلاقة حسب المعتقدات الإسلامية تقوم على أمر الله للمسلمين بالتوجه فى الصلاة نحو المسجد ، قبل أن تنتقل القبلة إلى الكعبة ، وتستند أيضاً إلى قصة صعود محمد إلى السماء من القدس ، ومن العلاقة بالقدس تنبعث العلاقة بأرض فلسطين ، والمقصود بالقدس هو المسجد الأقصى .

وأود أن أقول أن لفظ القدس لم يرد ولا مرة واحدة فى القرآن وإنما ذكر المسجد الأقصى مرة واحدة فقط فى سورة الإسراء وبالنسبة للقصة المذكورة فى القرآن عن رحلة الرسول من مكة إلى القدس فى ليلة واحدة على حصان يدعى البراق ، والصعود إلى السماء ، والعودة مرة أخرى فى نفس الليلة ، فقد كتبت بعد وفاة النبى ، والمذكورة فى القرآن فقط فى سورة الإسراء جملة واحدة هى: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)**) وإعتمدت فى بحثى على كتابات أكثر من ١٢٠ مفسراً إسلامياً بالتوازى مع دارستى للقرآن ، فوجدت مثلاً أن أبن كثير وهو واحد من أبرز المفسرين وقد عاش في مصر ومات فى القرن الرابع عشر الميلادى يقول فى كتابه : « كافر من يصدق قصة أن

الرسول قد ذهب إلى المسجد الأقصى . كما أن السيدة عائشة زوجة الرسول والتى نقل عنها أحاديث كثيرة بعد وفاة الرسول قالت : إن الرسول كان موجوداً طول اليوم فى المنزل بجسده ولكن الله قام بنقل روحه إلى هناك .

والخلاصة أن رجال الدين قالوا إنها أسطورة بينما زعم الناس أنها حقيقة وانتصرت فى النهاية مزاعم الناس .

س ـ لهذا السبب صارت القدس مدينة مقدسة ؟

جـ ـ نعم لأن ذلك قد تواءم مع ضرورة سياسية ظهرت متأخرة . وكل مرة تحدث مواجهات بين التيارات الإسلامية المختلفة يتعاظم وضع القدس .

س ـ من المعروف أن القرآن قد استكمل فى القرن السابع الميلادى فما هى درجة موضوعيته مع واقع هذه الأيام ؟

جـ ـ الموضوعية مستمدة من حقيقة تقولها المواثيق الفلسطينية بأنها ترتكز علىٰ القرآن والأئمة يقولون إن مرجعيتهم هى القرآن . . حتى رجل الشارع نفسه مقتنع بأن هذه الحرب هى أمر فرضه القرآن عليهم مع أنه يجهل الآيات التى تتناول هذا الأمر .

وقد حدث أن حضرت ندوة مؤخراً شارك فيها عدد من أعضاء الحركة الإسلامية وعندما قمت وقرأت الآيات الدالة على حق اليهود فى أرض فلسطين وقع نوع من الإرتباك ثم زعم ممثل الحركة الإسلامية أن المقصود فى الآيات هو وعد قديم إنتهى منذ حلت خطيئة عبادة العجل ، وخان الشعب الإسرائيلى ربه

فقام الرب بالإبتعاد عنهم والغضب منهم .

س ـ لكن هل ثلاث أو أربع آيات فى القرآن كتبت منذ ١٣٠٠ سنة تعد تفسيراً لإشتياقنا لأرضنا ؟ (طبعاً السائل لا يعرف أنها نزلت منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة)

جـ ـ أنا بحثى يتطرق إلى النص بإعتباره نصاً ربانياً وهو شئ موضوعى لكل واحد من المؤمنين ، ولا يوجد من يستطيع تجاهل الحقيقة الواضحة وهى أن هناك ذكراً لأحقية بنى إسرائيل فى أرض فلسطين حتى لو كان مذكوراً فى ثلاثة مواضع مختلفة ، كما لا يوجد ذكر واحد لقدسية الأرض بالنسبة للمسلمين .

س ـ إذن كيف أصبح القرآن مرجعاً (للإرهاب) الإسلامى ؟

جـ ـ هذا نتيجة وأد وتجاهل ما جاء فى الكتاب السماوى ، وتفعل ذلك كل المنظمات المتشددة والأصولية مثل حماس ، وحزب الله ، وهذه دون أن نقلل من حدة التعبيرات المضادة لليهودية فى القرآن ، وبالتالى كل العبارات التى تنادى بالجهاد مع ربط ذلك بأرض فلسطين هى نوع من الثرثرة التى لا أساس لها من الصحة ، ليس فقط فى نصوص القرآن ولكن أيضاً من خلال التفسيرات المتعددة لهذه النصوص .. هل تعرف أن كلمة سيف لم ترد فى القرآن ؟

إن الجهاد ضد اليهود بدأ وانتهى فى أزمة يهود الدولة الإسلامية الذين رفضوا دين محمد ، وبالنسبة للإنتحاريين ، لقد تعهد القرآن بأن من يستشهد لا يعد ميتاً بل حياً وأن الله سوف يعتنى به ، ولكن لم يذكر اليهود فى هذا السياق أيضاً

س - هل المنتحرون يؤمنون بهذه الوعود ؟

جـ - المسلمون كلهم يؤمنون بذلك بما فيهم الشيوعيون وأعضاء الجبهة الشعبية إذ لا يوجد بينهم علمانيون .

س - هل تعتقد أن الشيخ أحمد ياسين يشوه النص لغرض المراوغة والمناورة ؟

جـ - أنا لا أعرف مابداخله ، لكنه يعلم النص جيداً ، وقد يكون ا من الذين يؤمنون بأن الرسول صعد إلى السماء من القدس " .

✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡✡

حاول نسيم دانى فى حواره هذا أن يتشح بوشاح العلماء أصحاب النظر الصائب والإنصاف فى التقويم ، إقامة لموازين القسط فى تقديره للإسلام . .

ولكنه . أى نسيم دانى لا يمكنه بأى حال من الأحوال أن يخرج عن يهوديته فيما كتب عن الإسلام والمسلمين وفيما كتب عن القرآن و أحاديث الرسول ﷺ . و محور الحوا ر الذي أفا ض فية و حاول أن يحتج لة بمحاولا ت هي مسأ لة حق اليهود في أرض فلسطين فكا ن أن احتج من القرآن الكريم بثلاث آيات هى : ﴿ **ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** } « ٢١ سورة الأعراف » .

{ (١٣٦) **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** (١٣٧) ﴾

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾

يتقرر فى هذه الآيات البينات أن الله سبحانه وتعالى قد أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا أرضاً معينة من فلسطين لإنقاذهم مما أبتلو به من ضعف وعذاب وان سُكْنى هذه الأرض كان مشروطاً بألا يرتدوا على أدبارهم فإن إرتدوا فمن البدهى أن تنتقل إلى غيرهم كسنة من سنن الإجتماع الإنسانى وليس فى هذا إدعاء أو شذوذ أما القول بأن الأرض التى سكنها بنوا إسرائيل كتبت لهم أبد الأبيد فهذا هو الإختلاق بعينه فالسكن فى حد ذاته عمل إجتماعى موقوت وكذلك الميراث . .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم قد ميز بين بنى إسرائيل واليهودفبنو إسرائيل هم أصحاب شريعة موسى التى طالما عصوها وقلما عملوا بها ثم خلفهم اليهود عليها عندما صار أمر بني إسرائيل إلى يهودا رابع أبناء يعقوب . . [وهو الذى ينسب اليهود إليه] . . وتولى اليهود أمراً يستحيل أن يديم الوجود اليهودى (الإسرائيلى) فى الأرض التى فضلها الله لهم . وذلك وهو التزييف . . ولم ينعت اليهود فى القرآن الكريم بصفة إلا بأنهم المحرفون أو المزيفون ، فقال جل شأنه :

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ (٤٦) ﴾ [سورة النساء]

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (١٣) ﴾

[سورة المائدة]

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ (٤١) ﴾

[سورة المائدة]

﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [سورة البقرة]

فإذا كان اليهود على هذه الشاكلة وقد طرقتهم طوارق بابل ،وأشور ، وفارس ، والروم فهل من الممكن أن يظلوا في الأرض التي كتب الله لهم أم أن يشملهم الفساد والإنحلال وأن يستبدل الله بهم قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم ؟

ذلك ماوقع .. وتلك سنة الله

وإذا كان « نسيم داني » يريد أن يفسر الآية القرانية التي تقول ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا (٨٢) ﴾ [سورة المائدة]

فإنه يدعى بأن هذه الآية جاءت في وقتها بسبب رفض اليهود الإعتراف بالنبي محمد في الوقت الذى لم يكن لإعترافهم فائدة تذكر سوى أن كراهيتهم طبع نفسي وأخلاقي متأصل لا يمكن التخلص منه أو معالجته .. ألم يطلقوا على سائر البشر غيرهم إسم الأمميين أو الجوييم ؟

ألم يجعلوهم في أدنى درجات المخلوقات ؟

ألم يجعلوا أنفسهم الشعب المختار ؟

ألم يقولون إن روح الله حل فيهم وإن روحهم حلت في الله ؟

ألم يقل تلموذهم عن المسيحيين : .. لا يقول المسيحيون في الكنائس ولا يفعلون إلا ما هو مخالف للحقيقة ومناقض لها .. وهم لا يختلفون عن عبدة الأصنام وواجب اليهودى هو العمل ضد هذه الكنائس .. إن إنجيل المسيحيين ليس إلا مذهب الخطيئة المعلنة بوضوح ، وواجب اليهودى هو إحراقه على الرغم من وجود اسم الله فيه ؟؟

ويقول التلموذ : « وواجب اليهود هو لعن المسيحيين ثلاث مرات كل يوم

والإبتهال إلى الله بإدانتهم جميعاً .. وبخاصة ملوكهم وحكوماتهم .. وينطبق هذا المبدأ على رؤسائهم الدينيين بصورة خاصة .. ولابد من إثارة الحقد ضد المسيحيين لقد أعطى الله اليهود حق الإستيلاد على أموال المسيحيين بمختلف السبل والوسائل الممكنة سواء عن طريق التجارة أو عن طريق اللطف والرقة أو عن الغش والخداع وحتى عن طريق السرقة "، ثم يقول التلمود :" يحب الله البلاد التى لا يحكمها المسيحيون أكثر من البلاد الخاضعة لحكم المسيحيين .. يرتكب اليهودى خطيئة إذا ما خدم أحداً من عبدة الأوثان ، ولكنه يرتكب جريمة كبرى إذا ما عمل فى خدمة رئيس مسيحى " ..." على اليهودى أن يكون مقتنعا بأن المسيحى هو حيوان متوحش .. ويجب عليه أن يتعامل معه على هذا الأساس ، وعلى اليهودى عدم عمل الخير أو الشر مع الوثنيين ..ولكن عليه استخدام كافة جهوده لتدمير المسيحيين .. إذا ما رأى يهودى مسيحيا عند طرف جرف سحيق فعليه إن يدفعه إلى أن يصل المسيحى إلى قاع الهوة " .

وفى عماية الجهل المُزَيِّف يقول دانى :" وأود أن أقول إن لفظ القدس لم يرذ ولا مرة واحدة فى القرآن .. ذكر المسجد الأقصى مرة واحدة فقط فى سورة الإسراء " ..

أولا ، يريد " دانى " أن يوهم قارئه ـ أو سامعه ـ بأنه خبير بالقرآن فى أساليبه عليم بمقاصده .. وهو بهذا واهم جد الوهم لأنه لن يستطيع أن يدرك الغايات التى جاء من أجلها القرآن فى ذكر الألفاظ ..ونقول أولا ، إن لفظ القدس لم يرد ولا مرة واحدة فى القرآن لأن المقام هنا مقام تنزية للعبودية فى أسمى درجاتها وأعلاها والعبادة تتمثل فى أدائها فى المسجدين ، المسجد الحرام والمسجد الأقصى حيث لا يكون السجود إلا لله وحده وهذا دلالة التنزية التى تمثلت فى العبارة الآتية ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا** ﴾ **إذن** فذكر المسجد الحرام يقتضى بداهة ذكر مسجد مقابل الا وهو المسجد الأقصى ومن ثم فلفظة بيت المقدس لا تستقيم هنا أبدا لا فى تواتر اللفظ ولا فى تواتر االمعنى ..

ثم إن بيت المقدس لا يعنى إطلاقا العبادة . فالقدس لا يزيد فى معناه عن

الطهر والزكاء والرفعة ولكنه لا يشى باى معنى للعبادة أو باى شكل للتعبد .. وكان " دانى " يريد أن يقول : إن قرآنكم يامعشر المسلمين متعصب ويكن عداوة لليهود - فلمَ لم يذكر " بيت المقدس " فى آياته ؟

أما أن يقول دانى عن قصة الإسراء :" .. المذكورة فى القرآن فقط فى سورة الإسراء جملة واحدة وهى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ " .. فماذ ا كان يريد " دانى "؟ هل كان يريد أن يجعل من قصة الإسراء فى صياغتها القرآنية على شاكلة القصص التوراتية التى لا تكف عن الإسترسال والتخبط إلى حد التخريف الأسطورى ؟ هذا فضلا عن أن الموقف فريد لم يحدث من قبل لأحد من العامين إذن فلا بد أن يكون هو موقف الحسم الذى لا يجب الإفاضة فيه .

ومن افتراءات ذلك اليهودى أن يقول إن ابن كثير قال :" كافر من يصدق أن الرسول قد ذهب إلى المسجد الأقصى " ... ولكننا بعد القراءة المفصلة لما كتبه ابن كثير فى هذا الموضوع لم نجد شيئا مما افترى به " دانى " ... ثم قال عن موقف السيدة عائشة رضوان الله عليها مُن الإسراء أنها قالت :" إن الرسول كان موجودا طوال اليوم فى المنزل بجسده ولكن الله قام بنقل روحه إلى هناك " .. فهذا الكلام يشى بأن الحادث وقع نهارا . فهنا من ثم إثارة للشك فى موعد الإسراء مع أن النص القرآنى صريح فى أنه كان ليلاً ...

ثم جاء قول "دانى " :" والخلاصة أن رجال الدين قالوا (عن حادث الإسراء)، إنها أسطورة بينما زعم الناس أنها حقيقة وانتصرت فى النهاية مزاعم الناس " .

أما أن يقول رجال الدين إن حادثة الإسراء أسطورة فكأنهم يكذبون بما جاء به القرآن الكريم ، فهذا افتراء على رجال ادين .. وأما أن يقول " دانى " :" بينما زعم الناس إنها حقيقة وانتصرت فى النهاية مزاعم الناس " .. فإذا كان الزعم

إرجاف بغير حق فكأن جهال الجماهير هم الذين أيدوا حادثة الإسراء . . .وبذلك يقرر " دانى " فى حقد جهول أن الإسراء والمعراج أكذوبة روجها محمد عن نفسه .

ثم أورد " دانى " عدة أكاذيب منها :" وقرأت الآيات الدالة على حق اليهود فى أرض فلسطين " . . علما بأنه ليس فى القرآن الكريم ما يدل على أن هناك ثمة حقوقا لهم إنما كانت منحة ربانية لبنى إسرائيل أما وإن بنى إسرائيل لم يصونوا النعمة فقد ضاعت منهم ومن اليهود أيضا وتلك سنة اجتماعية . . ثم إن " دانى " يريد أن يرى فى القرآن ما يقدس الأرض التى سكنها اليهود . . فكأنه يريد أن يقدس المسلمون أرض القدس دون غيرها . . أو كأنه يريد أن يتعالى على المسلمين بأن أرض اليهود هى وحدها المقدسة .

ومن السخف والفضول أن يقول " دانى ؛ لصاحبه :"أن كلمة سيف لم ترد أبداً فى القرآن " . . ولماذا ترد كلمة سيف فى القرآن ؟ هل للدلالة على القوة ؟ إن القرآن أعم وأبعد غاية وأنبل مقصدا فى ذكر دلالة القوة التى يدافع بها المسلمون عن دينهم ووجودهم . . إن غاية "دانى " أن يقول :" يا معشر المسلمين إن دينكم انتشر بالسيف . .فلماذا لم ترد كلمة " السيف " فى قرآنكم

ثم يعود "دانى " إلى جهله أو تجاهله فيقول :" إن الجهاد ضد اليهود بدء وانتهى فى أزمة الدولة الإسلامية الذين رفضوا دين محمد " . .

إن دانى يريد أن يصور اليهود وكأنهم كانوا القوة المحسوبة التى تفرض على المسلمين أن " يجاهدوها " . . لكن لفظة " الجهاد " التى تعمد "دانى " استخدامها لا تتفق وضآلة شأن اليهود ومن ثم فكيف يكون لهم دولة . . لكن ماذا نقول ؟

هكذا اليهود زيفوا ماضيهم . . ويزيفون حاضرهم . .بل هم مصرون على تزييف المستقبل . . أجل إنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بغير التزييف والتحريف

الفهـــــرس

المراجـــــع

١ ـ كتاب : نهاية التاريخ ... د/ عبد الوهاب المسيرى

٢ ـ كتاب : أحلام الصهيونية ... روچيه جارودى .. ترجمة جريدة الأهرام

٣ ـ كتاب : مشكلة اليهودية العالمية .. فؤاد شبل

٤ ـ كتاب : الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية .. روچه جارودى ، ترجمة محمد هشام .. الناشر دار الشروق ١٩٩٨

٥ ـ كتاب : التراث اليهودى الصهيونى والفكر اللفرويدى ..د/ صبرى جرجس، ١٩٧٠

٦ـ كتاب :شلنج ...د/ عبد الرحمن بدوى

٧ ـ كتاب : قصة الحضارة ، تأليف ول ديورنت .. عصر الإيمان ، ترجمة محمد أمين

٨ ـ كتاب : اليهود أنثروبولوجيا .. جمال حمدان

٩ ـ كتاب : العرب الأصل والصورة .. د/ مصطفى الفقى

١٠ ـ كتاب : فى المعرفة التاريخية ..ارنست كاسيرر .. ترجمة : أحمد حمدى محمود

١١ - كتاب : مطلع النور .. عباس محمود العقاد

١٢ - كتاب : ممنوع من التداول .. محمود عوض

١٣ - كتاب : آمال جديدة فى عالم متغير .. برتراند رسل ،

ترجمة : عبد الكريم أحمد

١٤ - كتاب : الصهيونى العالمى .. صدر عن مؤسسة فورد .. لجنة اخترنا لك

١٥ - كتاب : الصهيونية غير اليهودية .. ريجينا الشريف ..

ترجمة : أحمد عبد الله

١٦ - اليهودية دين لا قومية .. آلمر برجر .. ترجمة ك لجنة اخترنا لك

١٧ - كتاب التمرد : قصة الأرجون .. مناحم بيجن .. ترجمة هيئة الكتاب

١٨ - كتاب إسرائيل والشرق العربى ..

تأليف المستشرق اليهودى الفرنسى : مكسم رودنسون

١٩ - كتاب : أبو الأنبياء .. العقاد

صحيفة : " صوت الأمة .. الأعداد بتواريخ " ١٣ / ٥ / ٢٠٠٢ ،

٨ / ٧ / ٢٠٠٢ ، ١ / ٧ / ٢٠٠٢ ، ٢ / ٩ / ٢٠٠٢ ،

- كتب : بروتوكولات حكماء صهيون ... ترجمة · حسين عبد الواحد
(كتاب الأخبار يوليو ٢٠٠٢)

